العدد ٤ - ربيع الثاني ١٤٤٠ هـ / كانون الأول ٢٠١٨ م

مقاربات

مجلة فصلية

أبحاث ومقالات في الشريعة والفكر والحضارة

المجلس الإسلامي السوري
SURİYELİ İSLAM KONSEYİ | SYRIAN ISLAMIC COUNCIL

- أبرز مثارات الغلو في فكرنا الإسلامي
- منهج صناعة القدوة الحسنة
- نقض منهجية القراءة المعاصرة للنص القرآني عند محمد شحرور
- مدخل لتقارب الرؤى حول الإعلام والإعلام الإسلامي

الخطاب الإسلامي

مُقاربات
تصدر عن
المجلس الإسلامي السوري

أســرة التـحـريـر

رئيـس التحـريــر: الدكتـور حسـين عبد الهـادي آل بكر

مديـر التــحـريــر: الدكتــور حسـن أحــمد الخطــاف

مستشـار علمــي: الدكتــور مـحمــد أيمــن الجمـال

المـحــرر: الأســتــاذ مــحمد عــلــي النجــار

منبر مسجد ومدرسة السلطان حسن بالقاهرة: يعد أكثر آثار القاهرة تناسقًا وانسجامًا، ويمثل مرحلة نضوج العمارة المملوكيّة، يتكون البناء من مسجد ومدرسة لكل مذهب من المذاهب الأربعة الشافعي، الحنفي، المالكي، والحنبلي.

المقالات الواردة في المجلة تعبر عن رأي كاتبها ولا تعبر بالضرورة عن رأي المجلة

البـريــد الإلكــتـرونـي للـمجلـة: jou@sy-sic.com

محتويات العدد

خيريَّة أمَّة (افتتاحية العدد) - رئيس التحرير: د. حسين عبد الهادي آل بكر ٢

أبرز مثارات الغلو في فكرنا الإسلامي - أ. د. حسن الخطاف ٦

نقض منهجيّة القراءة المعاصرة للنّصّ القرآنيّ عند م. محمد شحرور - الباحث: عباس شريفة ١٤

الخروجُ من التِّيه - د. عبد الجواد حردان ٢٤

منهجُ صناعةِ القدوةِ الحسنةِ في الشَّريعةِ الإسلاميَّةِ - د. محمد تركي كتوع - الباحث: محمد علي النجار ٣٤

الحدود بين الغلو والرفض - ضوابط وموانع - د. محمد نور حمدان ٤٣

فقهُ الأمرِ بالمعروفِ والنهيِ عن المنكرِ - د. معاذ الخن ٥٠

السنن الربانية - أ. د. أحمد معاذ حقي العلواني ٥٦

ملف العدد

مدخَل لتقارب الرؤى حول الإعلام والإعلام الإسلاميّ - الأستاذ: نبيل شبيب ٦٢

خصائص الخطاب السياسيّ في القرآن الكريم وعلاقته بالخطاب الدعويّ - د. عبد السلام البيطار ٧٤

قراءة في ظاهرة الإلحاد وكتاب «قصة الإيمان» - الباحث: محمد حازم طباخ ٧٩

ضوابط المصلحة الدعوية - الباحث: عبد الرحمن عبد الله رجو ٨٥

قراءة في أهم أسباب ظهور الخطاب الديني المتطرف - الباحث: حسن الدغيم ٨٨

الخطاب الديني للناشئة - الكاتبة: عابدة المؤيد العظم ٩٢

فتاوى فقهية - مجلس الإفتاء السوري ٩٤

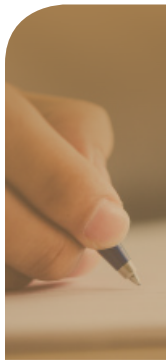

كلمة رئيس التحرير

خيريّة أمّة

الدكتور حسين عبد الهادي آل بكر

علينا أن نوحد النموذج الذي يعكس خيرية الإسلام وقيمه الربانية، لنكون بحق كما أكرمنا ربنا بقوله: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ﴾ [سورة آل عمران: آية ١١٠]، خير أمة في استقامتها وتقواها، خير أمة في أدائها السياسي والاجتماعي والاقتصادي والعلمي والتربوي، خير أمة في خُلقها وتعاملها الفردي والجماعي.

خير أمة في تحقيق حرية الإنسان وكرامته وحقوقه.

خير أمة في أمنها واستقرارها وعدلها ومساواتها.

خير أمة في تراحمها ورحمتها فيما بينها وبين غيرها.

خير أمة في سيرها الحضاري والإنساني والفكري والثقافي.

خير أمة في التنافس في الخيرات والتدافع الحضاري.

لأجل هذا أرسل الله رسوله محمدًا صلى الله عليه وسلم للناس بشيرا ونذيرا وهداية ورحمة ومتمما لمكارم الأخلاق، ومكملا لما بعث به الأنبياء من قبله، قال سبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سورة سبأ: آية ٢٨]، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: آية ١٠٧].

عالمية الإسلام بدأت من مكة قبل أن تقوم للإسلام دولة في المدينة، وقبل أن تكون للمسلمين قوة، لأن الإسلام قويٌ بمنهجه المنزل من رب العالمين الذي تكفل بحفظ كتابه فقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [سورة الحجر: آية ٩].

كانت بعثته صلى الله عليه وسلم منعطفًا تاريخيًّا في حياة الناس جميعًا، وتحولًا حضاريًّا متميزًا في نهج حياتهم وثقافتهم تحول معها الخطاب الثقافي من مقررات قومية الأديان إلى عالمية الإسلام وشموله، ومن عزل المجتمعات البشرية وتضادها وتصارعها إلى وحدة الأسرة البشرية وتعاون مجتمعاتها، حيث سمع الناس أول مرة في التاريخ البشري فكرة الإخوة الإنسانية ((يا أيها الناس إن ربكم واحد)) ((يا أيها الناس إن أباكم واحد)).

وسمعوا أول مرة مبدأ التعارف لأجل التعايش بينهم، من غير تمييز إلا بالاستقامة والعمل الصالح، قال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [سورة الحجرات: آية ١٣].

ولأول مرة تطرق مسامعهم دعوة إقامة العدل بينهم، والتواد والتراحم في تعاملهم، قال سبحانه: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ [سورة النحل: آية ٩٠].

لقد جعل الإسلام العدل قضيته الأولى، وقد أمر سبحانه أن يكون العدل مع الجميع دون تمييز، حتى في حال الخصومة والعداوة، قال سبحانه: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ [سورة المائدة: آية ٨].

بالأسوة الحسنة، والأنموذج الحضاري النظيف نقول للناس بجدارة ما رسالة الإسلام السمحة العادلة، وبالأنموذج الحيّ وفق تعاليم القرآن والسنة فقط نستطيع التدليل على معنى صلاحيّة الإسلام لكل زمان ومكان، ونستطيع على أساس من ذلك كله أن نكون بحق حملة رسالة خير أمة أخرجت للناس، ونكون جديرين برتبة الوسطية التي بوأنا الله موقعها بين الأمم قال سبحانه: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [سورة البقرة: آية ١٤٣].

بالعمل بتعاليم القرآن السامية بإقامة الحق وإماتة الباطل والمسارعة في الخيرات والإيمان بالله؛ نرتقي إلى شرف مهمة الشهود الحضاري على الناس، قال سبحانه: ﴿وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [سورة الحج: آية ٧٨].

وإذا رجعنا إلى تاريخ خير أمة نجد الخليفة الراشد العادل عمر بن الخطاب رضي الله عنه يضرب أروع المُثل بالإنصاف وإقامة العدل بين الأمم؛ يوم أن أنصف القبطيَّ من ابن واليه على مصر عمرو بن العاص، وقال في تلك المناسبة وهو يخاطب ابن الأكرمين ((متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا؟)).

وقد حفظت الإنسانية الصادقة لعمر هذا الفضل في إقامة العدل، ومما جاء في أخبار الثورة الفرنسية أن خطيبها المسيو لافاييت عندما قرأ بيانها الأول، ومر على المادة الأولى فيه، والتي تقول: (يولد الرجل حرا، ولا يجوز استعباده)؛ رفع رأسه قائلا: (أيها الملك العربي العظيم عمر بن الخطاب أنت الذي حققت العدالة كما هي).

ويقول المؤرخ غوستاف لوبون في «حضارة العرب»: (لم تكن القوة عاملًا في انتشار القرآن قطعًا، فقد ترك العرب المغلوبين أحرارا في المحافظة على دينهم، وإذا اعتنقت الشعوب النصرانية دين غالبيهم فذاك لأن الفاتحين الجدد بدوا أكثر عدلًا نحوها مما كان عليه سادتها السابقون).

هكذا كنا الأسوة الحسنة وخير أمة أخرجت للناس، فالواجب علينا نحن المسلمين في إطار المهمة الربانية أن نقدم اليوم الأنموذج الرائد «خير أمة» في ميادين عمارة الحياة على أسس راشدة، وأن نكون الأسوة الحسنة في الأداء الحضاري، وفي ميادين الإنتاج والاستهلاك.

علينا أن ندرك أن مهمة الاستخلاف في الأرض إنما هي أمر أساس في تحقيق العبودية لله تعالى، بل هي الشق العملي والتطبيق لما وقر في القلوب، قال الله تعالى: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ [سورة التوبة: آية ١٠٥]، ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [سورة هود: ٦١]، هذا ما ينبغي أن نؤكد عليه في مناهجنا العلمية والتربوية والثقافية.

ويجب علينا في تربية شبابنا أن نعلمهم العبادة بمفهومها القرآني الواسع الشامل لكل جوانب الحياة الروحية والمادية، ليستقر في تربية الأجيال واعتقادهم أن عمارة الأرض وإقامة الحياة من صلب العبادة الخالصة لله تعالى.

إن الخطأ القاتل الذي وقع فيه بعض المسلمين أنهم تصوروا أن الدين عبادات شعائرية بينما هو أيضا عبادات تعاملية، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم: ((بني الإسلام على خمس...)) والخمس هي القواعد وليست البناء، لأن البناء الذي يقوم على هذه القواعد هو بناء أخلاقي تعاملي، نصت عليه نصوص الشريعة بأوضح العبارات وأجلاها.

لقد نصت الشريعة على أن العبادات الشعائرية لا تحقق القبول التام والغاية المقصودة منها إلا إذا صحت العبادات التعاملية، والورع ليس بالمظاهر، وإنما في الحلال والحرام، وحفظ حقوق الناس، وفي التعامل الأخلاقي.

ذُكر رجل في بعض مجالس عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فشهد له بعض من حضر، فقال عمر للشاهد: (هل صحبته في سفر؟) فقال: لا، قال: (فهل ائتمنته على شيء؟) قال: لا، قال: (ويحك! لعلك رأيته يخفض ويرفع في المسجد)[1].

> الشعائر العبادية لا تستقيم دون الشعائر التعاملية المتمثلة في حسن الخلق، وإن تلك الشعائر إذا لم تثمر أخلاقًا فاضلة، فعلى المرء أن يراجع نفسه!

يرى عمر أن استقامة الإنسان تظهر في التعامل بالدرهم والدينار، وفي السفر، وفي الجوار، ولا يكفي أن نراه في المسجد يصلي، فالأمر ليس كذلك إذ نحن بحاجة إلى عبادات تعاملية أخلاقية، إلى جانب العبادات الشعائرية، حتى نكون بحق خير أمة أخرجت للناس.

والمفلس المشهور في السنة أوضح مثال على العلاقة بين العبادات الشعائرية والعبادات التعاملية، إذ رسب في الامتحان نتيجة لإهماله العبادات التعاملية لا بسبب العبادات الشعائرية، ولقد وصفه النبي صلى الله عليه وسلم بأنه الجاد في العبادات الشعائرية، ((إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ)) ولكنه مقصر في العبادات التعاملية ((وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا وَقَذَفَ هَذَا وَأَكَلَ مَالَ هَذَا وَسَفَكَ دَمَ هَذَا وَضَرَبَ هَذَا))، ونتيجته كما أخبرنا النبي صلى الله عليه وسلم: ((فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ))[2].

(١) رواه الحكيم الترمذي في أدب النفس، وابن قتيبة في عيون الأخبار.

(٢) رواه مسلم والترمذي وغيرهما.

في المقابل نجد أن الشخص الذي حَسن خلقه قد يبلغ درجة الصائم القائم، قال صلى الله عليه وسلم: ((إِنَّ الرَّجُلَ لَيُدْرِكُ بِحُسْنِ خُلُقِهِ، دَرَجَةَ الصَّائِمِ الْقَائِمِ))[٣].

ومن هنا نقول: إن الشعائر العبادية لا تستقيم دون الشعائر التعاملية المتمثلة في حسن الخلق، وإن تلك الشعائر إذا لم تثمر أخلاقًا فاضلة، فعلى المرء أن يراجع نفسه! ولقد ربط القرآن بينهما بقوله سبحانه عن الصلاة: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [سورة العنكبوت: آية ٤٥]، وبقوله عن الزكاة: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ [سورة التوبة: آية ١٠٣]، فقد أثمرت الصلاة سلوكًا قويما وأثمرت الزكاة طهارة في النفس، وكذلك الأمر في الصيام، فالعبرة ليست بالجوع والعطش، بل بما ينتج من حسن الخلق، وفي الحج لا رفث ولا فسوق ولا جدال.

وإن هذا لا يعني أبدًا التخلّي عن شعائر العبادات كما يدعو بعض المنحرفين، وإنما بيان لتعاليم الإسلام في الربط الشديد والتكامل التام فيما بين العبادة والمعاملة.

نعم إن العبادات المقبولة في الإسلام هي ما تنتج سلوكًا حسنًا ينعكس على حياة الإنسان المسلم في تعامله مع نفسه أو ربه أو الآخر المحيط به، وهذا جوهر الرسالة المحمدية، يقول النبي صلى الله عليه وسلم: ((إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ))[٤].

نعم بالاستقامة وحسن المعاملة والأخلاق كنا خير أمة أخرجت للناس، وبدون هذه الاستقامة في الخُلق والسلوك لن توجد «خير أمة».

ومن الظواهر المخيفة التي بدأت تنتشر عند بعض المسلمين؛ ظاهرة التدين البديل، وهي ظاهرة خطيرة تجتاح كافة طبقات الأمة ومستوياتها، فمثلًا قد نجد بعضا من ضباط الاستخبارات وأمن الدولة ملتزمين دينيًّا يؤدون الصلاة، ويصومون، ويحجون، لكن ذلك لا يمنعهم من ممارسة عملهم اليومي في الضرب والتعذيب وظلم الأبرياء.

وأحد هؤلاء مسؤول بارز في الحكومة المصرية، اشتهر بتزوير الانتخابات، والاعتداء على استقلال القضاء، وهو معروف في محيط الأسرة بالتدين، حتى إنه يعطي أقاربه دروسًا في الدين.

وهكذا نجد بعض المسلمين يؤدون فرائض الدين، ولكنهم في حياتهم اليومية يتصرفون بطريقة أبعد ما تكون عن الدين.

المسألة إذن ليست مجرد نفاق أو جهل، وإنما هي تصور فاسد عن الدين، يؤدي إلى نوع من التدين الظاهري الذي يشكل بديلا عن التدين الحقيقي الذي جاء به الإسلام، وهذا التدين البديل مريح وخفيف ولا يكلف جهدًا ولا ثمنًا، لأنه يحصر التدين في العبادات الشعائرية والمظاهر دون أن يكون لها أي تأثير في حياتهم العملية.

ومع الأسف نجد أكثر الناس في هذا العصر وقعوا في التدين البديل، فكيف يمكن أن يكونوا الأنموذج الحضاري لخير أمة؟

إن الدفاع عن مبادئ الإسلام الحقيقية التي هي الحرية والمساواة والعدل مسألة محفوفة بالمخاطر في نظر هؤلاء، لأنها قد تؤدي بهم إلى السجن وقطع الرزق والتشريد والقتل.

> بالتكامل والتلازم والتواصل بين العبادتين الروحية الشعائرية والتعاملية تتحقق وحدة البناء التربوي والثقافي للإنسان، ومن خلالها يكون مؤهلًا لأداء واجباته في الحياة بإيمان وإخلاص.

أما التدين البديل فلن يكلفهم شيئا بل يمنحهم إحساسًا كاذبًا بالطمأنينة والرضا عن النفس.

إن الذين يتبنون التدين البديل يُصلّون ويصومون، ويحيّون الناس بتحية الإسلام، ويلزمون زوجاتهم وبناتهم بالحجاب، وربما اشتركوا في مظاهرة ضد منع الحجاب في فرنسا أو غيرها، وهم بعد ذلك يعودون إلى بيوتهم وكلهم اعتقاد جازم بأنهم أدوا واجبهم الديني كاملًا غير منقوص.

المتدين تديُّنًا بديلًا لا يعتقد أساسا أن له حقوقا سياسية كمواطن وعليه واجبات إصلاحية تجاه مجتمعه أو أمته، ولا تشغله فكرة الشورى ولا العدالة، وأقصى ما يمكن أن يفعله في هذا الصدد أن يدعو الله أن يُولّي علينا من يصلح، ثم

(٣) رواه أبو داود وأحمد.

(٤) رواه أحمد والبيهقي والبخاري في الأدب المفرد وغيرهما بلفظ «صالح الأخلاق»، وفي الموطأ بلفظ «حسن الأخلاق» واللفظ المشهور رواه البزار وجماعة.

يحدثك عن الخلفاء العظام مثل عمر بن الخطاب أو عمر بن عبد العزيز، دون أن يحدث نفسه بالمشي على طريقهم.

التدين البديل مرض محزن أصاب المسلمين فأدى بهم إلى السلبية والغفلة، وجعلهم قابلين للاستعمار والاستبداد والقمع، والتأقلم المريح مع كل أنواع الاحتلال أو الظلم الممارس على مجتمعاتهم.

إن انتشار التدين البديل له أسباب عديدة منها:

وجود التناقض الفاحش بين المظهر والجوهر في المجتمعات الإسلامية، ففي القنوات الفضائية يظهر عشرات المشايخ يتكلمون عن الذكر والطلاق وقيام الليل وقراءة القرآن مع التبجيل للحاكم الظالم المستبد دون أن يتحدثوا عن حقوق الإنسان في انتخاب من يحكمه، أو قوانين الطوارئ، أو سرقة أموال الأمة، والتعذيب والتشريد، وهم يظنون أنهم يقومون بأداء رسالة الإسلام بينما هم في الحقيقة يخدعون أنفسهم ويخدعون الناس بهذا التدين البديل، عندما يقدمون لهم صورة منقوصة ومشوهة عن دين الله ورسالة الإسلام.

إذا أردنا أن نُقيم نموذج خير أمة لا بد من تربية المسلم على العبادات الشعائرية والتعاملية، العبادات الروحية والأخرى الإنسانية، لأن التكامل والتلازم بين هذين الصنفين من العبادات هو من مقتضى تمام الإسلام والإيمان وكمالهما.

قد يسأل سائل ويقول: لقد عرفنا العبادات الروحية والشعائرية، فماذا تقصدون بالعبادات التعاملية الحياتية؟ وما العلاقة بين العبادتين؟

إن على هذا السائل أن يتأمل جملة من نصوص الإسلام ليصل إلى جواب سؤاله، ليتأمل مثلًا قول الرسول صلى الله عليه وسلم: ((الإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ))[٥]، وقوله صلى الله عليه وسلم: ((أَحَبُّ النَّاسِ إِلَى اللهِ أَنْفَعُهُمْ لِلنَّاسِ... وَلِأَنْ أَمْشِيَ مَعَ أَخٍ لِي فِي حَاجَةٍ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَعْتَكِفَ فِي هَذَا الْمَسْجِدِ - يَعْنِي مَسْجِدَ الْمَدِينَةِ - شَهْرًا))[٦]، وليتأمل مع ذلك قوله تعالى: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ [سورة البقرة: آية ١٤٨]، وقوله تعالى: ﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا﴾ [سورة الملك: آية ١٥]، وقوله سبحانه: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا﴾ [سورة التوبة: آية ١٠٥]، وقوله سبحانه: ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [سورة هود: آية ٦١].

إن كل هذه الأدلة من القرآن والسنة تؤكد على الجانب العملي الميداني في عبادة الله، وأن البدعة الكبرى هي تعطيل كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم عن إقامة الحياة.

إن الفتنة والبدعة هي في الانصراف عن مراد الله في عمارة الكون، والبدعة والانحراف كل الانحراف هو في القعود عن تفعيل رسالة القرآن العالمية الخالدة وحبسها في سجون الهوى والعادات والتقاليد والمظاهر.

والفتنة والبدعة هي في تحجيم الإسلام ورسالته العالمية، وتحويلها إلى طقوس وهيئات كهنوتيه، وتفريغها من غاياتها ومقاصدها الربانية في إقامة كيان «خير أمة» من خلال تأسيس الحياة الكريمة للناس، وسيادة العدل والأمن والسلام فيما بينهم.

إن العبادة الروحية من شأنها أن تصقل النفوس وتهذبها وتؤهلها للسير باستقامة وأمانة وصدق وإخلاص وأخلاق في ميادين الحياة ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [سورة الحجرات: آية ١٣]، والعبادة الحياتية التعاملية هي التي تؤهل الإنسان عمليًّا وتزوده بالعلم والمهارة والخبرة، ووسائل الإبداع والارتقاء، وبكل وسائل العمارة والبناء في محاريب العبادة الحياتية التعاملية، وبالعبادتين يستطيع المسلم أن يُمثِّل خير أمة ويقدم النموذج الإسلامي للعالم.

بالتكامل والتلازم والتواصل بين العبادتين الروحية الشعائرية والتعاملية تتحقق وحدة البناء التربوي والثقافي للإنسان، ومن خلالها يكون مؤهلًا لأداء واجباته في الحياة بإيمان وإخلاص.

وهكذا فإن نموذج خير أمة يقوم على مرتكزين اثنين رئيسين هما:

١) مرتكز الإيمان والقيم والمبادئ والأخلاق.

٢) ومرتكز الماديات والوسائل والمهارات.

فالتكامل بين ﴿فَاعْلَمْ﴾ وبين ﴿فَامْشُوا﴾ هو أساس التكامل والتلازم بين العبادة الروحية والعبادة التعاملية الحياتية، هذا هو الأساس الصحيح لتأسيس نموذج حضاري عادل وراشد لخير أمة أخرجت للناس.

وأحسب أن اختلال العلاقة بين النظرية والتطبيق، وبين ﴿فَاعْلَمْ﴾ و ﴿فَامْشُوا﴾ هو من أخطر مصادر الخلل الحضاري والأمني في المسيرة المعاصرة.

(٥) رواه البخاري ومسلم واللفظ له.

(٦) رواه الطبراني في الأوسط والكبير.

أبـرز مثارات الغلوّ في فكرنا الإسلامي

أ.د. حسـن خطاف - أستاذ مشارك باختصاص
العقيدة الإسلامية، مدرس في جامعة آرتقلو ماردين

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

فِكرة البحث:

الملاحظ لواقع الأمة الإسلامية يجد شيئا يُدمي القلب من الاختلاف السياسي والفكري، والارتماء بأحضان الآخرين، وقد ولّد هذا الوضع هزيمة فِكرية في النفوس، وشعورًا عند كثير من أبناء الأمة، ولا سيما الشباب، بعدم الثقة بفهمنا لديننا، إنْ لم نقل عدم الثقة بالدين ذاته من بعض الشباب.

ومن الملاحظ أنّ أكبر عوامل الهدم في هذه الأمة، هو الاختلاف الفكري بين أبنائها منذ حصول الفتنة بمقتل الخليفة عثمان رضي الله عنه إلى وقتنا الحاضر، وهو واقع يرتضيه أعداؤنا ويبذلون كُلَّ شيء في سبيله.

وأبرز هذه العوامل الغلو في الدين الذي تمثَّل بالخوارج في عصر الصحابة رضي الله عنهم وصولًا إلى ظهور الغلو في أبشع صوره على يد غلاة العصر داعش وأمثالها.

ومن هنا فإنَّ البحث يحاول رصد أبرز المسائل التي أثارت الغلو في فِكرنا وما زالت تثيره.

الغاية من البحث:

السعي من أبناء الأمة للوقوف على المسائل التي أثارت وتُثير الغلو، بغية درسها بتجرد تامٍّ من كل الأسبقيات الفكرية للوصول إلى رأي يُلتَفُّ حوله، يكون بمنزلة العاصم من انزلاق الأمة نحو الغلو أو البقاء في مستنقعاته.

ومن الجدير التنبيه على أنَّ جُلَّ هذه المسائل لا تُثير الغلو بحد ذاتها، وإنما الفهم السطحي لها، أو البعد عن المقصد الشرعي منها، ومن هنا يقتضي الأمر الاعتناء بهذه المسائل جُهد الاستطاعة لإبعاد أيِّ شُبهة يمكن التّعلُّق بها.

ومن الواضح أنّ الغاية هنا ليس خلط مفهوم أهل السَّنة مع غيرهم، وليس الغاية التّنازل عن المعتقد، أو تغييره، أو إخفاؤه، فهذا ليس واردًا وليس مقصودًا، فأنا على سبيل المثال أتبنَّى الفكر الأشعري، ولكنْ لا يعني هذا أنَّ أسير وراءه في كُلّ مسائله، ولا يعطيني هذا التَّبني التَّضليل لمعتقد غيري، أو تكفيره، أو اتهامه بأنه يسعى إلى تقويض الدين، ما دام صاحبه حريصًا على الدين من خلال كُتُبه ومقالاته، ولم يُفض مُعتقده لرد نصٍ قطعي الثبوت والدلالات، وكذا ليس المقصود هنا التَّخلص من بعض أو كل أسباب هذه المثارات، فهذا شيء يبعُد في ظل نصوص - في بعض المسائل - ليست قطعية الثبوت والدلالة، ووجه الاختلاف فيها سائغ، وإنما الهدف الاهتداء إلى عاصمٍ من الانزلاق إلى التضليل والتفسيق والتكفير كمخرجات لبعض هذه الخلافات، وهو ما لاحظناه في بعض كُتُب الفرق.

ومن الواضح أيضا أنَّ هذه المسائل هي خلافية بحد ذاتها، لكنَّ الغلو يكون أثرًا من آثارها، ولا يقتصر الأمر على الاختلاف في الرَّأي.

نماذج من الغلو:

سآخذ نموذجين أراهما من الغلو الذي ينبغي أنْ نجنِّب أمتنا منه، أحدهما منتمٍ للفكر السُّنيّ والآخر منتمٍ للفكر المعتزليّ، وهذا لا يعني ألبتةَ الغلو في بقية أفكارهما، فهو بحكم المسكوت عنه.

النموذج الأول:

هذا النموذج للمُحسن بن محمد بن كَرَّام، المعروف بالحاكم الجُشَمي الزَّيدي المعتزلي المقتول سنة (٣٩٣هـ) والذي كان معاصرًا لعبد القاهر بن طاهر البغدادي، وقد عُرِف بشدّته على معتقد أهل السنة، وألَّف في ذلك كتابًا سمّاه «رسالة إبليس إلى إخوانه المناحيس» وقيل اسمه «رسالة إبليس إلى إخوانه من

المجبرة والمشتبهة في الشكاية من المعتزلة»، وقد كان الكتاب سببًا في قتله.

وإخوان إبليس في نظره هم من كان على عقيدة أهل السُّنة، ومما جاء في هذا الكتاب في مخاطبة إبليس إخوانه من أهل السّنة وعلى رأسهم الأشعرية، محُذِرّا أتباعه من مجالسة المعتزلة خشية الافتتان بحديثهم (ولقد علمتم إخواني أنَّ من الواجب في الدين نصيحة الإخوان والأتْباع، وبذل الأمانة للأشياع، ألا إني أبلغكم ما لا تعلمون، وأنصح لكم وأنا ناصح أمين، فاجتنبوا مجالسهم ومدارسهم، ولا تستمعوا إلى كلامهم ومواعظهم، وجنبوا أشياعكم وعوامكم، ونساءكم وصبيانكم، فإنَّ لكلامهم حلاوة، وعليه طلاوة، تُحَيّر ذوي الألباب، وتدخل في القلب بلا حجاب، ومن عظيم فتنتهم أنْ سموا أنفسهم بالموحِدة العدلية، وسمُّونا بالمُجبرة)[1].

والتَّدليس في العبارة الأخيرة واضحٌ «وسمُّونا المجبرة» لأنَّ المعتزلة يُطلقون لفظ المُجبرة على أتباع جهم بن صفوان، وعلى الأشعري وأتباعه؛ لأنهم يقولون بأنّ الله يخلق أفعال العبد، وأنَّ ذلك في نظر المعتزلة يؤدي إلى الجبر، والفرق كبيرٌ بين نَظرة جهم بن صفوان (ت:١٢٨هـ) وبين نظرة أبي الحسن الأشعري (ت:٣٢٤هـ) وأتباعه، فالأول يُجرّدُ الإنسان من أعزِّ شيء ميزه الله به وهو الإرادة والقُدرة ليُصبح مماثلًا للجمادات، ولا تُنسب للإنسان القُدرة إلا مجازًا كما تُنسب للجمادات، فيُقال تحركتِ الشَّجرة وهبَّت الريحُ[2]، وأما مقولة أبي الحسن الأشعري وأتباعه بأنَّ الله يخلق أفعال العباد فلا يترتّبُ عليها الجبر، لأنَّ خَلْقَ الله للفعل لا يستلزم جبر الإنسان، فالإنسان يملك إرادة وقُدرة في التَّوجُّه نحو هذا الفعل[3]، والله يخلق الفعل عند هذا التَّوجه، وهذا ما يُسمّى بنظرية الكسب، وتفصيلها في كُتُب الكلام.

النموذج الثاني:

بعض العبارات الموجودة في كُتُب أهل السُّنة من أهل الحديث والكلام، من ذلك ما نجده في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائي (٤١٤هـ) المعاصر للبغدادي وللحاكم الجُشَمي، فقد نقل اللالكائي رحمه الله عن بعضهم أنه قال: (من قال القرآن مخلوق يُفرَّق بينه وبين امرأته بمنزلة المرتد)[4]، بل نقل عن ثُلَّة من كبار العلماء أنَّ حكم من قال بذلك: (أنهم لا يُنكحون، ولا يُصلى خلفهم، ولا تُعاد مرضاهم، ولا تُشهَد جنائزهم، وأنَّ موالاة الإسلام انقطعت بينهم وبين المسلمين)[5]، وبعضهم قال عن الجهمية: (كفار ولا يُصلَّى خلفهم)[6]، وفي حوادث سنة ٤٠٩ من شهر المُحرم يذكر الذهبي (ت:٧٤٨هـ) أنه (قُرئ بدار الخلافة كتاب بمذاهب السُّنة، وفيه: من قال: «القرآن مخلوق» فهو كافر حلال الدم، إلى غير ذلك من أصول السنة)[7].

ومع جزْمي بتخْطئة المخالفين لأهل السُّنة من جهمية وغيرهم، لكنِّي لا أرى أنَّ ما ذُكِر هنا يُمثِّل أصول أهل السُّنة في حُكمهم على الآخرين.

مُحدِّدات البحث وإطاره:

عنوان البحث مرتبط بما يُمكن أنْ يُفهَم خطأ ويكون منطلقًا للغلو، وعليه لن أتعرض هنا لتعريف الغلو وتاريخه والممارسات التي يرتكبها الغلاة، وآثار ذلك في أمتنا، ولاسيما في الوقت الراهن، فالحديث عن هذا حَفَلَتْ به كتبٌ، وعُقِدت له مؤتمرات، وهو الشغل الشاغل اليوم، ومن هنا قصدتُ التركيز على أبرز مثارات الغلو في فكرنا الإسلامي.

مثارات الغلو [8]

١. مفهوم الولاء والبراء وصلته بالعقيدة:

جاءت نصوص كثيرة من القرآن والسُّنة تبيّن أنَّ الولاء يكون بين المؤمنين لله ولرسوله وللمؤمنين، من ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ [سورة المائدة: آية ٥٥] وقوله سبحانه وتعالى في قطع الولاء عن غير المسلمين: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [سورة المائدة: آية ٥١].

تُعَدُّ هذه الآية الأخيرة هي الأشدُّ دلالة في قطع الولاء إلا مع المؤمنين، بمقابل ذلك نجد الولاء غير مُرتبط بالإيمان في قوله

(١) الحاكم الجشمي، رسالة إبليس إلى إخوانه المناحيس، تح: حسين المدرسي، ط. دار المنتخب العربي للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط. الأولى:١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م. ص:١٠

(٢) الشهرستاني، الملل والنحل، تحقيق: محمد سيد كيلاني، دار المعرفة – بيروت، ١٤٠٤هـ ص:٨٥

(٣) الأشعري، اللمع في الرد على أهل الزيغ والبدع تح: حموده غرابة، مطبعة مصر، ١٩٥٥، ابن فورك مجرد مقالات الشيخ أبي الحسن الأشعري، تحقيق: دانيال جيماريه، قبرص، ص:١٠٠

(٤) أبو القاسم هبة الله بن الحسن بن منصور الطبري الرازي اللالكائي، تح: أحمد بن سعد بن حمدان الغامدي، دار طيبة السعودية، الطبعة: الثامنة، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م ٢/ ٣٥٤

(٥) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، ص:٣٥٤

(٦) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، ص:٣٥٥

(٧) الذهبي، تاريخ الإسلام، تحقيق: عمر عبد السلام التدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة: الثانية، ١٩٩٣م، ٢٨/ ٢٩

(٨) ليس المقصود هنا هو الحصر، بل ذكر أبرز مثارات الغلو.

تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [سورة الأنفال: آية ٧٢]، حيث ربط الله تعالى بين الولاء وبين الهجرة، فمن لم يهاجر فهو مؤمن، لكن ليست له الولاية إلا بالهجرة إلا في حالات خاصة هي طلب النَّصرة، يقول الشيخ محمد الطاهر بن عاشور: (فبيَّنَتْ حكم المؤمنين الذين لم يهاجروا فأثبتت لهم وصف الإيمان، وأمرت المهاجرين والأنصار بالتبري من ولايتهم حتى يهاجروا) [٩]، ومن الواضح في الآيات السابقة أنَّ غير المسلمين يوالي بعضهم البعض أيضًا.

> مصطلح الولاء والبراء لم يكن من أصول الدين عند أهل السُّنة في الكتب التي وصلت إلينا، ومن اللافت للانتباه أنَّ أوَّل من وصلَنا قوله بالبراءة هم الأزارقة، وهم أشد الخوارج غلوًّا

مفهوم الولاء والبراء تحوَّل في أيامنا إلى خانة المفاهيم العَقَدية، كالإيمان بالرُّسُل والكُتُب، وصار عند كثيرين مِفصلًا للعلاقة بين المسلمين وغيرهم، بل بين المسلمين أنفسهم، فكثيرًا ما يُكفِّر المسلم بأنَّ ولاءه لغير الله أو لغير إقامة حكم الله تعالى، ومن الملاحظ أنَّ بعض الكتَّاب المعاصرين يجعلون دلالات هذا المصطلح من أسس العقيدة وأصولها، من غير البحث في الدلالات القرآنية، ومدى انطباقها على الحالات المعروضة، ويُطْلقون لسانهم بتكفير الآخرين استنادًا إلى هذا المصطلح.

ليس القصد هنا ضبط مفهوم الولاء والبراء، وذكر النصوص الدالة على ذلك، ولكنْ من الثابت أنَّ مصطلح الولاء والبراء مصطلح فضفاض، يحتاج إلى ضبط من سياقات النصوص القرآنية، وعلاقة هذا المصطلح بمصطلحات أخرى كالبِرِّ والمودة والإحسان والمحادَّة والكُره والمحبة، وعندما نرجع إلى كُتُب العقيدة في بواكيرها الأولى، ككُتب أبي الحسن الأشعري (ت:٣٢٤) والماتريدي (ت:٣٣٣) والطحاوي (ت:٣٢١) وما بعد، نجدها لا تتعرض لهذه القضية، مما يجعلنا نعرض السؤال الآتي: ما الذي جعل أولئك الأوائل يُعرضون عن هذا المصطلح في حين يهتم به المتأخرون من المعاصرين؟ بل ويجعلون من مفهوم الولاء والبراء أساسًا من أُسُس العقيدة؛ إذ أُلِّفت كتبٌ كثيرة في الولاء والبراء تجعل هذا المصطلح بإطلاقاته من أُسُس العقيدة، وناقضًا من نواقضها، ولمَّا كانت دلالة هذا المصطلح فيها معنى التّناصر بين المسلمين، كانت مظاهرة المشركين على المسلمين ناقضًا من نواقض الإسلام عند بعض المعاصرين، تحت مُسمَّى الولاء والبراء، جاء في شرح هذا الناقض، (الثامن: مظاهرة المشركين ومعاونتهم على المسلمين: ومن فعل ذلك فقد كفر، والدليل قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [سورة المائدة: آية ٥١] قال العلامة الفوزان في شرحه للنواقض: الشيخ رحمه الله تعالى أخذ نوعًا واحدًا من أنواع موالاة الكفار، وهو المظاهرة، وإلا فالموالاة تشمل المحبة بالقلب، والمظاهرة على المسلمين، والثناء والمدح لهم، إلى غير ذلك)[١٠].

فاعتبارُ مظاهرة المشركين ومناصرتهم على المسلمين كُفْرٌ من غير تفصيل ليس صحيحًا، فالموالاة أنواعٌ، يقول الشيخ محمد الطاهر بن عاشور في التحرير والتنوير: (والموالاة تكون بالظاهر والباطن، وبالظاهر فقط، وتعتورها أحوال تتبعها أحكام، وقد استخلصت من ذلك ثمانية أحوال، الحالة الأولى: أن يتخذ المسلم جماعة الكفر أو طائفته أولياء له في باطن أمره، ميلًا إلى كفرهم، ونواء لأهل الإسلام، وهذه الحالة كفر، وهي حال المنافقين)[١١].

وهذه هي الحالة الوحيدة المُكفِّرة، بينما كثير من كُتُب المعاصرين تُعمِّم الحكم، وما قاله الشيخ الطاهر رحمه الله متناسق مع عقيدة أهل السنة والجماعة، فمنهاج أهل السنة هو عدم البراءة إلا مما تجب البراءة منه، يقول الإسفراييني (ت٤٧١هـ): (إن أهل السنة مجتمعون فيما بينهم، لا يكفر بعضهم بعضًا، وليس بينهم خلاف يوجب التبريء والتكفير)[١٢].

ومما يؤسف له تعميم مفهوم الولاء والبراء حتى شمل الاحتفال بـ (عيد الأم أو عيد الحب، أو عيد النيروز وما شابه

(٩) محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي، التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر:١٠/ ٨٥، وانظر: فخر الدين الرازي خطيب الري، تفسير الرازي، دار إحياء التراث العربي (بيروت، الطبعة: الثالثة) ١٤٢٠هـ، ١٥/ ٥١٧

(١٠) شرح نواقض الإسلام لشيخ الإسلام المجدد محمد بن عبد الوهاب، تأليف أبي عبد الله ناصر بن أحمد بن علي العدني، مكتبة الإمام الوادعي صنعاء، دار عمر بن الخطاب مصر، ص:٩٦

(١١) محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير الدار التونسية للنشر ‖ تونس، ١٩٨٤ هـ ٣/ ٢١٧

(١٢) الإسفراييني، التبصير في الدين وتمييز الفرقة الناجية عن الفرق الهالكين، ص:١٨٦

من أعياد الكفر... فالاحتفال بها حرام كلمة واحدة؛ لما في ذلك من تضييع لثوابت الإسلام، وإضعافٍ لوازع الدين في نفس المسلم، وإلغاء لهويته وضياع أصل الولاء والبراء، وإقرار ما عليه النصارى أو اليهود أو غيرهم من ملل الكفر من الباطل)[١٣].

ولا يُفهم من هذا ألبتة أنّنا ندعو للاحتفال بهذه الأعياد، لكن ليس من المقبول القول بأنَّ الاحتفال بعيد الأم هو إقرارٌ لِما عليه اليهود والنصارى وتضييع لثوابت الدين، فهو عند كثيرين- وإنْ كان مصدرُ الفِكرة خارجي- لا ينظر إليه بمنظار عَقَدي، وإذا أردنا البحث عن حُكم دقيق يجب أن نتعرَّف على الأسباب الحاملة على هذا الاحتفال، وهذا لا يعني ألبتة تحسين هذا العمل أو تجويزه، ويمكن أنْ يكون التَّصرف مُخرجًا عن الملّة كَمَن نشأ بين المسلمين، واحتفلَ بعيدٍ ما، وهو يعتقد أنَّ هذا العيد المُحتَفَل به هو أفضلُ من الأعياد التي شرعها الله تعالى، وإنما الذي يعنينا هو التَّوقف عن إعطاء أحكامٍ شاملة قاطعة تحت مُسمّى الولاء والبراء.

وقد ذكرنا سابقا أنَّ مصطلح الولاء والبراء لم يكن من أصول الدين عند أهل السُّنة في الكتب التي وصلت إلينا، ومن اللافت للانتباه أنَّ أوَّل من وصلَنا قوله بالبراءة هم الأزارقة، وهم أشد الخوارج غلوًّا، أتباع أبي راشد نافع بن الأزرق، وهو أول من أحدث الخلاف في الخوارج، فقال في بدء الأمر بالبراءة من القَعَدة الذين لم يهاجروا إليهم وكفَّرهم، ووصل الأمر لشدة غلوهم إباحة قتل أطفال المخالفين والنساء[١٤]، وكذلك عند الفرق الباطنية، فالطُّهْر عند الباطنية: (هو التبري من اعتقاد كل مذهب سوى متابعة الإمام)[١٥].

ويُلاحظ أنّ مصطلح الولاء والبراء هو الأساس الذي انطلقت منه تنظيمات القاعدة وداعش، في تعاملها مع المسلمين، ترويجًا لأفكارهم وتغريرا بالشباب المسلم، إذ الولاء عندهم هو الوقوف والمساندة والمناصرة لِمَا جاؤوا به، والبراء يُطلقونه على كُلِّ من خالفهم في توجُّههم، وأكثر هذه الإطلاقات كانت على المسلمين، والبراء في النتيجة لا يكون إلا من كافرٍ، ليُصبح المجتمع- كُلّه أو أغلبه- في النتيجة كافرًا.

إن اعتبار الموالاة ناقضًا من نواقض العقيدة على إطلاقه مخالفٌ لما عليه أهل السنة والجماعة، وكلٌّ من درس أمور العقيدة يُفرّق بين الفعل الظاهري، والفعل القلبي المرتبط بالمحبة، وعقيدة أهل السُّنة عدم التَّكفير بالفعل مالم يكن مُستحلًا له أو مستخفّا أو مستهزئًا مما عُلِم من الدين بالضرورة.

فما هو ضابط الولاء والبراء؟ وما أنواعه؟ وكيف يتم التكفير به وجزء منه عملي؟ ومعلوم أن العملي فيه من الغموض ما ليس في القول!

من هنا تأتي ضرورة دراسة مصطلح الولاء والبراء بمختلف صِيَغه الصّرفية وسياقاته القرآنية حيث وَرَد، واستجلاء الدلالات المأخوذة منه في ضوء اللغة والسياق القرآني وفهم المفسرين، وعلاقة الولاء والبراء بالمحبة والكره والبُغض والمودَّة والمحادَّة، ومن ثَمَّ المقارنة والمقاربة بين هذه الدلالات وبين كُتُب الكلام والعقيدة تبيانًا لدلالاته، والإجابة عن هذه الأسئلة ليست مقصودة لنا هنا، وإنما كان المقصود التنبيه على أنَّ الولاء والبراء من مثارات الغلو في فكرنا الإسلامي، وأن الحذر والتأني واجب عند التعامل مع هذه المسألة وتطبيقها على واقع المسلمين.

٢. عدم التمييز بين أصول الدين وفروعه:

هذه المسألة في غاية الأهمية، وهي ضرورة ضبط أصول الدين وفروع أصول الدين، فالخلاف الذي حصل بين المدارس الفكرية الكلامية من معتزلة وقدرية وأشعرية هو خلاف في فروع أصول الدين وليس في الأصول.

فأصول الدين- التي أقصدها هنا- هي ما كان من شاكلة الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، والإيمان بشمولية علم الله تعالى بأنه لا يخفى على الله تعالى شيء في الأرض ولا في السماء، وأنَّ الله قادر على كل شيء، ولا يُعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، والإيمان بوحدانية الله تعالى وبقائه وأنه لا أوّل لوجوده، وأنَّ الكل سيموت ويبقى هو سبحانه الحيُّ الذي لا يموت، وأنَّ الكل سيُبعث يوم القيامة، والإيمان ببعثة النبي صلى الله عليه وسلم وأنه خاتم الأنبياء، وأنَّ هناك حسابًا وجنة ونارًا، والإيمان بوجود الملائكة والجن... فهذه من أصول الدين، ولم يقع فيها خلاف ألبتة بين المذاهب الإسلامية المحسوبة على المسلمين من أهل السنة والمعتزلة والخوارج والإباضية.

لكن وقع الخلاف في مسائل من فروع أصول الدين، والتي لا يخرج صاحبها عن مِظلَّة الإسلام.

وعليه فضابط الأصول الذي نقصده هنا هو كُلُّ ما ورد في نصوصٍ قطعية الثبوت والدَّلالة، مما لا يجوز ألبتة الجهل بها وكان متعلقها بأصول الدين، يقول الإمام أبو حامد الغزالي عند حديثه عن المُكفِّرات: (أن ينكر أصلاً من أصول الشرعيات المعلومة بالتواتر من رسول الله صلى الله عليه وسلم، كقول

(١٣) شعبان محمود عبد القادر البركاتي المصري، الولاء والبراء في الإسلام، دار الدعوة الإسلامية، الطبعة: الأولى، ٢٠١٢ م، ص:٤٥

(١٤) الشهرستاني، الملل والنحل، دار المعرفة، ص١١٧، الاعتصام للشاطبي ت الشقير والحميد والصيني، دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، الطبعة: الأولى، ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م، ٣/ ٣٥٩

(١٥) الشاطبي، الاعتصام: ٢/ ٧٥

القائل: الصلوات الخمس غير واجبة... وإنه لو أنكر غزوة من غزوات النبي صلى الله عليه وسلم المتواترة، أو أنكر نكاحه حفصة بنت عمر، أو أنكر وجود أبي بكر وخلافته لم يلزم تكفيره لأنه ليس تكذيباً في أصل من أصول الدين مما يجب التصديق به، بخلاف الحج والصلاة وأركان الإسلام، ولسنا نكفره بمخالفة الإجماع، فإن لنا نظرة في تكفير النَّظَّام المنكر لأصل الإجماع، لأن الشبه كثيرة في كون الإجماع حجة قاطعة)[16] أي تلك الأحكام التي لا تحتاج إلى نَظَرٍ واستدلال لوضوحها، فيكون معنى الأصل هنا مساويًا تمامًا لمصطلح النَّص عند الأصوليين من جهة الدَّلالة، ويزداد عليه من جهة الثبوت بحيث يكون قطعي الثبوت، لا يتطرق إليه شكٌ، وهذه لا تكون من جهة الثبوت إلا في القرآن الكريم وما تواتر من السُّنة النبوية.

والعلاقة واضحة بين المعلوم من الدين بالضرورة وأصول الدين، فما كان من أصول الدين ينبغي أنْ يدخل تحت مُسمَّى المعلوم من الدين بالضرورة، وعلى هذا تكون العلاقة بينهما عمومًا وخصوصًا مطلقًا، فكلُّ ما كان من أصول الدين فهو معلوم من الدين بالضرورة، وليس كُلُّ ما هو معلوم من الدين بالضرورة داخلًا في أصول الدين، فحُرمة الزنا والظلم... وما كان على هذه الشَّاكلة وإنْ كانت معلومة من الدين بالضرورة فليست من مباحث علم العقيدة، وإنْ كان من حيث الأثر المترتب عليها يكفر مُستحلهما وَفقًا لمناهج المتكلّمين والأصوليّين.

والمقصود بالضرورة أنَّ العلم بها لا يتوقف على نظر واستدلال ومقدمات وأسباب، بل معلوم وجوبه أو حرمته لعامّة المسلمين.

خطورة الخلط بين الأصول والفروع:

خطورة عدم التمييز بين الأصول والفروع أمران:

الأول: أنَّ الله تعالى لم يطلب منا فعل الفروع كما طلب منا فعل الأصول، سواء من جهة الاعتقاد أو من جهة العمل، وبالتالي فمكانتها هي أدنى من الأصول، وعدم التمييز بينهما يجعلهما في مرتبة واحدة.

الثاني: أنَّ الحق في الفروع مُتعدد، والمجتهد فيها بعد التَّمكن من أهلية النظر مصيبٌ، فإن أصاب الحق في علم الله تعالى فله أجران، وإن أخطأ فله أجر واحد، وذلك مشروط بقصد الوصول للحق واستكمال أهلية النَّظر، وبذل الجهد واستفراغ الوسع في المسألة المنظور فيها، وهو ما درَسه الأصوليون ووضعوا له ضوابط.

والخلط بين الأصول والفروع قد يؤدي إلى تأصيل الفروع، وتفريع الأصول، ومن حق الأصل أن يبقى أصلًا فلا يُفرَّع، ومن حق الفرع أنْ يبقى فرعًا فلا يؤصَّل، والأمثلة على ذلك من واقع الفكر الإسلامي كثيرة وخاصة بين المذاهب العَقَدية، كما أنَّها في واقعنا كثيرة، ويمكن أنْ نأخذ أمثلة من واقع داعش؛ إذ أصبحت كثيرٌ من الفروع أصولًا في نَظَرهم، ويتوقف عليها محددات الولاء والبراء والهزيمة والنصر، من ذلك على سبيل المثال السَّعي إلى طمس القبور المرتفعة، وفرض تقصير اللباس بالقوة.

وبمقابل ذلك تأتي ردة الفعل بتمييع الأصول وتفريعها، وخير دليل على هذا المؤتمرات التي تُعقد بهدف الدعوة إلى وحدة الأديان، وأنّ الحق في الأديان متعدد، وأنه لا يوجد هناك حق مُميز ألبتة، فكل ما يراه أصحاب الأديان المتعددة هو حق، ومؤدى ذلك أن تكون الأديان عبارة عن خليط عجيب قابل لجميع الألوان الصحيحة والفاسدة، فما أراه أنا فيما يتصل بإيماني ونظرتي إلى الحياة والكون والخالق والرسل والغيبيات هو حق، وما يتصوره الآخر من إنكاره للوحدانية والرسل والغيبيات هو حق أيضًا، وبالتالي يتساوى من يعبد الله مع من يعبد البقر في صحة التَّصور.

لكنَّ عقيدتنا أنَّ المسلم على حق في التصورات وغيره على باطل، وهذه عقيدة لا تَزحْزُح عنها، على أنَّه ليس من لوازم ذلك ولا من فرعيّاته، - بل ولا قال أحد ممن يُعتد برأيه - أنّ امتلاك المسلم للحق، هو مسوغ له في الاعتداء على الآخرين أو النيل منهم باعتبار أنهم لا يملكون هذا الحق، فمن بدهيات ما يتعلمه المسلم قول الله تعالى ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [سورة البقرة: آية ٢٥٦]، ((مَن قتَلَ معاهداً لَم يَرَحْ رائحةَ الجنةِ، وإنَّ ريحَها يُوجَدُ مِن مسيرةِ أربعينَ عاماً))[17].

التمييز بين الفروع والأصول ليس تقليلًا من شأن الفروع:

التمييز بين الأصول والفروع ليس تقليلًا من شأنِ الفروع، ولكنَّه تمييز منهجي علمي ضروري لحماية الأمة من التصورات والمعتقدات الخاطئة التي تؤدي إلى التَّكفير والقتل في مسائل لا تستلزم ذلك، مما يؤثر في كيان الأمة ووحدتها.

استنادًا إلى ما سبق، يمكن القول جازمًا - اعتمادًا على الاستقراء- إنَّ كل مسألة وقع الخلاف فيها بين الأشعرية

(١٦) الغزالي، الاقتصاد في الاعتقاد، وضع حواشيه: عبد الله محمد الخليلي، دار الكتب العلمية، بيروت/لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٤ م، ص:١٣٦

(١٧) صحيح البخاري، كتاب الجزية، باب إثم من قتل معاهدًا بغير جرم، رقم: ١٣٧٨

والماتريدية، أو بين السَّلف والخلف، أو بين أهل السنة والمعتزلة، أو بين أهل السنة والخوارج، هي من فروع أصول الدين وليست من أصولِ الدين بالمعنى السابق الذي شرحناه لمفهوم أصول الدين، ويمكننا أن نمثل لذلك بالاختلاف الحاصل في الصفات.

> أنْ نفعل ما تركه رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يثبت أنَّ صحابته الكرام فعلوه قد يكون من مثارات الغلو، ويدخل هذا عند البعض في مفهومُ البدعة

الاختلاف الحاصل في الصفات الذاتية:

هناك اختلاف في بعض المسائل المتصلة بالإلهيات، منها: هل توجد صفات ذاتية لله تعالى كصفة تُسمى صفة القدرة مثلا أم لا؟ اتفق المعتزلة وأهل السنة على أنَّ الله قادر، ولكن وقع الخلاف بينهم هل الله قادر بقدرة؟ أم قادر بذاته من غير صفة تُسمى صفة القدرة، بالأول قال أهل السنة[18] وبالثاني قال المعتزلة[19]، وهكذا في بقية الصفات، والحق في المسألة مع أهل السنة، ولسنا بحاجة إلى عرض أدلتهم، نَظَرًا لوضوحها، كما أن هذا الموطن ليس مناقشة لخصومهم، فالمسألة – وهذا ما نقصده – ليست من أصول الدين بل من فروعه، وهذا ما رُمْنا الوصول إليه، ولكنْ كونها من الفروع لا يمنع من الحكم على قائلها بالخطأ، وإنما المقصود أنْ لا يرقى ذلك إلى الحكم بالتكفير واعتبار ضرر هؤلاء على الدين أكثر من ضرر المجوس أو اليهود والنصارى، أو مساوين لهم في الحكم.

٣.عدم وضع ضوابط للمُحكم والمتشابه، وفهم المتشابه في ضوء المحكم:

آيات القرآن الكريم منها المُحكَم ومنها المتشابه، والأصل في هذا قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [سورة آل عمران: آية ٧] ومما دخل تحت هذا المثار عند كثير من العلماء النصوصُ التي توهم تشبيه الله تعالى بخلقه، فإذا كان الله سبحانه وتعالى مُنَزَّهًا عن النقائص وعن صفات المخلوقات، فكيف نفهم النصوص الواردة في القرآن الكريم والسنة النبوية مما يوهم ظاهرها تشبيه الله تعالى بخلقه؟ من ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ [سورة المائدة: آية ٦٤] وأحاديث كثيرة وردت قريبة من هذا المعنى، منها حديث النبي صلى الله عليه وسلم: ((إن المقسطين عند الله على منابر من نور، عن يمين الرحمن عز وجل، وكلتا يديه يمين، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا))[20].

اتفق أهل السنة والمعتزلة ابتداء على تنزيه الله تعالى عن المشابهة، لكن عند تطبيق هذه النصوص في ضوء تنزيه الله تعالى، وقع الاختلاف، وهذا الاختلاف مرده إلى تنزيه الله تعالى كلٌّ بحسب فهمه للتنزيه، مع يقيننا بصحة مذهب أهل السنة، ولم يكن الخلاف قاصرًا بين المعتزلة وأهل السنة، بل حصل بين أهل السنة أنفسهم، ومثار الخلاف كان عدم الاتفاق في ضبط مذهب السَّلف على وجه الدقة، فهل كانوا يسكتون عن هذه النصوص؟ ولا يخوضون فيها بتفسير أو تأويل، ويُفوضون المُراد منها كاملًا لله تعالى، – وهذا ما أراه – أم كانوا يحملونها على ما يليق بكمال الله تعالى مع تنزيه الله عن المشابهة والمُماثلة؟ وأيهما أسلم، هل مذهب السلف أم الخلف؟ وما الحدود الزَّمنية لمذهب السَّلف؟ وما علاقة هذه النُّصوص بالمجاز؟ وهل هذه النصوص تدخل تحت المحكم والمتشابه أم لا؟ وما معيار المحكم والمتشابه... كانت هذه مثار خلاف[21].

٤.عدم الفهم الدقيق لتروك النبي صلّى الله عليه وسلّم عند الأصوليين وصلته بمفهوم البدعة:

دين الله سبحانه وتعالى يقوم على أمرين:

(١٨) انظر: أبو منصور الماتريدي، التوحيد، تح: فتح الله خليف، دار الجامعات المصرية ص:٤٥، الأشعري، اللمع، ص:٢٦ ، الباقلاني، تمهيد الأوائل، ص:٢٩٩، الغزالي، الاقتصاد في الاعتقاد، ص:٨٧

(١٩) انظر: القاضي عبد الجبار، شرح الأصول الخمسة، ص:١٥٥

(٢٠) الحديث أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل، وعقوبة الجائر، والحث على الرفق بالرعية، والنهي عن إدخال المشقة عليهم رقم: ١٨٢٧

(٢١) الغزالي، إلجام العوام عن علم الكلام، ضمن مجموعة رسائل الإمام الغزالي، ط. دار الفكر، بيروت، ط. الأولى: ١٩٩٦م. ص:٣٠٤ و٣٢٦، النووي، شرح مسلم، ط. دار إحياء التراث العربي، ج١٢، ص:٢١١، ٢١٢. ابن تيمية، مجموع الفتاوى، تح: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، الناشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، ج١٣، ص ٢٧٥

الأول: أنْ نفعل ما طلبه الله تعالى منَّا أو طلبه رسوله صلّى الله عليه وسلّم طلبًا جازمًا أو غير جازم، ويشمل ذلك الواجب والمندوب، ويدخل في ذلك ما فعله عليه الصلاة والسلام مما فيه صفة التأسّي لنا به، بحيث يكون داخلًا في التشريع لنا إلى يوم القيامة، وهذا شأن الصلوات والزكوات والصدقات وبر الوالدين وحسن الجوار والأمر بالمعروف وأمثالها.

الثاني: هو أنْ نترك ما نهانا عنه ربنا أو نهانا عنه رسوله صلّى الله عليه وسلّم نهيًا جازمًا أو غير جازم، ويدخل في ذلك المُحرَّم والمكروه، ويدخل في هذا النهيُ عن الكذب والسرقة والزنا وشرب الخمور وشهادة الزور وموالاة الظالم والتقاعس عن نصرة المظلومين.

لكن أنْ نفعل ما تركه رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يثبت أنَّ صحابته الكرام فعلوه قد يكون من مثارات الغلو، ويدخل هذا عند البعض في مفهومُ البدعة، وقد قال صلى الله عليه وسلم: - فيما رواه أَحْمد وَأَبُو دَاوُد وَالتِّرْمِذِيّ وَابْن مَاجَه من حَدِيث الْعِرْبَاض بن سَارِيَة السّلمِيّ رَضِيَ اللهُ عَنْه- ((عَلَيْكُم بِسنتي وَسنة الخُلَفَاء الرَّاشِدين المهديّين عضوا عَلَيْهَا بالنواجذ، وَإِيَّاكُم ومحدثات الْأُمُور، فَإِن كل بِدعَة ضَلَالَة)) قَالَ التِّرْمِذِيّ: هَذَا حَدِيث حسن صَحِيح[٢٢].

يقول ابن رجب الحنبلي: فقوله صلى الله عليه وسلم: ((كل بدعة ضلالة)) من جوامع الكلم لا يخرج عنه شيء، وهو أصل عظيم من أصول الدين، وهو شبيه بقوله: ((من أحدث في أمرنا ما ليس منه فهو رد)) فكل من أحدث شيئا، ونسبه إلى الدين، ولم يكن له أصل من الدين يُرجع إليه، فهو ضلالة، والدين بريء منه، وسواء في ذلك مسائل الاعتقادات، أو الأعمال، أو الأقوال الظاهرة والباطنة)[٢٣]، ويقول ابن حجر: (والمحدَثات بفتح الدال جمع محدَثة، والمراد بها ما أحدث وليس له أصل في الشرع، ويسمى في عرف الشرع بدعة وما كان له أصل يدل عليه الشرع فليس ببدعة، فالبدعة في عرف الشرع مذمومة بخلاف اللغة، فإن كل شيء أحدث على غير مثال يسمى بدعة سواء كان محمودًا أو مذمومًا، وكذا القول في المحدثة، وفي الأمر المحدث الذي ورد في حديث عائشة ((من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد))[٢٤].

فلو أخذنا مثالًا على ذلك الاحتفال بمولد النبي صلى الله عليه وسلم، فهل هو داخلٌ في مفهوم البدعة؟ - مع أنّي لا أراه كذلك- وهل للاحتفال أصلٌ في الشرع؟ أو ليس له أصل؟ وما صلة هذا بقضية التُّروك عند الأصوليين؟ وليس الموضع هنا مناقشة المسألة وتبيان الراجح، وإنما التنبيه على أنّ هذا من مثارات الغلو، حيث يصل الأمر إلى التراشق بالتبديع والتضليل وترك سُنَن النبي صلى الله عليه وسلم أو الاتهام بالجهل وجفاء المصطفى صلى الله عليه وسلم بعدم الاحتفال بمولده، ويكفي أنّ هناك عشرات من الكُتُب بين الطرفين في مثل هذه المواضيع، وكان بالإمكان أن تصرف جهود الكتابة والتأليف إلى باب آخر مما يحتاجه المسلمون أكثر من الدخول في مثل هذه القضايا.

> ظهور الحق لا يمنع من الحكم على الآخر بالخطأ وعدم إصابة السُّنة والدخول في البدعة، لكنَّه لا يقتضي تكفيرًا أو استباحة للدم، أو النَّظر إلى المخالف على أنه مساوٍ لليهود والنصارى، أو رمي جهوده في خدمة الدين ونشر العلم،

٥. غياب التعامل مع العام والخاص والمطلق والمقيد عند البعض:

الأمثلة على ذلك كثيرة، منها ما رواه البخاري ((لا يَزْنِي العَبْدُ - وفي رواية الزاني - حينَ يَزْني وَهْوَ مُؤْمِنٌ، وَلا يَسْرِقُ حينَ يَسْرِقُ وَهْوَ مُؤْمِنٌ، وَلا يَشْرَبُ حينَ يَشْرَبُ وَهْوَ مُؤْمِنٌ، وَلا يَقْتُلُ وَهْوَ مُؤْمِنٌ))[٢٥]، وحديث مسلم ((إن بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة))[٢٦].

بناء على مثل هذه الظواهر كفَّر الخوارج مرتكب الكبيرة، وأدْخله المعتزلة في المنزلة بين المنزلتين، ولو دُرست هذه الأحاديث في ضوء أصول الفقه والنصوص الأخرى،

(٢٢) ابن حجر العسقلاني، البدر المنير في تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في الشرح الكبير، تح: دار الهجرة للنشر والتوزيع - السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م، ج٩، ص ٥٨٢

(٢٣) ابن رجب الحنبلي، جامع العلوم والحكم، تح: شعيب الأرناؤوط - إبراهيم باجس، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة: السابعة، ٢٠٠١م، ج٢، ص ١٢٨

(٢٤) ابن حجر، فتح الباري، ج١٣، ص ٢٥٣

(٢٥) مختصر صحيح الإمام البخاري، كتاب الفرائض، باب تَوْبَةِ السَّارِقِ، رقم: ٢٥٧٨، مكتبة المعارف للنَّشْر والتوزيع، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠٢م.

(٢٦) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان إطلاق اسم الكفر على من ترك الصلاة، رقم: ١٣٤. تح: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي - بيروت.

ولاسيما قول الله تعالى ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [سورة النساء: آية ٤٨] لما وُجِد هذا الغلو، يقول الشيخ محمد الطاهر بن عاشور عن الخوارج: (عمدوا إلى آيات الوعيد النازلة في المشركين فوضعوها على المسلمين فجاؤوا ببدعة القول بالتكفير بالذنب)[٢٧]، وقد تعرّضتُ لهذه المسألة في البحث السابق المنشور في العدد الثاني من مجلة مقاربات تحت عنوان «أثر أصول الفقه في الاعتدال الفكري».

الخاتمة:

بعد أنْ منّ الله عليَّ بإتمام ذكر أبرز مثارات الغلو، يمكن القول بضرورة تمييز ما هو من أصول الدين وما هو من فروعه، وكثير من القضايا الخلافية في فكرنا الإسلامي هي من هذا النوع، وهذا لا يعني أبدًا أنْ نغيِّر قناعاتنا، أو أنْ نتنازل عن أفكارنا، فهذا ليس مقصودًا من البحث، ولا يمكن الوصول إليه أصلًا؛ لأن الكثير من الخلاف راجع إلى طبيعة النصوص، بمعنى ما يُفهم من النصوص من جهة الدلالة إضافة إلى ما يتعلق بالإسناد فيما يخص السُّنة النبوية، وهنا لا بدّ من حَكَمٍ يُلجَأ إليه من أجل تبيان وجوه الاجتهاد في المسألة وبيان الراجح منها وحدود الاختلاف الممكن فيها، ومن المعلوم أنّ كثيرًا من هذه المسائل ظهر فيها وجه الحق فأصبح القول فيها راجحًا، والقول الآخر مرجوحًا، وخاصة في القضايا المتصلة بفروع أصول الدين بين أهل السُّنة والمعتزلة، وظهور الحق لا يمنع من الحكم على الآخر بالخطأ وعدم إصابة السُّنة والدخول في البدعة، لكنَّه لا يقتضي تكفيرًا أو استباحة للدم، أو النَّظر إلى المخالف على أنه مساوٍ لليهود والنصارى، أو رمي جهوده في خدمة الدين ونشر العلم، قال الإمام الذهبي في ترجمة إمام المفسرين والمحدثين في عصره قَتَادَةَ بنِ دِعَامَةَ السَّدُوْسِيِّ: (وَهُوَ حُجَّةٌ بِالإِجْمَاعِ إِذَا بَيَّنَ السَّمَاعَ... وَكَانَ يَرَى القَدَرَ.. وَمَعَ هَذا، فَمَا تَوَقَّفَ أَحَدٌ فِي صِدقِه، وَعَدَالَتِه، وَحِفظِه، وَلَعَلَّ اللهَ يَعْذُرُ أَمْثَالَه مِمَّنْ تَلَبَّسَ بِبِدعَةٍ يُرِيْدُ بِهَا تَعْظِيْمَ البَارِي وَتَنزِيهَه، وَبَذَلَ وِسْعَهُ، وَاللهُ حَكَمٌ عَدْلٌ لَطِيْفٌ بِعِبَادِه، وَلاَ يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ، ثُمَّ إِنَّ الكَبِيْرَ مِنْ أَئِمَّةِ العِلْمِ إِذَا كَثُرَ صَوَابُه، وَعُلِمَ تَحَرِّيهِ لِلْحَقِّ، وَاتَّسَعَ عِلْمُه، وَظَهَرَ ذَكَاؤُهُ، وَعُرِفَ صَلاَحُه وَوَرَعُه وَاتِّبَاعُه، يُغْفَرُ لَهُ زَلَلُهُ، وَلاَ نُضَلِّلُهُ وَنَطْرَحُهُ وَنَنسَى مَحَاسِنَه، نَعَم، وَلاَ نَقتَدِي بِهِ فِي بِدعَتِه وَخَطَئِه، وَنَرجُو لَهُ التَّوبَةَ مِنْ ذَلِكَ)[٢٨].

وقد عبَّر أهل أصول الفقه والمشتغلون بالعقيدة – تنظيرًا – عن شيء يُسمَّى أصول الدين، والقطعيات، والمعلوم من الدين بالضرورة، وما لا يجوز الجهل به، ولكنْ لم يقع بشكل دقيق – من جهة التنظير – ضبط هذه المصطلحات، كما أنَّ الإشكال الأكبر أنه قد تتداخل بعض هذه المصطلحات مع بعض من جهة التطبيق، وقد يتداخل ما هو من فروع الدين مع ما هو من أصوله.

إن قضية الولاء والبراء والعام والخاص وفروع أصول الدين وحكم تروك النبي صلى الله عليه وسلم ومفهوم التأسي به كلُّها من القضايا التي تحتاج علاجًا وإعادة تأصيل وشرح للمسلمين عموما وللمتصدرين للدعوة والإرشاد خصوصا، لذا فالمقترح:

- أنْ تقوم لجنة الدراسات والبحوث في المجلس الإسلامي بتخصيص ورشة خاصَّة تجمع فيها ممن ترى فيه الكفاية في الأصْلين: أصول الدين وأصول الفقه ممن هم من داخل مكوِّنات المجلس ومن خارجه للبحث في المسائل السابقة وما كان على شاكلتها حفاظًا على الفكر الإسلامي من الانحراف وعلى وحدة الأمة من الضياع.
- أنْ يتمَّ تعميم نتائج دراسة هذه المثارات على مراكز البحوث في العالم الإسلامي المرتبطة بالجامعات وغيرها لدراستها، والخروج بنتائج وتوصيات تتماشى مع مقاصد الدين ووحدة الأمة من غير ليٍّ لأعناق النصوص أو سعيٍ لإخفاء المُعتَقد.
- أنْ تُعرض هذه المثارات ابتداءً على أنَّها مُماثِلة للاختلاف في القضايا الفقهية، ويُترك الحُكم النهائيّ لقرارات اللجان المجتمعة وتوصياتها.
- التَّركيز على أصول الفقه في المناهج التعليمية، فهو أداة سليمة للفهم الصحيح لكتاب الله تعالى وسُنّة نبيّه صلى الله عليه وسلم.

والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

(٢٧) التحرير والتنوير- الطبعة التونسية: ج١، ص٥٠

(٢٨) الإمام الذهبي، سير أعلام النبلاء مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط، طبعة مؤسسة الرسالة، ج٥ ص٢٧٢

نقض منهجية القراءة المعاصرة للنص القرآني

عند المهندس محمد شحرور ..

الباحث الإسلامي: عباس شريفة

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله وأصحابه الطيبين، وبعد:

عندما تطورت المناهج التاريخية واللغوية تطورًا كبيرًا في أوروبا، وخصوصًا في ألمانيا، إبان القرن التاسع عشر، وبعد أن طبقوا منهجية النقد التاريخي على الآداب اليونانية والرومانية، وخرجوا بنتائج باهرة، قالوا: لماذا لا نطبقها على النصوص الدينية؟ فهي أيضًا مُشَكَّلة من حروف وألفاظ، وجمل وعبارات، ومرتبطة بظروفها وعصرها.

ونتيجة لذلك بدؤوا يطبقونها على التوراة والإنجيل، أو العهد القديم والعهد الجديد، وفوجئوا بأشياء عجيبة لم تكن تخطر لهم على بال، فقد اكتشفوا مثلًا: أن التوراة ليست من تأليف النبي موسى عليه السلام، كما يعتقد اليهود والمسيحيون منذ آلاف السنين، بل هي من تأليف متأخر، لأنها تحتوي على إشارات ومرجعيات وألفاظ ما كان يمكن أن توجد في عصر النبي موسى عليه السلام، وبرهنوا بالأدلة القاطعة على أطروحتهم هذه، عندئذ أصيب الوعي الإيماني المسيحي في الصميم.

لكن الليبراليين قبلوا بالنتيجة، وقالوا: إن العلم لا يدمر الإيمان، كما يزعم الأصوليون المتحجرون بل يضيئه وينعشه!

وهنا بدأت معركة تأويل النص عند الغرب، وهي المعركة التي يريد أن يستورد العلمانيون العرب أدواتها، (المنهج التاريخاني[1] واللسانيات)كمحمد أركون[2]، والمهندس محمد شحرور[3]وغيرهما، لإجراء العملية الجراحية الغربية نفسها، لكن مع فارق وحيد أنهم يجرونها على العضو السليم وهو النص القرآني الذي ثبت قطعًا أنه نص إلهي، ليس لبشر فيه يد؛ حتى النبي المبلغ له عليه الصلاة والسلام.

(١) (التاريخية) أو (التاريخانية) كلمة وضعها المفكرون الحداثيون العرب في مقابل المصطلح الأصل في اللغة اللاتينية (Historicisme)*، وهذا الانتقال الترجمي يحتاج إلى وقفة اصطلاحية، وأما من حيث أصله اللغوي فـ(التاريخية) مصدر صناعي[(التطبيق الصرفي/ ص٧٣) للراجحي، و(جامع الدروس العربية/ ص١٧٧) للغلاييني]، يدل على خصائص التاريخ، أي التطور والتغير والحركة، وأما اصطلاحا فقد عرفه دايموند أرون بقوله: (المذهب الذي يدعو إلى المعرفة التاريخية للقيم والفلسفات ونسبيتها) (La Philosophie Critique de l Histoire /p٢٨٩).

(٢) محمّد أركون يدعو إلى ضرورة توظيف علم الألسنيات أو علم اللغة؛ لأنّ الخطاب القرآني «لم يكن مكتوبًا في البداية، وإنّما كان كلامًا شفهيًّا أو عبارات لغوية شفهية تنبثق على هوى المناسبات والظروف المتغيّرة، وقد استمرّ ذلك عشرين سنة» راجع «محمّد أركون، العلمنة والدّين، ترجمة: هاشم صالح، دار الساقي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٩٦، ص ٨٣

(٣) المهندس محمد شحرور تاريخ الولادة: دمشق١٩٣٨ بدأ في دراسة التنزيل الحكيم وهو في إيرلندا بعد حرب ١٩٦٧، وذلك في عام ١٩٧٠، وقد ساعده المنطق الرياضي على هذه الدراسة، واستمر بالدراسة حتى عام ١٩٩٠، حيث أصدر الكتب التالية ضمن سلسلة (دراسات إسلامية معاصرة) الصادرة عن دار الأهالي للطباعة والنشر في دمشق: (الكتاب والقرآن قراءة معاصرة) عام ١٩٩٠. (٨٢٢) صفحة، (الدولة والمجتمع) عام ١٩٩٤. (٣٧٥) صفحة، (الإسلام والإيمان منظومة القيم) عام١٩٩٦. (٤٠٠)، و العديد من الكتب (نقلا عن موقعه الرسمي).

وشكلت موجة ما يسمى (القراءة المعاصرة) آخر موجات الصراع المستمرة حول تأويل النص القرآني.

فلا يزال الوحي والنص المقدس ساحة صراع بين من يحاولون امتلاك ناصية الفهم الحق، والتعبير عن مراد الله تعالى من الخطاب الإلهي، وبين مقلدة الغرب من أصحاب القراءة المعاصرة، وكثيرًا ما تتأثر هذه المعارك الفكرية بالأحداث السياسية، وتكون رجعًا للصراعات الاجتماعية.

فبعد كل حالة من الانكسار التي تتعرض لها الأمة تعلو بعض الدعوات التي تحاول إعادة تفسير الإسلام من جديد، على صورة تحل فيها معضلة التناقض التي يتصورها الشباب المسلم الحائر بين النص والوحي من جهة، وبين التجربة والواقع من جهة أخرى.

وقد ظهرت في سوريا قديمًا دعوة الأستاذ جودت سعيد لمذهب ابن آدم الأول بعد الصراع الدامي بين الإسلاميين والبعثيين، وكانت قراءة جديدة متأثرة بالواقع الغائم والنكبة المرة.

وكذلك بعد وقوع العالم الإسلامي تحت نير الاستعمار الغربي ظهرت كثير من الدعاوى التي تدعو إلى تفسير النص القرآني والإسلام تفسيرًا جديدًا يحل الإشكالية التي أفرزتها الحالة السياسية والصدمة الحضارية، كما فعلت البهائية[٤] في إيران، والقاديانية[٥] في القارة الهندية.

وإن كان بعضهم يكتفي بتفسير مثل هذه الدعوات بأنها صنعة إنكليزية محضة، أو مؤامرة استعمارية بحتة، فإنني هنا أريد تناول الموضوع من وجهة نظر أخرى، تتجاوز عقدة المؤامرة، إلى المحاكمة العقلية لهذه المناهج المحدثة.

ونجد أن المفكر والشاعر الهندي الكبير محمد إقبال[٦] شرح تلك الدعوات بناء على المؤدى والنتيجة منها بشكل عميق ودقيق، وأشار إلى أنها تلغي مفهوم العبودية والربوبية التي هي جوهر الأديان كلها، لأنها تحرر الإنسان، وتستعبد الدين فيصبح الدين مقلوبًا رأسًا على عقب، ويتحول العبد معها – وهو الإنسان هنا – إلى سيد، والدين إلى عبد خاضع؛ يلبي شهوة الإنسان ورغباته، وقد عبر عن ذلك إقبال شعرا فقال:

وإن شئت فالقرآن تأويل لاعب ** فجدد لنا شرعًا يلائمه العصر

رأيت بأرض الهند أيَّ عجيبة! ** فإسلامها عبدٌ ومسلمها حر[٧]

واليوم نعود لنلحظ هذه الشنشنة التي نعرفها من أخزم، تشرئب مجددًا، وتحاول أن تقدم تفسيرًا جديدا للنص، يكاد يكون فهمًا بديلًا عن الإلحاد، وإن كان في أصله نوعًا من الإلحاد في آيات الله.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي النَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [سورة فصلت: آية ٤٠] والإلحاد هنا كما جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما هو: أن يوضع الكلام في غير موضعه[٨]، لينتهي الأمر إلى إفراغ الدين من محتواه، والذي قد يجتذب كثيرًا من الشباب المصدوم بالخطاب التكفيري، الذي مثلته داعش، أو الناقم على الخطاب الانهزامي أو الخرافي الذي أشاعته الفتاوى الجامية، وبعض منحرفي المتصوفة.. كما شكل خطاب المؤسسات الدينية الحكومية حالة من الصدمة لدى الشباب المسلم من خلال موقفها من الظلم الممارس على الشعوب المسلمة في فترة الربيع العربي، مما أدى إلى فقدان الثقة بكل من يمثل الدين، أو حتى الشك بالدين نفسه.

وبين دعوات الجمود على التراث، وبين دعوات تجديده، تستبطن العلمنة تارة والإلحاد تارة، وبين السقوط الأخلاقي لبعض الدعاة في معركة الحرية والظلم؛ تجد مثل هذه القراءات رواجًا بين الشباب بما تضفي على نفسها من مسحة عقلانية تستهوي البعض.

---

(٤) البابية والبهائية حركة نبعت من المذهب الشيعي الشيخي سنة ١٢٦٠هـ/ ١٨٤٤م تحت رعاية الاستعمار الروسي واليهودية العالمية والاستعمار الإنجليزي بهدف إفساد العقيدة الإسلامية وتفكيك وحدة المسلمين وصرفهم عن قضاياهم الأساسية.. أسسها الميرزا علي محمد رضا الشيرازي ١٢٣٥-١٢٦٦هـ (١٨١٩ - ١٨٥٠ م)،من مبادئهم أنهم يؤولون القرآن تأويلات باطنية ليتوافق مع مذهبهم، يحرمون الحجاب على المرأة ويحللون المتعة وشيوعية النساء والأموال. المصدر «الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، إشراف وتخطيط د. مانع بن حماد الجهني، طبعة دار الندوة العالمية».

(٥) القاديانية حركة نشأت سنة ١٩٠٠م بتخطيط من الاستعمار الإنجليزي في القارة الهندية، بهدف إبعاد المسلمين عن دينهم وعن فريضة الجهاد بشكل خاص؛ حتى لا يواجهوا المستعمر باسم الإسلام، وكان لسان حال هذه الحركة هو مجلة الأديان التي تصدر باللغة الإنجليزية.. مؤسسها هو ميرزا غلام أحمد القادياني (١٨٣٩ – ١٩٠٨م) أداة التنفيذ الأساسية لإيجاد القاديانية، وقد ولد في قرية قاديان من بنجاب في الهند عام ١٨٣٩م، أفكاره: بدأ غلام أحمد نشاطه كداعية إسلامي حتى يلتف حوله الأنصار ثم ادعى أنه مجدد وملهم من الله ثم تدرج خطوة أخرى فادعى أنه المهدي المنتظر والمسيح الموعود ثم ادعى النبوة وزعم أن نبوته أعلى وأرقى من نبوة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، المصدر «الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، إشراف وتخطيط د. مانع بن حماد الجهني، طبعة دار الندوة العالمية».

(٦) هو إقبال ابن الشيخ نور محمد، كان أبوه يكنى بالشيخ تتهو أي الشيخ ذي الحلقة بالأنف ولد في سيالكوت، إحدى مدن البنجاب الغربية (١٨٧٧ – ١٩٣٨م).

(٧) من ديوان ضرب الكليم لمحمد إقبال، نقله للعربية الدكتور عبد الوهاب عزام، ص٤٢

(٨) جامع البيان في تأويل القرآن، محمد بن جرير الطبري، الناشر: مؤسسة الرسالة الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ – ٢٠٠٠ م، ج ٢١ ص ٤٧٨

وهنا أذكر المهندس محمد شحرور نموذجًا في قراءته المعاصرة للقرآن في عدد من كتبه والتي يعد من أهمها كتابه ((الكتاب والقرآن قراءة معاصرة)) والذي حدد فيه منهجه اللساني في تناول تفسير آيات القرآن الكريم[٩].

وهنا لا أريد الغوص في النوايا كما يفعل البعض، فأمر ذلك لرب العالمين، ولا يهمني إن كان شحرور عميلًا صهيونيا، أو شيوعيا ماركسيًا.. لكن ما لفت انتباهي في ظاهرة شحرور مسألتان:

الأولى: كثرة الشباب المفتونين، والمعجبين بفكره وبضاعته التفسيرية المبهرجة بغلاف من عقلانية خادعة وشهوانية طاغية.

والثانية: كمية الردود السطحية والعاطفية التي يرد بها بعض من الدعاة على المهندس شحرور، مما يزيد دعوته قوة وتأثيرًا، ويزيد من ردود الباحثين عليه ضعفًا بعين الشباب المثقف المتابع لصليل هذه المعركة.

وفي أحسن الأحوال هناك من رد على إنتاجه التفسيري بطريقة تناول الجزئيات التفسيرية في قضايا معينة، مثل قضية الحجاب والميراث والصيام، وهو جهد مبارك.. ولكن تناول المنهج المعرفي الأبستمولوجي والغوص والحفر في عمقه وتحليله يبقى ردًا قاصرًا، يعالج المنتج، ولا يمس المنهج.

لذلك اخترنا الرد بنقض المنهج الأصولي لشحرور، ودحض منهجه المعرفي من أصله وأساسه، بدلًا من التيه والدوران في ملاحقة منتجاته الفكرية الشاذة في قضايا الإرث والحجاب وغيرها، لنحقق غاية بسيطة، وهي أننا ببيان فساد الأصل والمقدمات سنظهر بطلان كل ما يتولد عن ذلك من فروع ونتائج ومخرجات.

وهنا نشرع بتفكيك أهم المقدمات والأصول الفاسدة التي يقوم عليها منهج شحرور في قراءته المعاصرة للقرآن الكريم.

المسألة الأولى:
شبهته حول علم أصول الفقه

من المسلَّم به عند أهل العلم والمعرفة في النظريات المعرفية ومناهج العلوم، أن العلوم سابقة بالاكتشاف والتطبيق على قوانينها، وليست لاحقة لها.

فاللغة مثلًا سابقة في الممارسة والوجود على علم النحو والإعراب، والفقه سابق في الوجود والتطبيق على علم أصول الفقه، والسنة سابقة على علم الرواية والمصطلح، والناس كانت تتعامل مع قانون الجاذبية قبل أن يكتشفها نيوتن.

من هنا نريد الوصول إلى قضية كثيرًا ما يدندن بها المهندس محمد شحرور عندما يقول: «إن مشكلتنا تكمن في كتاب من مئتي صفحة – يعني به (كتاب الرسالة) للإمام الشافعي رحمه الله – إذا تجاوزناها؛ فإن مشكلتنا كلها مع التراث ستحل تلقائيا»، حتى يقول: «أنا كافر بما جاء به محمد بن إدريس الشافعي»[١٠].

يظن شحرور أن الشريعة الإسلامية هي منتج علم أصول الفقه الذي دونه الإمام الشافعي رحمه الله، وأننا إذا كسرنا هذا المنهج الأصولي وتجاوزناه، واستعضنا عنه منهجًا معرفيًا آخر نقرأ من خلاله نصوص الوحي والكتاب: ستنتهي مشكلتنا المعرفية مع الشريعة، لأن المنتج الشرعي والفقهي سيختلف تماما باختلاف منهج الاستنباط القياسي الذي أتى به الإمام الشافعي رحمه الله، وأن التجديد في الفقه الإسلامي سيتحصل بما يتناسب مع تطور المجتمعات والحضارات البشرية.

ولم يتفطن شحرور إلى الخطأ المنهجي الكبير الذي وقع به؛ إذ لم يدرك أن الشريعة الإسلامية كانت قائمة طوال أكثر من قرن من الزمان في جيل الصحابة والتابعين، قبل أن يولد الشافعي نفسه، ولم يزد الشافعي رحمه الله على أن استخرج من منهج الصحابة والسلف في التعامل مع النصوص الشرعية قواعد الاجتهاد الموجودة في أذهانهم، ودوّنها لتكون ضابطًا لفهم فروع الشريعة وفق المنهج الاجتهادي لدى الصحابة الكرام، وليس لإعادة إنتاجها من جديد.

وكان لعلم أصول الفقه المستَنِد في قواعده على اللغة العربية دور كبير في ضبط حركة الاجتهاد، وحماية الشريعة الإسلامية من تحريف المبطلين والمتسلقين.

فشحرور يرى أن أزمة الأمة المعاصرة هي أزمة التمحور حول النص، وأن الحل يكمن في إعادة قراءة النص قراءة

(٩) يقول شحرور في شرح مستنده في تطور دلالات اللغة: لقد وضع الخليل وسيبويه قواعد اللسان العربي على مبدأ الشكل: المرفوعات والمنصوبات والمجرورات، وهو ما يُسمّى علم النحو، ثمّ جاء علم البلاغة (المعاني) وكأنّه قام بالفصل بين النحو والبلاغة كلّ على حدة، بحيث نجد أنّ سيبويه والجرجاني وابن جنّي وأبا علي الفارسي وكلّ علماء اللغة ظهروا في القرون الهجرية الأولى، ونحن الآن في بدايات القرن الحادي والعشرين، نعلم أنّ علوم الرياضيات والفيزياء والكيمياء والفلك والطبّ وكلّ العلوم الأخرى تقدّمت تقدّمًا هائلًا لا يقاس أصلًا بالماضي، إضافة إلى علوم اللسانيات، لكنّ علماء الدين نسوا أنّ علوم اللغات تطوّرت أيضًا تطوّرًا هائلًا، فكيف لنا نحن ألّا نأخذ في الاعتبار هذا التطوّر الهائل لعلوم اللسانيات عند دراسة آيات التنزيل الحكيم لفهمها بنحو أفضل ومعاصر؟ المصدر: موقعه الرسمي [https://shahrour.org/?page_id=٣].

(١٠) من لقاء على قناة العربية
https://www.youtube.com/watch?v=-jbCwvb١AuQ

معاصرة، وحتى يصل إلى هذه القراءة المعاصرة لا بد من نسف قواعد أصول الفقه التي تشكل حجر عثرة أمام رؤيته، متوهمًا أن الشريعة؛ هي وليدة القواعد الأصولية التي وضعها الإمام الشافعي.

نعود ونؤكد الفكرة التي انطلقنا منها، وهي أن الشريعة سابقة في الوجود والتطبيق على منهج أصول الفقه، وليست متولدة منه كما يظن شحرور، فالمنهج الأصولي يكمن دوره في فهم الشريعة وليس هو المنتج لأحكامها، فإن الصحابة رضي الله عنهم كانوا يصلون ويصومون ويحجون ويزكون ويتزوجون ويبيعون ممتثلين في كل ذلك أحكام الشريعة الإسلامية، ولم يدون علم أصول الفقه بعد.

> نقل المنهج اللساني المستورد وتحويله من حل أزمة النص المقدس في المسيحية إلى الدراسات القرآنية، أدت بشحرور إلى السقوط في الخطأ المنهجي

المسألة الثانية:
منهج مستورد لقراءة النص

نتساءل ما المنهج البديل عند المهندس محمد شحرور الذي يريد من خلاله إعادة إنتاج الشريعة الإسلامية من جديد؟

إنه علم اللسانيات وتاريخانية النص الذي نشأ في الغرب لأجل حل معضلة التناقض الحاصل بين معطيات العلم المادي الحديث، وبين فهم الكنيسة للنص المقدس.

إن حالة عدم التسامح بين المذاهب المسيحية في القرون الوسطى أدت إلى إشعال الحروب الدينية لمئات السنين في أوروبا، هذه المأساة حملت كثيرين من فلاسفة الغرب على إعادة قراءة النص المقدس بما يتوافق مع العلم؛ ويوجِد القطيعة مع القراءات الكنسية، ورفض احتكار الكنيسة لفهم النص المقدس التي كانت تتهم كل من يخالفها الرأي بالهرطقة والتجديف.

وعندما أراد شحرور أن يقرأ النص قراءة معاصرة، تتمشى مع روح العصر بزعمه، كان لا بد له من الاستعانة بمنهج معرفي مستورد يخرج به عن صرامة قواعد أصول الفقه والتفسير، التي ستدحض كل جديد يأتي به، فاستعاض عنه المنهج اللساني الغربي الذي أوجده الغرب لتفكيك النص المقدس عندما وصل إلى المأزق المعرفي بين العلم والنص الديني، فالإنسان بحاجة للإيمان، ولكن النص المقدس متناقض مع العلم! فما الحل؟ الحل هو التأويل، وهو نقل المعنى المرفوض إلى معنى مقبول.

إن المنهج اللساني الغربي في قراءة النص المقدس يقوم على أساسين اثنين:

الأول: تطور دلالة المصطلحات بتطور الزمان والمكان والحضارة، وبناء على ذلك يمكن أن نجد في كل عصر تفسيرًا جديدًا للنص، يتوافق مع روح هذا العصر، ولا يكون معارضًا لما فهمه الصحابة والسلف، فما فهمه السلف هو صحيح باعتبار عصرهم، وما نفهمه نحن اليوم هو صحيح باعتبار عصرنا.

الثاني: إن القول بتطور النص يعني أن لا معنى نهائي للألفاظ، لأن اللغة مثلها مثل المادة هي في حالة تطور مستمر، وهنا يقوم محمد شحرور بتطبيق وإسقاط النظرية الداروينية الماركسية في أصل الأنواع على اللغة فيما يسميه الباحثون الأنثروبولوجيا[11].

إن نقل هذا المنهج اللساني المستورد وتحويله من حل أزمة النص المقدس في المسيحية إلى الدراسات القرآنية، أدت بشحرور إلى السقوط في الخطأ المنهجي الذي أشار إليه أحد الباحثين بقوله: (بلا نص ولا دلالة ثابتة لا تفسير نهائي للنص، لا تفسير مفصل أو موثوق به إنه اللعب الحر للغة، فكل القراءات إساءة قراءات، إلى آخر تلك المتاهات التي أدخلتنا فيها الحداثة الغربية ومدارسها النقدية)[12].

ونتيجة ما جاء به المهندس شحرور: أنه إذا لم يكن للنصوص معان نهائية، فما الحاجة للإيمان بها أصلا؟ وعند ذلك يكون الكفر بها هو الحل الأمثل للتعامل مع كلام إله لا يَعرف عباده ما يريده منهم، ويحمل خطابه لهم في كل عصر وزمان معنى

(١١) علم الأنثروبولوجي يهدف إلى الكشف عن الأصول التاريخية لنشأة اللغة عمومًا، والمجموعات المتشابهة فيها على وجه الخصوص، ويقارن اللغات بعضها ببعض ليحدد الظواهر اللغوية الشائعة بينها على وجه العموم، وعلى ضوء ذلك يتمكن من فهم العمليات والتطورات التي أدت إلى نشأة اللغة وتطورها واختلافها.. راجع موسوعة ويكيبيديا.

(١٢) من كتاب المرايا المحدبة من البنيوية إلى التفكيك رقم ٣٢، من سلسلة عالم المعرفة، عبد العزيز حمودة، الصفحة ٣٤

مختلفًا عن الذي قبله، وهكذا لا يثبت النص على معنى، ويصبح التكليف الذي هو جوهر الدين والعبودية ضربًا من العبث.

وهنا لا بد أن نشير إلى أن العلماء يميزون بين ثلاث دلالات للمفردة القرآنية:

١- الدلالة الشرعية للمصطلح.

٢- والدلالة اللغوية.

٣- والدلالة العرفية.

* **فالدلالة الشرعية**: ما تدل على مقصود صاحب الوحي من اللفظ.

* **والدلالة اللغوية**: ما تواضع عليه أهل اللغة حين ضبطوا المصطلحات لفهم مراد كلام العرب في الزمن الذي نزل به النص.

* **والدلالة العرفية**: وهي التي تخضع للتغير تبعًا لتغير العادات والتقاليد في استخدام الألفاظ، لتدل على معنى يريده الناس في زمن ما، وهي المتطورة والمتغيرة بتغير الزمان والمكان، فالناس عرفا لا يسمون السمك لحمًا، وإن كان القرآن الكريم سماه «لحمًا طريا»، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [سورة النحل: الآية ١٤]، وَمَنْ حَلَفَ أنه لَا يَأْكُلُ لَحْمًا فأَكَلَ لَحْمَ سَمَكٍ لَم يَحْنَثْ[١٣].

هذا في حال عدم انصراف اسم اللحم إلى السمك عرفًا، فإن حُكم الحالف يتبع لقصده، فإن كان خاليا من القصد تُقدم الدلالة العرفية على الدلالة الشرعية، ولو حصل أن تغيرت الدلالة العرفية وصار يسمى السمك لحمًا؛ فإن الحكم يتغير.

وهناك حالة؛ ما إذا صرف الاسم إلى غير المسمى الذي أنيط به الحكم كصرف معنى التصوير الذي جاء النهي عنه بأحاديث صحيحة[١٤] والذي يتناول الرسم والنحت، إلى معنى التصوير في هذا العصر الذي يدخل فيه التصوير الفوتوغرافي، فإن العلماء الذين جوزوا التصوير الفوتوغرافي قالوا: إن النص المحرم لا يتناوله، لأننا يجب أن نفهم النص في سياقه التاريخي الذي يدل على مقصود التصوير، وهو النحت والرسم في ذلك الوقت، ولا يتناول المعنى العرفي الذي يتناوله تقييد الخيال أو الصورة عبر آلة التصوير.

النتيجة:

إن الخلل المنهجي الذي يلاحظ في العمل الذي قام به شحرور في الوصول إلى فروق بين المصطلحات التي اشتغل عليها، سببه اعتماده اللغة وحدها في استنباط معاني كل الألفاظ التي تعرَّض لها، ولم يفرق بين اللفظ المفهوم الذي أعطاه الشرع معنى محددًا، وبين اللفظ العادي الذي يمكن أن يستقرأ معناه من معاجم اللغة فقط، الأمر الذي أوصله إلى تأويلات أبعد ما تكون عن منطق اللغة العربية والشرع الحكيم، فالألفاظ التي أعطاها القرآن معنى خاصًا بها، يجب الوقوف فيها عند ذلك المعنى والسياق، ولا ينبغي الانسياق في تقمص معانيها المعجمية اللغوية، وتنزيلها مهما بلغت من التكلف والزيغ[١٥].

المسألة الثالثة:
تلفيق شحرور في توظيف منهج اللسانيات

الخطأ المنهجي الذي وقع فيه شحرور:

أنه ألحق الدلالة اللغوية والشرعية بالدلالة العرفية من حيث التطور والتغير في المعنى.

والمسألة الثانية أنه لم يستنسخ المنهج اللساني بحرفيته، وإنما عمل على توظيفه بطريقة انتقائية تخدم أفكاره المسبقة، من خلال عمليتي البنيوية والتفكيكية.

وإن غاية البنيوية الحداثية في منهج اللسانيات عند العلمانيين العرب، هو فك الارتباط بين الوحي، وبين مراد صاحب الوحي - وهو الشارع جل جلاله - بواسطة مجموعة من الأوضاع والأساليب اللغوية والحذلقات الكلامية، وذلك من خلال تفكيك التراكيب اللغوية إلى مفردات، ثم تعبئة هذه المفردات بمعان جديدة من قواميس اللغة التي تحتملها، تؤدي عند إعادة تركيبها إلى إنتاج معان جديدة تختلف تماما عن المعاني التي سيقت لأجلها.

وهكذا يكون محمد شحرور، قد تجاوز قضية تحريف الرسم القرآني المستحيلة بما حفظ الله به هذا القرآن المنزل، إلى تحريف التفسير والدلالات اللغوية لتراكيب القرآن الكريم وصولًا إلى المعنى الذي قرر أن يصل إليه سلفًا، وبناء عليه لفق المنهج الذي يوصله إلى هذا الهدف، وهو الوصول

(١٣) راجع فتح القدير لابن الهمام (المتوفى: ٨٦١هـ)، الناشر: دار الفكر (ص ١٢١-ج ٥) باب الأيمان في الأكل والشرب.

(١٤) عَنْ عَبْدِ اللهِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((إِنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْمُصَوِّرُونَ)). صحيح مسلم رقم الحديث ٥٥٨٨

(١٥) (قراءة في ضوابط التأويل وأبعادها المنهجية في الدراسات القرآنية المعاصرة) الدكتورة رقية طه جابر العلواني، بيروت ١١ -١٢ شباط ٢٠٠٦ م، بحث ألقي في ندوة دراسة التطورات الحديثة في الدراسات القرآنية ص ١٥

بالإسلام إلى فهم متطابق مع تطبيقات الحداثة وفق النموذج الغربي بالتحديد، على قاعدة كثير من المبتدعة الذين يعتقدون ثم يستدلون.

وهنا يقع شحرور بمطب قاتل آخر؛ وهو تجاوز المنهج الاستنباطي الذي جاء به القرآن الكريم نفسه لفهم مراد الله تعالى، فهل يعقل أن الوحي الذي جاء بالتبيان لم يزود القارئ المكلف بمنهج معرفي يفكك من خلاله النص ويفهمه على النحو الذي يريد صاحب الوحي الذي أنزله؟

وهنا يأتي السؤال الأساس: هل فهم البيان الرباني هو على مراد الله تعالى؛ ونحن مكلفون ببلوغ هذا المراد؟ أم على ما يفهمه البشر المكلفون من النص أيًا كان هذا الفهم؟

هل التزم محمد شحرور بالمنهج اللساني المعلن أم وظفه كمنهج معلن لإخفاء المنهج غير المعلن؟

لا يفترض بالباحث أن يثق بالمنهجية البحثية المعلنة عند كثير من الكتاب، كالحديث عن المنهجية اللسانية، أو القراءة المعاصرة للنص، إذ إن البعض يحسب أن هذه فروعًا تخصصيّةً من العلوم اللغوية أو الشرعية، ويظن أنها بحق لها قواعدها وضوابطها التي تَعاقَب عليها جهابذة العلوم والنقاد.

ومع صدمة الحداثة فإن الحديث عن قراءة معاصرة، يوقع في نفوس كثير من الناس شيئًا من الرهبة، أو الهالة التي تلف كثيرًا من التخصصات الأكاديمية، مما يرفعها عن البحث والمراجعة فضلًا عن المساءلة والنقد، على أن الأمر لا يعدو كون المنهجية المعلنة إلا ستارًا، يعمي العين الناقدة عن النفاذ إلى ما وراء ذلك الإعلان من منظومات خفية غير معلنة.

وعند مراجعة ما سطره شحرور عن منهجيته المبتكرة؛ كثيرًا ما يجد القارئ أن الكاتب نفسه لا يتحاكم إليها، وإن تحاكم إليها فإنها لا تنتج شيئًا مفيدًا، فما هي إلا مجرد شعارات تحمل من العلوم والمعارف اصطلاحها - لا مضمونها - وإن جعجعتها هي المنتج الوحيد لسالكها، وإن الحاكم الأصلي لآراء الكاتب، هي منظومة خفية لم يفصح عنها في منهجه، ولا صرح أنها هي مقصده، مع أنها الأشد تأثيرًا وظهورًا في منتجه المعرفي.

وقد تحدث شحرور مرارًا عن منهجية يسلكها في كتبه، وأخصها المباحث اللغوية، لكن الواقع أن كتبه حوت منظومات معرفية خفية، هي الحاكم الأوَّلي في ترجيح ما يصل إليه من آراء.. لذلك لا ينبغي الإسراع إلى تصديق شحرور في المنهجية التي يعلنها لنفسه مرارًا، فإن ذلك يؤدي إلى عدم القدرة على التنبؤ بما سيقوله.

والواقع أن الرجل لا يحتكم إلى أي إطار منهجي معلن، وإنما هو مجرد تلفيق لمنظومات معرفية متنوعة، يؤدي الأخذ بها بعين الاعتبار إلى الخروج بتفسيرات للنص تتماشى مع المفاهيم الغربية أو اللادينية عن الحياة، والتي كان شحرور قد جعلها مسبقا هدفه الذي يمشي نحوه، ولوى النصوص بوسائل شتى للوصول إليه، وبالكشف عن هذه المنظومات الملفقة يمكن للقارئ أن يرصد تحاكم شحرور إليها من كتاب إلى آخر من كتبه.

وعادة ما يجري الحديث عن منظومة واحدة خفية تكون وراء عدم التناقض، لكننا أمام مجموعة من منظومات متناثرة، تابعة لغيره؛ وليست من ابتكاره، حاول شحرور تمريرها، لتحكم معاني النصوص التي ينقضّ عليها بالتأويل، وقد كفى غيره عناء؛ إثبات أنها أجنبية عن النصوص نفسها باعترافه أنه تخلى عن التراث كاملًا، وبدأ من الصفر وإن طريقته جديدة معاصرة.

وتتكاثر المصطلحات في سطوره من صيرورة إلى سيرورة[١٦] إلى منع الترادف ومنع الحشو والسياق.. ونحو هذا، وهي عند التحقيق مجرد ألفاظ لها وقع رنينها في نفس السامع فقط، من دون أن يكون لها أثر موصل لمطلوب!

وهي غلاف لتسويغ المنظومات التي يحتكم إليها بطريقة غير واضحة، تلك المنظومات هي جوهر أطروحته، وما يعلنه من لسانيات ونحو هذا مجرد عَرَض، لذلك فإن الانشغال معه بالبحث في الباب المعلن، هو انشغال بالعرض عن الجوهر وبالهامش عن الأصل الذي يحكم سطوره[١٧].

المسألة الرابعة:
النظرية اللغويّة التلفيقيَّة تحت دعوى نفي الترادف

يعتبر نفي الترادف الأساس المنهجي الأكثر حضورًا في كتب شحرور، ويعتمد عليه بشكل كلي، إذ يخترق منهجه أفقيًا وعموديًا في تحديد معاني الألفاظ.

إن القول بعدم وجود الترادف في اللغة هو رأي أبي علي الفارسي، الذي وافقه فيه كل من ابن جني وعبد القاهر الجرجاني في دراسة الشعر الجاهلي، وقد اعتمد شحرور هذه النظرية ليصل من خلالها إلى نفي الترادف تماما عن القرآن، بحسب زعمه، يقول في ذلك: «التنزيل الحكيم خال من الترادف، في الألفاظ وفي التركيب، فاللوح المحفوظ غير

(١٦) انظر: القصص القرآني لشحرور ص ٤٤

(١٧) بتصرف يسير من كتاب «بؤس التلفيق» نقد الأسس التي قام عليها طرح محمد شحرور، يوسف سمرين، طبعة مركز دلائل السعودية ص ٨٠ - ٨١

الإمام المبين، والأولاد غير الأبناء، والفؤاد لا يعني القلب، وللذكر مثل حظ الأنثيين، لا تعني للذكر مِثلَا حظ الأنثى»[18].

على هذا الأساس، وهو غياب الترادف في اللغة وفي النص القرآني، قعد شحرور لمعان جديدة للكلمات فميز بين «القرآن» و«الكتاب» وبين «الذكر» و«الفرقان» و«أم الكتاب»، مع الإشارة إلى أنّ معنى الترادف الذي نفاه شحرور، هو وجود مفردتين أو أكثر بمعنى واحد.

لكن يظهر تلاعب شحرور في تترسه بقضية نفي الترادف في عدة جوانب:

إن علماء اللغة مختلفون في قضية الترادف بين من يثبته كسيبويه والفيروز آبادي، وبين من ينكره كابن فارس وابن جني والبيضاوي.

لكن الاختلاف بين علماء اللغة عائد إلى معنى الترادف.. وهل الخلاف راجع إلى علاقة الاسم بالوصف؟

وهذه مسألة ذكرها ابن فارس في (الصاحبي في فقه اللغة العربية) والغزالي في (المستصفى) وفي (معيار العلم) والفخر الرازي في (لوامع البينات في الأسماء والصفات)، فالسيف اسم والمهند والصارم والبتار هي صفات لها حيثياتها.

فالاسم ما دل على الذات دون معنى زائد، أما الوصف فهو ما دل على الذات مع زيادةٍ في الوصف، وعلى هذا فهل الاختلاف بين الاسم والأوصاف يفضي إلى عدم التَّشابُه التَّامّ في كل الأحوال بين معاني الكلمات التي يقال عنها مترادفة؟ أم هل ما يقال عنه ترادف؛ هو في حقيقته أسماء متعددة لمسمى واحد؟ ولكن كل اسم من هذه الأسماء يعطي معنى زائدًا أو ناقصًا للمسمى؟

وهذا ما يجعل الخلاف يكاد يكون لفظيا بين من يجعل الترادف عبارة عن تعدد الأسماء لمسمى واحد، وبين من يفرق بين الاسم والصفة، فيكون الاسم واحدًا والصفات متعددة، وهذا ما ينسف التكأة التي يتعكز عليها شحرور ليمرر منهجه البدعي؛ إذ إن اختلاف مبنى اللفظ يؤدي إلى اختلاف بالمعنى من حيث الزيادة فيه أو النقصان منه، وليس لاختلافه تمامًا إلى درجة التباين التام.

فكلمة العشق، والهيام، والغرام، والوَجْد، وإن كانت ألفاظًا مختلفة لكنها تؤدي إلى معنى واحد أصيل وهو التعلق العاطفي بالشيء المشهور باسم (الحب).

ويبقى التفاوت في وصف هذا التعلق ودرجته من خلال اختلاف اللفظ المعبر به عنه، يقول الأستاذ يوسف صيداوي[19] في ذلك: (إن القراءة المعاصرة – التي جاء بها شحرور قد تسللت من معنى الترادف، إلى باطل لا علاقة له بالترادف من قريب ولا بعيد، وذلك أن الأئمة الذين أنكروا الترادف، كأحمد بن يحيى وابن فارس وأبي هلال العسكري... لم يزيدوا على أن قالوا ما معناه: إن بين المترادفات فروقًا في الصفات، والصفة هي زيادة على المعنى الأصلي وليست معنى مستقلا بذاته).

مثال ذلك أن بين الحسام، والصارم، والمهند، والبتار، والفيصل، فروقًا في الصفات ولكنها جميعها إنما تدل على تلك الحدة، ولم يقل أحد من أهل اللغة إن الحسام غير المهند، والمهند غير السيف... إلخ.

أما القراءة المعاصرة التي جاء بها شحرور؛ فقد تسللت من هذا الذي أجمع عليه أئمة اللغة إلى حكم مرتجل لا أصل له! فقال شحرور: «الترادف خدعة، والمترادفان متغايران» وعليه فإن الكتاب غير القرآن والقرآن شيء، والكتاب شيء آخر، والفرقان شيء ثالث، والذكر رابع، وأم الكتاب شيء سادس.. (وهكذا هات فأسًا وخذ قطعًا) وهنا ندرك جوهر التلفيق الذي قام به شحرور، فأئمة اللغة الذين أنكروا الترادف قالوا: إن بين المترادفات فرقًا في الصفة، وأما شحرور فقال: إن كلًا من المترادفات يغاير صاحبه، فهذا شيء وهذا شيء آخر، فهل اللغة مجال للعبث واللعب، وهل تؤتى البيوت من ظهورها بهذه الطريقة التلفيقية في اللغة[20].

المسألة الخامسة:

الإيمان بالله تعالى حقيقة علمية أم مسلمة عقلية؟

يعتبر المهندس محمد شحرور «أن قضية الإيمان بالله تعالى واليوم الآخر، هي من المسلمات العقلية وليست حقيقة علمية»[21].

وعلى ذلك لا يمكن لقضية الإيمان بالله تعالى دحضها علميًّا، كما لا يمكن إثباتها علميًّا، ويرى المهندس شحرور أن قضية الإيمان بالله تعالى يستوي فيها ألبرت أينشتاين العالم الفيزيائي النووي، مع بائع الطعمية البسيط، مما يعني أن أذكى

(١٨) انظر بحث (العائد الحضاري والمعرفي في القراءة المعاصرة للقرآن الكريم) للباحث المغربي الحسن حما، ص ٧ صادر عن مؤسسة مؤمنون بلا حدود.

(١٩) يوسف الصيداوي، عالم لغوي سوري، وأديب مرب، وخبير بالموسيقا والأنغام، مجود وحافظ للقرآن الكريم ولد بدمشق عام ١٩٣٠ لأسرة شيعية فقيرة، وتوفي ٢٠٠٣ [المصدر ويكيبيديا].

(٢٠) انظر كتاب بيضة الديك، للدكتور يوسف صيداوي، ص ٦٢ طبعة المطبعة التعاونية.

(٢١) من لقاء على اليوتيوب
https://www.youtube.com/watch?v=aNGyJ^ehWkk.

الفلاسفة والأعرابي البدائي في قبول مسألة الإيمان بالله تعالى ورفضها سواء.

وبناء عليه يقرر محمد شحرور؛ أن الملحد الذي لا يؤمن بالله تعالى؛ لا يسأل يوم القيامة ولا يحاسب على هذا الاختيار العقدي، وإنما يُسأل المجرمون فقط، وبناء على نظريته في نفي الترادف فإن المجرم غير الملحد[٢٢]، قال تعالى: ﴿وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [سورة القصص: آية ٧٨] فالمجرمون هم أصحاب النار فقط وهم من كفر بالله وأساء لخلقه بحسب تعبير شحرور.

ولازم كلام المهندس شحرور من ذلك يقتضي؛ أن الله تعالى ليس له حجة علمية بالغة على عباده، وبذلك يكون الكافر والمؤمن بالله تعالى سواءً، لكن كيف يستقيم ذلك مع قوله تعالى ﴿فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٤٩].

ثم إن الآيات القرآنية صريحة في الدلالة على أن الإيمان بالله تعالى حقيقة علمية، منها قوله تعالى: ﴿فاعلم أنه لا إله إلا الله﴾ [سورة محمد: الآية ١٩]، ولم يقل الله تعالى: فسلم بقضية وجود الله تعالى تسليمًا، وإنما كان الأمر أن يسلك مسلك العلم، أي إقامة الدليل والبرهان القطعي الدال على هذه الحقيقة الكونية، والقرآن مليء بالآيات التي تجادل أهل الكفر والإلحاد بالاستدلال بالمخلوقات وإتقان صنعها على وجود الخالق وقدرته وكمال صفاته.

وهنا لا بد من تعريف العلم: إذ هو إدراك الحقائق على ما هي عليه بالدليل والبرهان.. والبرهان يمكن أن يكون برهانًا عقليًا كدلالة الالتزام، وبطلان الدور، وبطلان التسلسل، والعلة الغائية للخلق، وعدم وجود التناقض، وقانون السببية، ويمكن أن تكون البراهين مادية، كالتجريب والملاحظة، والمشاهدة، والإدراك بالحواس.

وبناء على قانون السببية فإن وجود الله تعالى – مبدعًا خالقًا للوجود – حقيقة علمية يوجبها العقل، وليس مجرد مسلمة نظرية؛ تقبل الأخذ والرد، وإلا فكيف يستقيم كلام شحرور مع قوله تعالى: ﴿ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولا﴾ [سورة الإسراء: الآية ٣٦] إلا إذا كان للعلم مفهوم آخر عند شحرور[٢٣].

إن النهي صريح في هذه الآية الكريمة عن اتباع أي قضية لم يقم عليها الدليل والبرهان العلمي، بما في ذلك قضية الإيمان بالله تعالى.

ماذا نفعل بهذا النص الصريح الواضح مع كلام المهندس شحرور؟ إن مقتضى كلام المهندس شحرور مع هذه الآية التي تنهى عن اتباع واقتفاء أي قضية لم يقم عليها البرهان العلمي (تعني أن الله تعالى ينهى عن الإيمان به إلها موجودا، ويجعل من الإيمان به شيئًا محرمًا) طالما أن وجوده مسألة لا يمكن إثباتها علميًا؛ ولا يمكن دحضها علميًا، كما يدعي المهندس شحرور.

> إن محاولة المهندس محمد شحرور نزع تلازم الإيمان عن العلم محاولة يائسة ترفضها النصوص القرآنية الصريحة، التي تجعل من الإيمان نتيجة حتمية للبرهان العلمي اليقيني.

وهنا نقف مع قوله تعالى ﴿شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [سورة آل عمران: آية ١٨]، في هذا النص الصريح نجد اجتماع ثلاثة شهود يشهدون بحقيقة واحدة، وهي: وحدانية الله تعالى ووجوده، هؤلاء الشهود هم الله تعالى، والملائكة، وأولو العلم.

الإيمان بالله تعالى حقيقة علمية أم مسلمة عقلية؟

فشهادة الله تعالى هي شهادة الذات للذات، وشهادة الملائكة هي شهادة معاينة لأنهم يسمعون كلام الله تعالى، وأما شهادة أولي العلم فهي شهادة استدلال، لأنهم استدلوا بآثاره على صفاته، وبصفاته على وجود ذاته، وليست هنا الشهادة من أهل العلم شهادة معاينة حسية؛ لأنها شهادة بالغيب، لكن قوة الأدلة العقلية على وجود الله تعالى، جعلتها وكأنها شهادة عيان، ماثلة أمامهم لا يمكن لأي عاقل إنكارها.

(٢٢) من لقاء على اليوتيوب، على قناة أبو ظبي، برنامج لعلهم يعلمون:
https://www.youtube.com/watch?v=PfL_vXo_٨G٧_.

(٢٣) المتضح من كلام شحرور أنه يتبنى مفهومًا مختلفًا للعلم يتوافق مع الرؤية الغربية التي تعتبر العلم هو ما يخضع لمدركات الحواس، ولكن كيف يفعل شحرور مع عشرات النصوص التي تتكلم عن العلم بمفهوم المدركات العقلية وليس المادية كيف سيصرفها عن ظاهرها وهو الذي لا يقبل بوجود الترادف في كلام الله تعالى؟

إن محاولة المهندس محمد شحرور نزع تلازم الإيمان عن العلم محاولة يائسة ترفضها النصوص القرآنية الصريحة، التي تجعل من الإيمان نتيجة حتمية للبرهان العلمي اليقيني.

ويرفضها العقل المنطقي السليم الذي يوجب وجود الله تعالى بناء على القوانين العقلية التي تثبت مسألة الإيمان بالله تعالى كحقيقة يقينية كبرى.

فالقرآن في جوهره هو ثورة على التقليد الأعمى، وتقديس الموروث الذي كان أهل الجاهلية يعتذرون به للبقاء على كفرهم وشركهم، وهم يعطلون عقولهم.

النتيجة:

إن المؤدى الذي يريد أن ينتهي إليه المهندس محمد شحرور، هو أن الإلحاد والكفر هو وجهة نظر اجتهادية، لا يحمل صاحبها أي مسؤولية أخروية عند الله تعالى، وبذلك يكون مؤدى الكفر والإيمان واحدًا في مآله الأخرويّ في الثواب والعقاب عند الله تعالى، وبذلك تبطل حكمة الرسالة، ويسقط معنى التكليف من أصله.

الخاتمة والنتائج:

- إن المنهجَ الذي اعتمده المهندس شحرور – في قراءته المعاصرة وبخلفيته الفكرية والفلسفية، وبآليّاته المنهجية الوظيفية – غيرُ قادر على قراءة النص القرآني بمفهوم القراءة التي يؤسسها القرآن نفسه بأبعاده المقاصدية.
- إن البحث في الدلالة المعجمية للمفردة القرآنية على طريقة اللسانيات المعاصرة من غير اعتبار الدلالات الشرعية غير وافٍ بهذا الغرض، على اعتبار الاختلاف الجوهري الموجود بين النص الأدبي والنص القرآني، وعلى اعتبار الفرق بين النص ذي المصدر البشري والنص ذي المصدر الرباني الإلهي.
- ما قدمه المهندس شحرور في قراءته المعاصرة لم يكن أكثر من تنسيق جديد للتفاسير القرآنية على أساس الانتقائية اللغوية لمعنى المفردات، فلم يقدم جديدًا غير الشكل، فكانت الأزمة في تلك المقاربات منهجية كما هو الشأن في معظم المقاربات التجديدية في الفكر الإسلامي، تهتم بالعناوين والشكل دون الغوص في الإشكال المنهجي.
- تبقى القراءة النَّسقيَّة هي القراءة الكفيلة بالوصول إلى كنه معاني القرآن، إذ إن اكتشاف أحكام آيات القرآن الكريم وتفصيلها، يتضح من خلال الدراسة البنائية للقرآن الكريم، الذي لا يُفصَل بين جزئياته وكلياته.
- إن المحاكاة الحرفية التي يقع في مصيدتها كثير من العلمانيين العرب والتقليد المنهجي عند استيرادهم لحركة التنوير الغربي – بنفس التحقيب التاريخي والأدوات الاجتهادية والمقاربات الفكرية بين الدين والعلم – يجعل من رواد حركة التنوير العربي مجرد أتباع حرفيين للغرب، يتكلمون من منطلق الانبهار والانهزام الحضاري.
- من المقرر عند علماء العقيدة أنه لا يمكن للنص الشرعي أن يخالف حقيقة علمية ثابتة، إلا إذا كان النص غير صحيح، أو الحقيقة العلمية ما زالت في طور النظرية الظنية، أو أن معنى النص غير صريح فيقع الخطأ في تفسيره، مما يجعل المعركة المفترضة عند أصحاب القراءة المعاصرة بين الدين والعلم منتهية.
- لا شك أننا بحاجة إلى القراءة التدبرية للقرآن الكريم الذي لا تنقضي عجائبه، وصحيح أن كثيرًا من التفاسير الجديدة تكرر نفسها وتجتر ما مضى من تفاسير وقراءات، ولكننا بنفس الوقت نحتاج قراءة منضبطة منهجيًا مع كليات الدين وأصول الشريعة، وليست القراءة الفوضوية التي تلوي أعناق النصوص وتؤول المحكمات وتنسف الثوابت وتعطل الفرائض وتستبيح المحرمات.
- القراءة المعاصرة التي يتبعها شحرور وأشباهه هي مرحلة تكتيكية للوصول إلى القطيعة مع النص، ربما لا يدرك المفتونون بأصحاب القراءة المعاصرة التأويلية للنص والوحي ما الفكرة الدافعة لأصحاب هذه الدعوة؟ وما هدفهم النهائي الذي ينطلقون إليه؟

وأنا هنا لا أحلل تحليلا، فقد وجدت حوارات محمومة بين شباب علمانيين متحمسين يريدون العبور بالشرق من القرون الوسطى إلى مرحلة عصر الأنوار والقطيعة مع التراث والنص بدون الحاجة إلى المرور بمرحلة الإصلاح الديني، التي يتمسك بها بعض حكماء العلمانية ودهاتها، الذين يرون أن كل محاولة من المثقفين العرب للقفز على مشكلة التراث من دون خوض معركتها والحفر فيها ستبوء بالإخفاق الذريع، ولا حل للمشكلة التراثية بزعمهم إلا من خلال خوضها بكل صراحة ووضوح، فلا يمكن العبور بالعالم العربي الذي يعيش بعقلية القرون الوسطى – حسب زعمهم – والقفز إلى عصر الأنوار دون المرور بعصر النهضة والإصلاح الديني، كما حدث في أوروبا عندما دشن مارتن لوثر بداية عصر الإصلاح الديني وقيام حركته الاحتجاجية البروتستانتية، ومن ثم انتقلت أوروبا إلى عصر الأنوار وصولًا إلى العصور الحديثة التي أوجدت القطيعة مع الدين والنص المقدس نهائيًا.

لهذه الأسباب يرى هذا الفريق من العلمانيين العرب الدهاة:

أنه لا مندوحة عن خوض معركة التراث، ولا بد قبل خوضها من تحضير السلاح المناسب لها؛ والأدوات المكافئة للمواجهة، وهو منهج أبستمولوجي، يخرج بقراءة جديدة للنص تنتهي إلى الالتقاء الكامل مع التطبيقات الغربية للحداثة، من خلال تفكيك بنية النص من داخله وإعادة تركيب معانيه من جديد.

من هنا كان البحث عن المناهج التي حاكم فلاسفة الغرب من خلالها نصوصهم المقدسة، وهو منهج اللسانيات وتاريخانية النص (الأنثروبولوجيا)، وهو المنهج الذي استورده أركون وشحرور من الغرب الذي عاش مأزقَ لا معقولية النص، ولا تسامحية المعتقدين.. فكان التأويل هو المخرج لعقلنة النص، وإرساء قواعد التعايش بين المؤمنين، ومن ثَمَّ إيجاد عقد اجتماعي علماني يضمن السلم الأهلي الذي خرج بأوروبا من الحروب الدينية المذهبية إلى عصر الحداثة.

وكل ما فعله هؤلاء الوكلاء المستوردون أنهم حاولوا تطبيق التجربة الأوربية على النص القرآني، بمحاكاة حرفية لما جرى في الغرب، وفي ذلك يقول أحد كبار العلمانيين المدعو هاشم صالح: (ما معنى أن أقول أنا إنسان متحرر تنويري؟ لا علاقة لي بكل هذا التخلف والتعصب، أنا ضد التراث المكرور والممل، لقد حللت مشكلتي مع الماضوية، وأصبحت ليبراليا أو ماركسيا أو ملحدًا، بل أنا شخص تجاوزت الحداثة إلى ما بعد الحداثة!!)، ثم يعلق على هذه المقولة فيقول: (هذا هراء ومراهقة فكرية)، إذ يعتبر كل هذا الكلام بلا معنى، إذا لم نخض معركة الماضي وإزالة الرواسب، لأنه – بحسب هاشم – لا معنى لأن أقول: (إن التراث الماضوي لا معنى له، إذا كان ثلاثة أرباع الشعب متعلقين به ويعيشون عليه).

هنا يقول جماعة القراءة المعاصرة: (إنه ينبغي المشي مع الشعوب خطوة خطوة، على طريق التحرير، لكي نصل بهم إلى نهاية المطاف وهو التأويل العقلاني للدين؟ وتصالح الإيمان مع العقلانية)[٢٤].

وهذا ما فعله فلاسفة التنوير في أوروبا، عندما دخلوا صراعًا مع الأصوليين المسيحيين، من داخل دائرة النص المقدس وليس من خارجه.

لكن الآن وقد وصلت أوروبا إلى العصور الحديثة، فقد تجاوزت معركة التراث والنص وانتهت منها، وصارت بالنسبة لها مسألة محسومة مقطوعًا بها.

من هذا الكلام نخلص لعدة استنتاجات:

- مدى ما يستنبطه العلمانيون العرب لمعركة العقل والدين التي وقعت في الغرب بين الفلاسفة والكنيسة، ومحاولة خوضها بحذافيرها في الشرق بين العلم والإسلام، على اعتبار أن المسلمين يعيشون في مرحلة القرون الوسطى، وأن مشكلة الشرق هي مع الإسلام، كما كانت مشكلة الغرب مع الكنيسة، مع أنه لا وجود لمفهوم الكنيسة والسلطة الثيوقراطية عند المسلمين ولا يوجد نص يقيد العقل والبحث والعلم في القرآن الكريم.
- إن القراءة المعاصرة للتراث والنص الإلهي، التي يدخل حلبتها بعض العلمانيين، هي بالنسبة لهم ليست أكثر من مرحلة انتقالية، وخطوة تكتيكية لهدف استراتيجي ومرحلة ضرورية لا بد منها لنقل المجتمعات المسلمة المتعلقة بالتراث إلى عصر الأنوار من خلال تأويل النص وليس تجاوزه، لأن تجاوز النص سيثير المجتمعات المسلمة على الحداثيين والتنويريين، ويحوِّل كل جهود التنوير والتحديث إلى هشيم، مما يؤدي إلى دخولهم في صراع مع المجتمع، ينتهي بكسب الظلاميين والمتطرفين الأصوليين للشارع، باعتبارهم حماة الأصالة والهوية هناك، وينتهي الأمر بالنكوص إلى الماضوية من جديد، وإجهاض دعوات التنوير، والإغراق في الظلامية والقرون الوسطى.

وللمزيد من المراجع التي تتحدث حول الموضوع:

١. كتاب (بيضة الديك) ليوسف صيداوي، وهو نقد لغوي لكتاب (الكتاب والقرآن)، المطبعة التعاونية، وقد تناول فيه أباطيل شحرور من الناحية اللغوية فقط كمتخصص في اللغة العربية.
٢. (الماركسلامية والقرآن) أو (الباحثون عن عمامة لدارون وماركس وزوجة النعمان، قراءة في دعوى المعاصرة) للمحامي محمد صياح المعراوي، طبعة المكتب الإسلامي.
٣. (تهافت القراءة المعاصرة) لمنير محمد طاهر الشواف، دار قتيبة للطباعة والنشر.
٤. (الإشكالية المنهجية في الكتاب والقرآن) دراسة نقدية لماهر المنجد، دار الفكر المعاصر.
٥. (بؤس التلفيق) نقد الأسس التي قام عليها طرح محمد شحرور، يوسف سمرين، طبعة مركز دلائل السعودية.
٦. (التحريف المعاصر في الدين) مكيدة الماركسية والباطنية المعاصرة تحت شعار قراءة معاصرة للنصوص الإسلامية، للمؤلف عبد الرحمن حسن حبنكة، طبعة دار القلم دمشق.

(٢٤) الانسداد التاريخي لماذا فشل مشروع التنوير في العالم العربي، هاشم صالح، انظر من ص ٤٣-٤٤ طبعة دار الساقي بيروت

الخروج من التيه

د. عبد الجواد حردان
مدرس أصول الفقه في جامعة صوتجو إمام كهرمان مرعش

أَشْهرُ متلازمةٍ ثلاثيةٍ في جدليَّة القادةِ والقاعدةِ يومَ الفزع: تلاومٌ وتقاذفٌ للمسؤولية وتنصل من تحمل التكليف الناجم عن ذلك اليوم وأعبائه وتبعاته، وأمَّا يومَ الطمع فالمغانمُ فرصةٌ ينتهزها أقوى الطرفين ليستبدَّ بها وينسبها إلى نفسه، وقلَّ أن تجدَ قويًّا يومئذٍ يعدل أو ينصف أو يكف عن الإجحاف، أمَّا العدل المطلق ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦] فكِفَّتاه توازن الحقوق والواجبات، أو المسؤوليات والمكاسب، أو التكلفة والعائد، وقلَّما تقعُ عينك يومَي الفزع والطمع على قادةٍ أو قاعدةٍ لهذا العدلِ مُذْعِنة، ولا على آذانٍ له صاغية، ولا على قلوبٍ لأحكامه وحِكَمه واعية؛ ذلكم أنَّ ثلاثية الغنم بالغرم، والخراج بالضمان، والرِّبح بالخسران، ليست بالحكَم الذي تُرضَى حكومته لدى جيل دأَبَ على الفرار من التبعات ورمي المسؤولية على طرف ضَعيف أو مجهول، وهو جيلٌ ضيَّعَ حقوقه يوم أن أنكر أو تنكر لواجباته لا سيما الكفائيّة منها، والأدهى الأمرُّ أن يعقبَ ذلك الجيلَ آخَرُ على شاكلته يدخل في أربعينات من التِّيهِ والعَماء التكليفي، هذا ما لم يكن فيهم أهل بصر وبصيرةٍ يدركون أهمية فروض الكفاية وعلوَّ رتبتها على فروض العين من وجهٍ، فيعملون على نشرها في كل ساح بكل سلاح؛ لينهض بها من لهم بها قوَّة بغيةَ الخروج من غياهب ذلك التِّيهِ، وشرطُ الخروج أن لا يتجاهل أحد من المستطيعين مسؤولياتِه براءةً أو إبراءً أو تبرُّؤًا، فِعْلَ النّعامةِ تغوص في بحر الرمال برأسها تتقي صيَّادها.

أمَّا بوَّابة الخروج من دُوَّامة التِّيه هذه ومن نفقِ تلك المتلازمة، فمفتاحُها كلياتٌ مستلهمة من هدي الأنبياء وفقه سيرهم وتاريخ أممهم؛ فمن وعاها ورعاها حقَّ رعايتِها غدتْ له بصرًا وبصيرةً تنبثق عنهما رؤيتان:

– **الأولى**: مستقبليةٌ ثاقبةٌ تُبقِي على هذا الراعي الواعي وإن كان في آخِرِ رمقٍ حتى يخرج من التيه سالمًا، هذا إن لم يغدُ فاتحًا غانِمًا وإن كان فردًا برأسِه قائمًا.

– **والأخرى**: آنِيّةٌ تقوم على إجراءين:

الأوَّل: فقه الواقع وقراءة أحداثه؛ ليستلهم منها القائدُ الدروس والعبر قبل أن يسدِّد ويرمي آخر سهم في جعبة آخرِ مقاتليه.

والآخَر: العملُ بانتظامٍ وَفْقَ آلية حكيمة محكمة مرنة متجددة؛ ليقوم القادةُ بتقييم مرحلي وتقويم مستمر بغيةَ جبر خلل التخطيط والأداء، ولِسَدِّ الثغرات وتعزيز الإيجابيات في ضوءِ جملةِ بيِّناتٍ، كلُّها مستلهمةٌ مما يأتي في هدي الرسل عليهم أتم الصلوات والتسليمات.

وأما أصل الداء الذي جعل تلك المتلازمة ضربةَ لازبٍ لفريق منا اليوم، فهو تغييب المسؤوليات في الأداء والممارسةِ القائمةِ على التخطيط، ناهيك عن غياب رجالها؛ فلا أحد يجهل أن المسؤولياتِ التي يعود نفعها على الأمة كلها فروضُ كفاية إن كان تركها مفسدة، وإلا فسُنن كفاية، أما المكلَّف بها فهم جميع من كانت لهم بها قوةٌ وأهليةٌ للقيام بذلك الفعل المطلوب ابتداءً، وإن سقط الطلب وارتفع الإثم انتهاء بفعل من تحصل به الكفاية في تحقيق المصلحة؛ وعليه؛ فإنَّ تكليف القاعدة بأعمال القادةِ هدرٌ للطاقات، وتضييع للتكليف وضياع للجيل والأمَّة، وتكليفٌ بالمحالِ أداؤُه على الوجه المطلوب، ولا أدلَّ على هذا وأبينَ من الحجرِ على طبيبٍ جرَّاح وتكليفِ الجاهل بإجراء عملية جراحية دقيقة لمريضٍ مشرف على الهلاك، ومنه تكليف المرأة بما لا يقوم به إلا الرجل، والعكس صحيح، ومنه أيضًا إيهام العامَّة أو توهمهم أنهم مكلَّفون بتنفيذِ مهامِّ السلطات الثلاث التنفيذية أو القضائية أو التشريعية؛ (إذ لا يَصح أن يُطلب بها من لا يبدئ فيها ولا يعيد؛ فإنه من باب تكليف ما لا يطاق بالنسبة إلى المكلف، ومن باب العبث بالنسبة إلى المصلحة المجتلبة أو المفسدة المستدفعة، وكلاهما باطل شرعًا)[1].

(١) الشاطبي: الموافقات، (١/ ٢٧٨ – ٢٨٠).

وليكن على ذُكرٍ منك أنَّ من ليست له بفروضِ الكفايةِ قوةٌ وقدرةٌ على أدائها لا يصحُّ القول بأنه غير مكلَّفٍ بها مطلقًا من كل وجه، بل يقع على عاتقه منها حِمْلُ الوزير، فهذا الفرض (واجب على الجميع على وجهٍ من التجوُّز؛ لأن القيام بذلك الفرض قيام بمصلحة عامة، فهم مطلوبون بسدها على الجملة، فبعضهم هو قادر عليها مباشرةً، وذلك من كان أهلا لها، والباقون -وإن لم يقدروا عليها- قادرون على إقامة القادرين)[٢]، وهذا يسري على المسؤوليات الكفائية كلِّها، فالإعدادُ العلمي والصناعي والتقني لحماية الأرض والعرض والدين أو التهيُّؤُ لذلكَ فرضُ كفاية على الطلاب، وكفايتُهم من كلِّ وجه والإنفاق على مشروعاتهم فرضِ كفاية على التجار، زيادةً على ما وجب عليهم من زكاة؛ فإنَّ في المال حقًّا سوى الزكاة.

أسئلة البحث:

يُجمِعُ الناسُ أنَّ للنصرِ في كلِّ ساحٍ وكِفَاحٍ ركنًا ركينًا هو القوة، وأنَّ لهذا الركن جناحين: أحدهما ماديٌّ والآخر معنوي، وقوامُ الماديِّ تلاحم القادة والقاعدة، ناهيك عن أنَّ لكلٍّ منهما مسؤولياتٍ ينجم عن الوفاء بها أو التقصير آثار تنعكس على الفريقين.

وأمَّا الفصل والوصل بين مسؤوليات القادة والقاعدة، ثم القول الفصل في أحوال التأثر والتأثير بينهما، وكذا مراتبه وصوره ودرجاته، فتتبين خيوطه في الإجابة عن الأسئلة الآتية:

١- ما أثر امتثال القادة وقيامهم بمسؤولياتهم على أداء القاعدة لِما وجب عليها من مسؤولياتٍ كفائية أو عينية؟ ولك أن تعكس السؤال، فالعكس وجيهٌ أيضًا.

٢- ما علاقة النجاح أو الإخفاق، والتوفيق أو الخذلان، والربح أو الخسران، والنصر أو الهزيمة، بتكامل الأداء أو قصوره من أحد الطرفين أو من كليهما؟

٣- ما الميزان العادل في قسمة الغُنم وتحمل الغُرم بين كلٍ من القادة والقاعدة؟

٤- ما الطرق القويمة لتعزيز المصالح والمكاسب والإيجابيات في حالة المغنم، ودرء المفاسد والتبعات والسلبيات في حالة المغرم؟

إنَّ في هَدْيِ القرآن وحديثه عن وقائع في أُمم خالية ومواقع لأقوام بائدة لَعِبَرًا وعِظاتٍ، في خباياها إشاراتٌ هادية إلى إجابة كافية شافية عن هذه الأسئلة، وإليك هذه الأجوبة في **مبحثين**:

المبحث الأول: أثرُ المسؤوليات على القادة والقاعدة، وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: مسؤوليات القاعدة وأثرها على القادة.

المطلب الثاني: مسؤوليات القادة وأثرها على القاعدة.

المطلب الثالث: التأثر والتأثير في مسؤوليات القادة والقاعدة.

المبحث الثاني: التقييم والتقويم.

وأكثر المصادر غِنًى بالدروس والعبر في هذا السياق كتبُ التاريخ وأخبار الأمم والملوك والسير والتراجم، ففي طياتها عظاتٌ وبراهين على مضامين ما طرح من قضايا في هذا البحث، وأما الدراسات السابقة فلم أقف على دراسةٍ قرآنيةٍ تُعنَى بموضوع البحث رغم كثرة مَنْ طرَق قضية المسؤولية فكريًّا وفقهيا وقانونيًّا وسياسيًّا واجتماعيًّا وأخلاقيًّا[٣].

المبحث الأول:
أثرُ المسؤوليات على القادة والقاعدة

من أصول الآخرة شخصنةُ الثواب والعقاب، أو الجزاءِ والعطاء، المترتبَيْنِ على أداء الفرد لمسؤوليات عينية لا يحملها أحد عن أحد، ولا تأتَّى فيها الشفاعة ولا الكفَّارة، وعدالة هذا الأصل الأخرويّ توحِي بأنَّه أصل شرعيٌّ دنيوي أيضًا، وهو كذلك فيما هو من فروض العين ابتداءً ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ [سورة البقرة: آية ٤٨]، وأمَّا ما هو من باب الفرض الكفائيّ فآثاره الدنيوية لا تقتصر على فرد بعينه؛ لأنَّ منافعَ أدائه قرينةُ مفاسد تركِه، وكلاهما عامٌّ، وكذلك ما يترتب على هذا الضرب من المسؤوليات من جزاء أو عطاء لا تقتصر آثاره على فاعله، وهذا هو الوجه الذي به ترجح كِفَّة مسؤوليات فروض الكفاية على فروض العين ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

وأول عقوبات التخلي عن هذه المسؤوليات الكفائيّة الاستبدالُ بينما القوم يطمحون للتمكين والاستخلاف، ورفعُ فاعلية الأسباب عن قاعدة الوهْنِ والخذلان بتجلي الله الجليل بعزَّته وجبروته وعدله، فإذا بالكثرة قلة كما في يوم حنين؛ هذا مع مضاعفة فاعلية هذه الأسباب لقادتهم بالثبات والإقدام، فإذا بالقلة كثرة، وإذا بعبد الله القائد المنكسر ينتصر، ويغدو جنده

(٢) المصدر السابق (١/ ٢٨٣).

(٣) المسؤولية الفردية في الإسلام: عدنان رضا النحوي، المسؤولية في الإسلام: عبد الله قادري الأهدل، المسؤولية الجماعية: النشمي.

المخذولون أعزَّةً مؤيَّدين بألوفٍ من الملائكة مُرْدِفين كما وقع يوم بدرٍ وفي الهجرة وتبوك وحنين؛ إيذانًا بأنَّ تخاذل القاعدة حجبَ عنها شرف التكليف الذي نيط بالقوم وقد أعجبتهم كثرتهم، وإعلامًا بأنَّ بذل الصاحبَين لأرواحهما في سبيل الله خرَقَ الحُجُب والعوائد ولا ثالث لهما يوم حنين، ولا يومَ الغار وقد كانا فردَين أعزلين، فذكَّر الله المنهزمين يوم تبوك وحنين بنصره لرسوله وصاحبه يومَي الهجرة وحُنين وهما وحدَهما في أشد حال عند لقاء العدوّ ﴿إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٩) إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ...﴾ [التوبة: ٣٩، ٤٠] ويومَ حُنَين ﴿فَأَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا..﴾ [التوبة: ٢٥، ٢٦].

المطلب الأول: مسؤوليات القاعدة وأثرها على القادة

لكل من التثاقل أو الامتثال والتكامل في باب المسؤولياتِ آثارٌ تنعكس على القادة والقاعدة أيًّا كان ذاك الذي نيطت به تلك التكاليف، فالفصل بينهما في باب التأثر والتأثير متعذِّر في الفروض الكفائية، ولهذه الدعوى شواهدها، ولا أجدى وأصدق من شاهدٍ في مشهدٍ القائدُ فيه أحدُ أولي العزم من الرسل، وردؤه أو نائبه من رسل الله أيضًا، والقاعدةُ أتباعٌ له وأصحابٌ، كانوا عبيدًا للاستبداد الفرعوني، فجعلتهم الحريَّةُ ملوكًا[٤]، وبالمُلك والنبوة فُضِّلوا على العالمين يومئذٍ[٥].

كانت أحداث ذاك المشهد مأساةً، لا تحيط بها وصفًا حبكةُ التراجيديا العصريَّة وسيلُ مآقيها المتدفق بدموع بواكيها؛ فمِن رحيل وتَرْحال إلى هجرةٍ دامت خمسة قرون ما بين فلسطين ومصر، لحِقَ فيها بنو إسرائيل عليه الصلاة والسلام أخاهم يوسف وزير تموين مصر يومئذ، وما زال فرعون وجنوده من القِبط يسومون بني إسرائيل سوء العذاب، يُقتِّلون أبناءهم، ويستخدمون نساءهم في المهن الشاقة، حتى منَّ الله عليهم ببَعثة موسى عليه السلام، وبعد حينٍ وأمدٍ مكر بنو إسرائيل بفرعون، استأذنوه للخروج إلى عيدٍ لهم لينجُوا منه، ولما وصلوا البحر بلغ فرعونَ الأمرُ فكاد يُدركهم، وزاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر، ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ﴾ [الشعراء: ٦٣] فكان ما كان يوم عاشوراء، وبنو إسرائيل ينظرون إلى عاقبة فرعون وجنوده، لقد رأوا من آيات ربهم ما رأوا، وها هم يرون ماذا أحل الله بأولئك بينما هم ينعمون ويرفلون بما منَّ عليهم به مكافأةً على صبرهم وثباتهم مع قائدهم ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا...﴾ [الأعراف: ١٣٧]، لكنهم ما إن جاوزوا البحر حتى هموا بعبادة الأصنام وكأنْ لم يمر بهم حدثٌ واعظ، لهم فيه غنى عن كل المواعظ، ثم توجَّهوا تلقاء بيت المقدس فإذا فيه قوم من الجبارين الحيثانيين والفزاريين والكنعانيين وغيرهم، فأمرهم موسى عليه السلام بالدخول عليهم لمقاتلتهم وإجلائهم عن بيت المقدس، لا سيما أنَّ لديهم مِنَ المقوِّمات والدلائل: النبوةَ، والملكَ أي الحريَّةَ من استعباد الفراعنة، والمِنَنَ الإلهيةَ مِنْ مَنٍّ وسلوى وظلال، وأفضليةً على أهل ذاك الزمان، فأبوا ونكلوا عن الجهاد؛ فألقاهم الله في تيهِ الأربعين، يسيرون ويحلون ويرتحلون ويذهبون ويجيئون[٦]: ﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللهُ لَكُمْ...﴾ ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا...﴾ [المائدة: ٢٠ - ٢٢].

في هذه الموقعة كان القائدُ الآمرُ بالجهاد وقتال الجبابرة لتحرير بيت المقدس رسولًا من أولي العزم، وخليفته أخوه هارون رسول أيضًا، فلا شبهة ولا مظنة، أمَّا القاعدة فهم قوم رأوا من معجزات هذا الرسول وقوته ما ينتزع من قلوبهم الرهبةَ إلا من القويِّ المتين سبحانه، لا سيما أنَّ الله نجَّاهم من طاغية العصر، بل أغرقه وهم ينظرون، وقد كانَ أشدَّ بأسًا وأكثر جمعًا وأعظمَ جندًا من أولئك الجبابرة، ناهيك عن أنهم رأوا آيات موسى التسع بأمِّ أعينهم، ورأوا هناك من قدرة الله الذي لا يعجزه الجبابرة، وكان الغمام يظللهم، والمنُّ والسلوى طعام لذيذ لهم بلا كدٍّ ولا تعب، فماذا دهاهم ليجبنوا وموسى نبي الله قائدهم؟! وما زالوا ناكلين حتى وافت المنيةُ نبيَّ الله موسى في التيه، فسأل اللهَ أن يُدنيه من بيت المقدس رمية بحجر، وكأنَّه كان يأمل أن يخرجوا من التيه المعنويِّ بعد مضيِّ الأربعين، أو أنْ يهلكوا ويُخرج الله من أصلابهم جيلًا على هدي النبوة؛ لذا ردَّ ملَكَ الموت إذ جاءه قابضًا، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: ((أُرسل ملك الموت إلى موسى عليه السلام، فلما جاءه صكَّه، فرجع إلى ربه، فقال: أرسلتني إلى عبد لا يريد الموت...))[٧]، ولما رأى موسى عليه السلام أنَّ القيادة في أعلى رتبها وأكملها لم تكن لتنفعَ والقاعدةُ في الحضيض رغمَ كثرتها، عندئذٍ أجابَ عليه السلام ربَّا دعاه، وفارق قاعدةً رضيت بالقعود، وكان من أسوأ أوصافها النكران والتنكُّر والجحود: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤].

وكان الملأ منهم من جملة الخوالف كما الرعاع، ولم يَرْفع نعتَ القواعد والخوالف عن هذه القاعدةِ أنْ كان فيها رجلان صالحان من النقباء الاثني عشر -يقال إنهما يوشع بن نون

(٤) تفسير الطبري: رقم (١١٦٣٦)، (١٠/ ١٦٣).

(٥) تفسير ابن كثير (١/ ٢٥٥).

(٦) ابن كثير: قصص الأنبياء، (٢/ ٩٦-١٠٢).

(٧) صحيح البخاري (١٣٣٩) (٢/ ٩٠)، صحيح مسلم (٢٣٧٢)، (٤/ ١٨٤٢).

وكالب بن يوفنا-، أرشداهم إلى بابٍ ينهزم منه الجبابرة، وأشارا عليهم بالإقدام وتوكُّل المؤمنين، ونهياهم عن الإحجام وهلَع الكافرين: ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣] أي إذا لجأتم إليه أيَّدكم عليهم وأظفركم بهم، لكنهم نكلوا وأعرضوا عن نصحهما، وخذلوا نبيهم، وقد قصَّ الطبريّ من أخبار خذلانهم قَصصًا عُجابًا[٨]، وما أغنى النَّقيبانِ عنهم من الله شيئًا؛ فوقع أمر عظيم ووهنٌ كبير في القاعدة، وما كان أمام القائد إلا أن يُعلِنَ إقدامه وإن خذلَتْه القاعدة؛ وفاءً منه لمقتضَى مسؤوليته، وبراءةً مما لا طاقة له به من أمر القوم: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [المائدة:٢٥].

وما قيل من أنه لم يخرج أحد من التيه ممن دخله، وأنهم ماتوا كلهم في مدة أربعين سنة، ولم يبق إلا ذراريهم ويوشع وكالب: يعضدُ القول بأنَّ القاعدة إنْ لم تتغير سِماتها تُغيِّرْ هي ذاتها، وإنْ لم تُبدِّلْ أوصافها تُستبدَلْ ذواتُها ﴿إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا﴾ [التوبة: ٣٩]، وفي سورة القتال ما يوثِّق هذا القولَ ويؤكِّد هذا الوعيد، ففي سياق تكليف الموسرين بالإنفاق على المجاهدين خاصَّةً ماديًّا أو معنويًّا ترى الذين غُلَّت أيديهم قد طالَهم هذا الوعيد: ﴿وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ [محمد:٣٨].

صحيحٌ أنَّ موقفَ الرجلين الصالحين لم يكن ليأتي بالفتح، ولا ليرفع المسؤولية وتبعاتها عن القاعدة؛ لأنَّ كُلًّا من الملأِ والرّعاع ماضون في النكول عن الجهاد، إلا أنَّ جاهزية رجلَيْنِ اثنين من القوم كان لها ما لها في تربية الخلف والاعتبار بالسلف بعد رحيل رسل قادةٍ، لم تبرح أعينُهم النظرَ إلى الجيل الجديد أملًا في بلوغ رسالاتهم إلى غاياتها، بل قيل: إنَّ الله منَّ على أحد الرجلين -وهو يوشع-، فاتخذه نبيًّا خلفًا لموسى وهارون في حمل رسالتهما؛ فالنبوة وإن لم تكن مكتسبة إلا أنَّ أفرادًا صالحين من بني إسرائيل قد أدركتهم رحمة الله؛ مكافأةً لهم ولسلفهم من الرسل القادة، ورحمةً بجيل واعٍ يخلف القاعدة التائهة، فمنَّ الله عليهم بمحض فضله، وجعلهم قادةً أنبياء، يحملون رسالة من سبقهم من رسل الله إليهم ليبلغوا بها الهدف المنشود، أمَا وقد انقطعت النبوة في أمة أحمد صلى الله عليه وسلم فإن علماءها المجددين الربانيين يقومون بما كان يقوم به أنبياء بني إسرائيل في قيادة القاعدة.

إنَّ في هذا لبرهانًا على أهمية ثنائية الإعداد للخروج من التيه: صلاح الفرد من حيث كونه ركنًا في القاعدة، وتجهيزه أو جاهزيته للإصلاح من حيث إنَّه قد يؤهَّل ليُكلَّف بأعمال القادة، والمراد جاهزيةُ بضعةِ أنفارٍ أو رهطٍ أو فردٍ أو اثنين للنهوض بالمسؤوليات التي فرَّطت فيها القاعدة، فقوة الصلاح والإصلاح الفردية هذه وإن كانت لا تكفي ولا تغني عن القاعدة الضالَّةِ إلا أنَّ لوجودها أهميَّةً بالغةً؛ من أجل تربية قاعدةٍ تاليةٍ وإصلاحها وصلاحها وتأهيلها وجاهزيتها لما يُناط بها من مسؤوليات، فهذا الفردُ وإن لم يغنِ عن الأسلاف الهالكين شيئًا لكنه ركنٌ متين وأصلٌ مَكين لإعدادِ جيلٍ جديد يخلف أولئك؛ فبه تتأسس قاعدةٌ تَعتبر بأسلافها، وتمضِّي على هدي القلَّةِ الشاكرةِ أمثالِ يوشع بن نون وكالب بن يوفنا اللذين رفعا بنيانَ قاعدةٍ خلفَتْ جيل التيه الهالك، وحرَّرَتْ بيت المقدس، والفضلُ للفرد القائد الذي حرَّر جيل التحرير هذا، فنجوا به من التيه في حين أن قوم لوط عليه السلام هلكوا عن بَكْرةِ أبيهم بما قدمت أيديهم، واندثروا كأمس الدابرِ؛ لأنَّهُ لم يكن فيهم فردٌ رشيدٌ قائد على هَدي نبيهم يهدي ذراريهم إلى رأي سديد وصراط قويم: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾ [هود: ٧٨] أي شديد يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر[٩]، فما نجا منهم أحد سوى نبي الله وأهله، فأنت ترى أنَّه لما لم يكن فيهم فردٌ رشيد يخلفهم لهداية الجيل الجديد، غرِقت القاعدة التائهة وذراريها.

هذا وكان من الممكن نصر جيل التيه على الجبابرة، وتحرير بيت المقدس على أيديهم بمعجزة إلهية لموسى عليه السلام، كما وقع عندما نجاهم وأغرقَ عدوَّهم فرعونَ وجنوده، لكنَّ الأصلَ أن تمضي سنن الله في التمحيص والمَحْق وصراع الباطل والحق، ما لم تدعُ الضروراتُ في حالات الصراع على البقاء والفناء كما كان الأمر قبل الغرق؛ ذلكم أن نصرًا باردًا كهذا فيه تعطيل لتلك السنن القائمة على التكاليف والتبعات وتحمل المسؤوليات مِن كل الجهات ومن القادة والقاعدةِ معًا، وإذا شئت أن تتبين قيمة هذا النصر البارد من وجهٍ أعمق فهبْ أنَّ وزيرًا أو رئيسًا اعتاد أن يختلس أسئلة الامتحانات وسُلِّم التصحيح في مراحل الدراسة كلها ويسرِّبها لولده، فهل ترى لنجاح ذلك الولد أو تفوقه الموهوم من معنًى؟ وماذا يتوقَّع أن يؤمِّلَ كلٌّ من الوالد والولد لمستقبل الطالب وأمَّتِه؟ وهل لتلكم الشهادات الخاوية من عائدٍ وما كان لها من تكلفةٍ؟!

لقد ظهر في هذا المشهد تأثير القاعدة السلبية رغم التسليم بكمال القيادة الموسوية، ويكأنَّ القاعدةَ تسعى لتُحرِج القيادةَ بالعجز أو التعجيز! جهلًا أو تجاهلًا من هذه القاعدة لمعجزات موسى عليه السلام التي شهدها القومُ بأمِّ أعينهم يوم نجاتهم

(٨) تفسير الطبري (١٠/ ١٧٥).

(٩) تفسير القرطبي (٩/ ٧٧).

من فرعون وجنوده ﴿وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ﴾ [الشعراء: ٦٦] فكان ما كان، ومضت عشرات السنين، والقاعدة أتباعًا ومتبوعين في طغيانهم يعمهون، وكُبَراؤهم في غَيِّهم يَمُدُّون، فأضلوهم السبيل حتى مات أكثرهم في سنوات التيه ضالِّين أو مُضلِّين، بل لقد لحق بربِّه كلٌّ من نبي الله موسى وأخيه هارونَ؛ وسائرُ القوم في غياهب التيه سادرون، ولا يزالون!

إنَّ نهاية التراجيديا هذه لن تُخطئها عيناك وأنت تقرأ قصة نوح وسفينته، وما آل إليه أمر قومه وأقاربه، وليس عنها ببعيد قصة إبراهيم وشعيب وهود وصالح عليهم السلام.

ولا يخفى أنَّ لخذلانِ القاعدة للقادة آثارًا لازمةً قاصرةً وأخرى متعدية شاملة، وهذا شأن آثار فروض الكفاية كلها، ولا أعدل لأفراد القاعدة من أن يَزِنوا مصالحهم ومفاسدهم الخاصة بميزان القائد ذاته، فإذا كان القائد في الصدارة يفدي قاعدته بأغلى ما يملك فما بالك بها عندئذٍ؟ لكنَّ الذي لا يغيب عن خَلَد متأمِّل لهذا السياق أنَّ لأهواء النفس نزعةً تميل بالقاعدة إلى القعودِ والتخلفِ، وإيثارِ سلامة أفرادٍ منها على سلامة القائد وإن كانت حياتُه حياةً للأمة، وتتغذَّى بأهواء المرجفين ممن مردوا على النفاق، ويشتدُّ عَصْفُ هاتيكَ الأهواء إذا كان إيمان فريق من القاعدة ضعيفًا تزلزله الرغبات، فتخور القلوب في ساعة العسرة أو تهوي أمام هوى النفوس، بل ربما تكادُ تَضِلُّ وتزيغ، وفي غزوة تبوك مشاهد فيها شواهد يُحتَجُّ بها لهذه الدعوى.

وما من شيءٍ أنجع لفئة كهذه من إيقاد جذوة إيمانها؛ لمناشدة تقواها، ودعوتها لملازمة الصادقين، بعيدًا عن المرجفين ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾ [آل عمران: ١٦٨] فذانِكَ الرِّدْءانِ لدى أهل الإيمان: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩] درعانِ واقيان من القعود في مواطن البأس؛ ولهذا خُتمت بهما جملةٌ من المواعظ التي سيقت في حديث الثلاثة الذين خلِّفوا، وحريٌّ بالذِّكر أنه إنْ خوطِبَ بهذا العامَّةُ من القاعدة؛ فصَفْوتُها وعقلاؤها أعنَى وأخصُّ، وهذا سرُّ تقديم القرآن للمتخلفين من أهل المدينة على الأعراب وهو يعرِّض بهم، ويُثني على من حضر تبوك منهم قادةً وقاعدة، أغنياء وفقهاء: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ﴾ [التوبة: ١٢٠ - ١٢٢] ولعلك لحظتَ أنَّ صدر الآية لم يُقدِّم فيه أولئك الأعراب الذين لم يبلغوا مبلغ سراة أهل المدينة في الرَّشَد، بل عُطفوا عليهم تَبَعًا، فالقاعدة نفسها درجات في سُلَّم التكليف والتَّبِعات وَفْقًا لطاقات أفرادها وإن استووا في أصل التكليف.

وأمَّا التأثير الإيجابيُّ لتحمل القاعدة لمسؤولياتها على أداء القيادة ولو صوريًّا، فليس رصده عليك بعسير، وهو في صدر الإسلام كثير، وإنك لتراه بجلاء في مشهدٍ مماثل مقابل للمشهد التراجيدي الذي آل إليه أمرُ بني إسرائيل من قَوم موسى عليه السلام، فهو أبينُ من أن يبيَّنَ لجلائه وصَراحته، روى الشيخان وأحمد والحاكم مختصرًا، وابن هشام مطوَّلًا عند ذكره لليوم الذي خرج فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم يعترض عيرًا لقريش، ولم يكن قد خرج للقتال، قال: (أتاه الخبر عن قريش بمسيرهم ليمنعوا عيرهم، فاستشار الناس، فقام أبو بكر الصديق، فقال وأحسن، ثم قام عمر بن الخطاب، فقال وأحسن، ثم قام المقداد بن عمرو فقال: يا رسول الله، امض لما أراك الله، فنحن معك، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤] ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، فو الذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم خيرًا ودعا له به، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أشيروا علي أيها الناس - وإنما يريد الأنصار - فقال له سعد بن معاذ: والله لكأنك تريدنا يا رسول الله؟ قال أجل، قال: امض يا رسول الله لما أردت فنحن معك، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر، فخضته، لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدًا، إنا لصُبُرٌ في الحرب، صُدُقٌ في اللقاء، لعل الله يريك منا ما تقر به عينك، فسِرْ بنا على بركة الله؛ فَسُرَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بقول سعد، ونشَّطه ذلك، ثم قال: سيروا وأبشروا)[١٠] ولفظ مسلم أبلغ: (والذي نفسي بيده، لو أمرتنا أن نخيضها البحر لأخضناها، ولو أمرتنا أن نضرب أكبادها إلى برك الغماد لفعلنا، قال: فندب رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس، فانطلقوا حتى نزلوا بدرًا)[١١].

كانت أحداث هذا المشهد كلّها قُبَيل قرار النفير للجهاد كما ترى، وأبلغ ما في هذا المشهد أن امتثال أمر القيادة كان ميدان سباق وغبطةٍ واقتراع بين القاعدة، عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال عن الموقف المقدام للمقداد: ((شهدت منه مشهدًا، لأن أكون صاحبه أحبَّ إلي مما عدل به...؛ «فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم أشرق وجهه، وسرَّه» يعني قولَه))[١٢] فأنت ترى أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم ما أقدم ولا سار بجيشه إلا بعد أن رأى منهم صدقًا وعزيمةً ووفاءً وثباتًا، بعَثَ لديه الطمأنينة بأنَّ القاعدة صلبة راسخة صالحة للإطلاق والانطلاق؛ فانطلق.

---

(١٠) ابن هشام: السيرة النبوية (١/ ٦١٤)، مسند أحمد (٣٦٩٨)، (٦/ ٢٢٧)، قال المحقق: إسناده صحيح على شرط البخاري.

(١١) صحيح مسلم: (١٧٧٩)، (٣/ ١٤٠٤).

(١٢) صحيح البخاري (٣٩٥٢)، (٥/ ٧٣).

وهذا الذي رأيتَ كان إيذانًا بأن هذه القاعدة لا تعرف معنى القعود، وأنَّ أبناءَها باذلون من أنفسهم وأموالهم أكثر مما قطعوه على أنفسهم يوم بيعة العقبة من وعود وعهود.

المطلب الثاني: مسؤوليات القادة وأثرها على القاعدة

أما أثر التزام القائد بمسؤولياته على القاعدة، فلا أجلى منه ولا أدل عليه من ثبات الرسول صلى الله عليه وسلم يوم حنين أمام آلاف المشركين، ولم يكن معه سوى أبي بكر أو بضعة أنفار على رواية ترجحها صيغة الجمع للفظ «المؤمنين» في هذه الآية: ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ * ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ [التوبة: ٢٥، ٢٦].

لقد غفلت القاعدة يومئذٍ عن أن الناصر هو الله عز وجل لا كثرة العَدد والعُدد، وقد كانوا يومئذ اثني عشر ألفًا، وعدوهم أربعة آلاف، فقالوا: (لن نغلب اليوم من قلة)، ولما تسامت الخيلان كانت الجولة لهم، ثم ولوا مدبرين كما قال الله تعالى، اللهم إلا رسول الله وثلة معه نزلت عليهم السكينة، وملائكة على خيل بُلْق يقاتلون في صفهم في حرب بقاء أو فناء؛ فثاب الناس إلى رسول الله لمَّا رأوا منه رسوخ الجبال، وسمعوا منه هديرَ النِّداء وَوَجِيْبَ الدُّعاء، وألفَوْا داعي النجدة والغوث والاستغاثة لا يستثني أحدًا، عن أبي قتادة قال: (خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم عام حنين، فلما التقينا كانت للمسلمين جولة، ثم انهزم المسلمون فانهزمت معهم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين رأى من الناس ما رأى: ((يا عباس، ناد: يا معشر الأنصار، يا أصحاب الشجرة)) فأجابوه: لبيك لبيك، وأقبل أصحابه إليه سراعا يبتدرون، فجعل الرجل يذهب ليعطف بعيره، فلا يقدر على ذلك، فيقذف درعه عن عنقه، ويأخذ سيفه وترسه ثم يؤم الصوت، حتى اجتمع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم مائة، فرفع يديه إلى الله يدعوه ويقول: ((اللهم إني أَنشُدك ما وعدتني، اللهم لا ينبغي لهم أن يظهروا علينا))، فاستعرض الناس فاقتتلوا، وقبض قبضة من الحصباء، فحصب بها وجوه المشركين ونواصيهم كلها، وقال: ((شاهت الوجوه، انهزموا وربِّ محمد))، فوالله ما هو إلا أن رماهم بحصياته، فما زلت أرى حدَّهم كليلا وأمرهم مدبرا[١٣]، ووالله ما راجعه الناس إلا والأسارى عند رسول الله صلى الله عليه وسلم مكتفون)[١٤].

وروى البخاري عن البراء أن رجلًا من قيس سأله: ((أفررتم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين؟ فقال: لكن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يفر، كانت هوازن رماة، وإنا لما حملنا عليهم انكشفوا، فأكببنا على الغنائم، فاستُقبلنا بالسهام...))[١٥] قال البراء: ((ثم نزل فاستنصر وهو يقول: اللهم نزِّلْ نصرك)) ولقد كنا إذا حمي البأس نتقي برسول الله صلى الله عليه وسلم، وإن الشجاع الذي يحاذي به[١٦].

فأنت ترى أن النصر كان من عند الله بثبات القائد الرسول المقدام صلى الله عليه وسلم وبدعائه وتضرعه وابتهاله، وأنَّ الذين انهزموا وهم ألوفٌ مَا ردَّهم ولا ثبَّتهم إلا ثبات القائد صلى الله عليه وسلم وحماسه، وتذكيره لهم بفضائلهم بصيغة النداء مستثيرًا ما فيهم من المشاعر والضمائر والشهامة والإيمان وفضيلة بيعة الرضوان، يناديهم بتلك الصفات وهو يدعوهم للثبات كما ثبت في روايات أخرى مفصَّلات، فظهر عِيانًا ما للقائد من أثرٍ على القاعدة.

المطلب الثالث: التأثر والتأثير بين القادة والقاعدة

أما التأثر والتأثير الإيجابي المتبادل بين القادة والقاعدة في الموقف نفسه، فيشهد له ثبات القائد الأعظم صلى الله عليه وسلم وقلَّةٌ من أصحابه يوم أحد، وهو يوم مشهود، وليس عن مشهد حنينٍ ببعيد؛ فالمقتلة كانت عظيمة عقب التفاف خالد بن الوليد وكتيبته من خلف جبل الرماة، وأشيع أن القائد الأعظم قد قُتل - وللأراجيف أفاعيلها في صفوف القاعدة - فانهارت قوَى القاعدة، واستسلم فريق منها لمصيره، وتكالب المشركون عليه صلى الله عليه وسلم يريدون قتله، وهو صامد لم يغادر أرض المعركة، بل إنَّ المشركين هم الذين غادروها أوَّلًا، وأكثر من ذلك كان: لقد همَّ بالسير إليهم ومناجزتهم لو أنهم غادروا أحدًا قاصدين المدينة؛ فثبت بعض القاعدة بثبات القائد الأعظم صلى الله عليه وسلم، وتحلقوا حوله، وجعل بعضهم من جسده درعًا يصد عن النبي صلى الله عليه وسلم النبال والسهام، منهم سعد وأبو دجانة ومصعب وأنس بن النضر وحمزة رضي الله عنهم، وفاءت إليه فئة ممن فرُّوا، كلُّ ذلك بفضل ثباته صلى الله عليه وسلم وثبات فئةٍ معه: (عن الزبير قال: مالت الرماة عن العسكر حين كشفنا القوم عنه، يريدون النهب، وخلَّوا ظهورنا للخيل، فأُتينا من أدبارنا، وصرخ صارخ: ألا إن محمدًا قد قتل، فانكفأنا وانكفؤوا علينا، فانكشف المسلمون حتى خلص العدو إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين غشيه القوم: ((من يشتري لنا نفسه؟)) فقام زياد بن السكن في خمسة نفر من الأنصار، فقاتلوا دون رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلًا فرجل، فيقتلون دونه، حتى كان آخرهم زياد بن السكن أو عمارة بن زياد، فقاتل حتى أثبتته الجراح، ثم فاءت فئة من المسلمين، فأجهضوهم عنه، فقال

(١٣) صحيح مسلم (١٧٧٥)، (٣/ ١٣٩٨).

(١٤) ابن كثير: السيرة النبوية (٣/ ٦٢١-٦٢٩)، والخبر عند الشيخين وأحمد والبيهقي وأبي داود بألفاظ وزيادات من طرق مختلفة.

(١٥) صحيح البخاري، (٤٣١٧) (٥/ ١٥٣).

(١٦) ابن كثير: السيرة النبوية (٣/ ٦٢١-٦٢٧).

رسول الله صلى الله عليه وسلم: أَدْنُوه مني، فوسده رسول الله صلى الله عليه وسلم قَدَمَه، فمات وخدُّه فوق قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فبينما رسول الله صلى الله عليه وسلم في الشِّعب معه أولئك النفر من أصحابه إذ علت عالية على الجبل، فقال رسول الله: إنه لا ينبغي لهم أن يعلونا، فقاتل عمر بن الخطاب ورهط معه من المهاجرين حتى أهبطوهم عن الجبل، ولما انصرف أبو سفيان ومن معه بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقال: اخرج في إثر القوم، فانظر ماذا يصنعون وماذا يريدون، فإن كانوا قد جنبوا الخيل وامتطوا الإبل فإنهم يريدون مكة، وإن ركبوا الخيل وساقوا الابل فإنهم يريدون المدينة، والذي نفسي بيده لئن أرادوها لأسيرن إليهم فيها، ثم لأناجزنَّهم، قال عليٌّ رحمةُ الله عليه: فخرجت في إثرهم أنظر ماذا يصنعون، فلما جنبوا الخيل وامتطوا الابل ووجهوا إلى مكة، أقبلت أصيح، ما أستطيع أن أكتم ما أمرني به رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ لِمَا بي من الفرح إذ رأيتهم انصرفوا عن المدينة)[17].

لم يُذكر ثبات القائد هنا إلا ذُكِر معه ثبات تلك الثلة الباسلة؛ فنجم عن ثباتهم أنْ فاءت فئة من الذين فروا من ساح أحد، وكان ما كان من بطولات أسطورية من أشهرها ملحمة أنس بن النضر[18]، لقد اتخذوا من أجسادهم دروعا تَقِي القائد الأعظم الصامد الثابت في قلب الميدان بعد أن تواثب المشركون على موقعه، وشاعت الأراجيف بأنه قد قتل، وألقى قوم سلاحهم.

وفي هذا السياق لعل أقرب مشهدين في التاريخ الحديث هما ما برهن عليهما الدوران العكسي لحركة السيرورة المصرية؛ فبينما الرئيس المصري المنتخب عام ٢٠١٢م يظنُّ أنَّه يمضي بِحُصُنِ المحرِّك وعجلاته قُدُمًا إلى الأمام بدرجة قوة الطرد المركزي، كانت القاعدة وجُلُّ دول العالَم معها يعطِّلون حركته سوقًا بل زجًّا ودفعًا إلى الخلف بقوة الدفع المركزي؛ وجاء الانقلابيون على إثْرِه، فانقلبت الأمور رأسًا على عقب، فمنذ سلْخ ٢٠١٣م ولصوص العصابة الانقلابية يجرُّون حُصُن المحرِّك، ويدفعون عجلاته إلى الوراء، والحاصل أنَّ مصر في المشهدين ارتدَّت على أعقابها، فمصرُ لم تَعُدْ مصرًا.

المبحث الثاني:
التقييم والتقويم

المحاسبةُ والحسبة والنهيُ عن المنكر، والعدلُ والنَّصفةُ وتقويمُ الأداء، كلُّها منطلقاتٌ تحمِلُ القادة والقاعدة على تحمُّل كلِّ تبعاتِ مسؤولياته دون مساءلةٍ من أحد، وتقتضي إنصافَ المحسن وتركَ المقصر ونفسَه تلومه ويلومها، وتستلزمُ العمل على جبر الخلل وإكمال النقص، وتوجِبُ تدارك القصور في التخطيط والتنفيذ، وتحمل على تعزيز مواطن القوة واستشراف المستقبل؛ أما وَحْدة الصف ورص الصفوف ورفع أسباب الشقاق والنزاع وتأليف ضعفاء القلوب فالأقربُ لتحقيقها تقاسمُ المغنم والمغرم، والمواساة ونبذ التلاوم، والإعراض عما كان إلا بقدر الاعتبار منه لِمَا سيكون.

لم يُعهَدْ عن نبينا صلى الله عليه وسلم في حياته الخاصة أو العامة ولا إثر الحروب والأعمال العِظام أنَّه لام أحدًا من القاعدة المخلصة، أو وبَّخ أو بكَّت فردًا منهم أو جماعة على نحو يترك في النفوس جراحًا، يتعذر تضميدها ويطول تماثلها للشفاء، وإنما كانت الدروس والعبر تُستقى منه في تلك المواقف دون أن يلجأ لتعنيف أحدٍ أو مسِّ مشاعره بنظرة أو كلمة، ناهيك عن التجريح وإعمال سيف الملامة وسهام نظرات الشَّزْر والازدراء، فيوم مؤتة رغم أن المسلمين ثلاثة آلاف وعدوهم نحو مئتي ألف[19] كان الناسُ للجيش يلومون وإياه ينادون: يا فُرَّار، فررتم في سبيل الله! بينما كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول: بل أنتم الكرار بل أنتم العَكَّارون، أي: العائدون إلى القتال والعاطفون عليه[20]، ولعل المعنى الذي أثنى عليهم به النبي صلى الله عليه وسلم هو الذي حمل الزهري على عدِّ ثباتهم فتحًا، رغم أنهم لم يفتحوا مِصْرًا ولا قرية، والفضل لاستراتيجية خالدٍ وعوده الحميد: لا غالب ولا مغلوب[21]، وإن كان الصحابة في المدينة لَيَعُدُّون الإخفاق في الفتح فرارًا.

وأما يوم أحدٍ فإن في هول الموقف ما يغني عن لوم القاعدة وعتابها، بل إنَّ في الآيات الكريمة لَعِبَرًا شافية، وفيها سيفُ ملام وافٍ كافٍ لمن يُنعمُ النظرَ في وصفِها للموقف بالجبنِ والتنازع والعصيان والميل للدنيا ومغانمها، ثم يُمْعِن في تقييمها له بالهزيمةِ بعد الظفر، وبالإيغال في الفرار والبعد عن أرض المعركة والتخلي عن نصرة رسول الله بينما كان صدى ندائه يدوِّي في مسامعهم، يدعوهم للكَرِّ والثبات: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٣] قال ابن كثير: (﴿إذ تصعدون﴾ أي: في الجبل هاربين من أعدائكم ﴿ولا تلوون على أحد﴾ أي: وأنتم لا تلوون على أحد من الدهش والخوف والرعب ﴿والرسول يدعوكم

(١٧) ابن إسحاق: السير والمغازي، (ص: ٣٢٧).

(١٨) المصدر السابق (ص: ٣٣٠).

(١٩) ابن هشام: السيرة النبوية (٢/ ٣٧٥).

(٢٠) الخطابي: معالم السنن، (٢/ ٢٧٣).

(٢١) ابن هشام: السيرة النبوية (٢/ ٣٨٣).

في أخراكم﴾ أي: وهو قد خلفتموه وراء ظهوركم يدعوكم إلى ترك الفرار من الأعداء، وإلى الرجعة والعودة والكرة)[٢٢]، وأما النبي صلى الله عليه وسلم فلم يعنِّف أحدًا حتى ثلة الرماة التي عصت أمره وحصل من عصيانها ما حصل؛ فقد رأى في عظة القرآن هذه غنًى عن تذكير الفارِّينَ والرماة، وهكذا فعل بالمخلَّفين يوم غزوة تبوك.

كان تقييمه صلى الله عليه وسلم للمواقف حقًّا عدلًا، فبينما لم يعنف أحدًا ما نسي بطولات الفدائيين أبي دجانة وأنس بن النضر وحمزة وطلحة، وما زال يذكر سبعة آخرين استشهدوا تِبَاعًا دفاعًا عنه صلى الله عليه وسلم عندما تداعى عليه المشركون وتتابعوا وتكالبوا يريدون قتله، ويوم حنين لم يَلُمْ أحدًا كما سبق اكتفاءً بإدانة القرآن لِمَا ألمَّ بهم من هزيمةٍ واغترار بكثرةٍ أنسَتْهم أنَّ النصر من عند الله، وشغلت أبصارُهم بصائرَهم عن أثر الدعاء والتوكل في نزول النصر من السماء، يومئذٍ ما عاب عليهم صلى الله عليه وسلم هزيمتهم، بل مضى يذْكُر خصائص كل قوم حتى فاؤوا جميعًا إليه وهو ينادي عليهم بأحبِّ صفاتهم إليهم: (يا أنصار الله وأنصار رسوله، يا أصحاب الشجرة، يا معشر الأنصار، يا أصحاب السمرة، يا أصحاب سورة البقرة)[٢٣]، ويوم بدر كان يومَ ثباتِ القادة والقاعدة معًا، فما زال يذكر لأهل بدر فضائلهم في كل موقف أو مناسبة، وكان تقسيم الغنائم شاهد صدق على فضل أهل الفضل، وعلى أنَّ الغنم بالغرم، فمن قتل قتيلا فله سلبه، وللراجل سهم وللفارس سهمان.

وقد كان شمول هذا التقييم والتقويم للقادة والقاعدة أدعى لقبوله في نفوس القاعدة، وحسبنا في هذا قضية فداء أسرى بدر، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي بكر وعمر: ((ما ترون في هؤلاء الأسارى))؟ فقال أبو بكر: يا نبي الله، هم بنو العم والعشيرة، أرى أن تأخذ منهم فدية...، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((ما ترى يا ابن الخطاب؟)) قلت: لا والله يا رسول الله، ما أرى الذي رأى أبو بكر، ولكني أرى أن تمكنَّا فنضرب أعناقهم...، فهوي رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قال أبو بكر، ولم يهو ما قلت، فلما كان من الغد جئت، فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر قاعدين يبكيان، قلت: يا رسول الله، أخبرني من أي شيء تبكي أنت وصاحبك؟ فإن وجدت بكاء بكيت، وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((أبكي للذي عَرَض علي أصحابك من أخذهم الفداء، لقد عُرض علي عذابهم أدنى من هذه الشجرة))[٢٤]، وقال سعد بن معاذ: (يا رسول الله، الإثخان في القتل أحبُّ إليَّ من استبقاء الرجال، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((لو نزل من السماء عذاب لما نجا منه غير عمر بن الخطاب وسعد بن معاذ))[٢٥]، هذا رغم أنَّ رسول الله القائد إنَّما هويَ كأبي بكر هداية الأسرى بينما هويَت عامَّةُ القاعدة عرَض الدنيا، فهنا الغرَضُ العرَض، وهناك الهداية، فبينهما تباين إلا أنَّ الوسيلة واحدة، فعرْضُ العذاب جاء على الغرَض - وهو التطلع للعرَض - لا على الوسيلة كما تقدَّم في الحديث، ثم نزل العفو عن الوسيلة، وأُقِرَّ العتاب على الغرَض، ورغم هذا كان التقويم عامًّا، وميزانُه صورةُ الوسيلة دون النظر إلى الغرض؛ لأنَّ المحكَّ هو الظاهر والله يتولى السرائر.

وإِثْر هذا التقويم يأتي البناء والتكميل، وخير الشهود عليه غزوة حمراء الأسد عُقيب أحد لا سيما حصر المشاركة فيها بمن شهد أحدًا، وما منهم إلا وقد أثختنه الجراح، وكأنَّ حمراء الأسد كانت مكافأة لمن شهد أحدًا، ومن شأن العطاء أن يختص بقاعدةٍ حضرت وبذلت النفس والنفيس دون من قعد مع القواعد.

هذا وبينما انحصرت المشاركة بمن حضر أحدًا وَفْقًا لنتائج التقويم النبوي، كان التقويم الموسوي قد كشف أنَّ جيل التيه ليس جيل تحرير بيت المقدس؛ فانحصرت المشاركة في معركة تحريره من الجبابرة بالجيل الذي تلا جيل التيه، فما إنْ انقرض جيل التيه والمكابرة، وحلَّ محلَّه جيلٌ صُنِعَ على عين النبوة، واعتَبر بأسلافه، حتى مضى القائد يوشع بن نون - عليه السلام - يُعِدُّ جيشه من هذه القاعدة الصالحة للإقدام على تحرير بيت المقدس من أيدي أولئك العتاة الجبابرة، فهو الذي خرج بهم من التيه، وقصد بهم بيت المقدس، فحرَّره من الجبابرة وبقي في يدهم حتى حين ﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا * فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا * ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾ [الإسراء: ٤ - ٦] ثم عاد بنو إسرائيل إلى مسلسل الطغيان بعد مئات السنين[٢٦]، فسلط الله عليهم قومًا آخرين جبارين انتزعوا منهم بيت المقدس هم جالوت ومن معه، وما زال بأيديهم حتى بعث الله قادة يختبرون مدى وعيهم

(٢٢) تفسير ابن كثير (٢/ ١٣٣-١٣٧).

(٢٣) الواقدي: المغازي (٣/ ٨٩٧-٩٠٣).

(٢٤) صحيح مسلم (٣/ ١٣٨٥).

(٢٥) تخريج أحاديث الكشاف: الزيلعي، (٢/ ٣٩)، قال: رواه الطبري والواقدي وابن مردويه بسند متصل، والبغوي والثعلبي بلا سند.

(٢٦) تفسير ابن كثير (١/ ٦٦٥).

بالمسؤوليات وحملهم لما تحمَّلوه وتحمَّسوا له ﴿إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ [البقرة: ٢٤٦]؛ (لأن الحماسة الجماعية قد تخدع القادة لو أخذوا بمظهرها، فيجب أن يضعوها على محك التجربة قبل أن يخوضوا بها المعركة الحاسمة...، ثم ارتفعت حماستهم إلى الذروة وهم يقولون له: ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا﴾ [البقرة: ٢٤٦] ولكن هذه الحماسة البالغة ما لبثت أن انطفأت شعلتها ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ﴾ [البقرة: ٢٤٦] وهي ظاهرة بشرية خليقة بأن تصادف قيادة الجماعة المسلمة في أي جيل، فيحسن الانتفاع فيها بتجربة بني إسرائيل، فاختبار الحماسة الظاهرة والاندفاع الفائر في نفوس الجماعات ينبغي أن لا يقف عند الابتلاء الأول، وفي ثنايا هذه التجربة تكمن عبرة القيادة الصالحة الحازمة المؤمنة، وكلها واضحة في قيادة طالوت، تبرز منها خبرته بالنفوس وعدم اغتراره بالحماسة الظاهرة، وعدم اكتفائه بالتجربة الأولى، ومحاولته اختبار الطاعة والعزيمة في نفوس جنوده قبل المعركة، وفصله للذين ضعفوا وتركهم وراءه، ثم – وهذا هو الأهم – عدم تخاذله وقد تضاءل جنوده تجربة بعد تجربة ولم يثبت معه في النهاية إلا تلك الفئة المختارة، فخاض بها المعركة ثقة منه بقوة الإيمان الخالص)[٢٧].

وهكذا مضى القادة يأخذون عليهم العهود والمواثيق؛ استيثاقًا وسبرًا لوعيهم بمفهوم المسؤولية ومقتضياتها، فما ثبت من القاعدة مع قادتهم طالوت وداود إلا قليل ممن غذيت جذور المسؤولية لديهم بإيمان ويقين بالله حقيق ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ﴾ [البقرة: ٢٤٦] ثم مضوا حتى ابتلوا بالعطش وبقلة المياه[٢٨]، ولما اقتربوا من نهر قال لهم طالوت: ﴿إِنَّ اللهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي﴾ [البقرة: ٢٤٩] يُقال: كان الجيش ثمانين ألفا، ﴿فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ﴾ [البقرة: ٢٤٩]، شرب ستة وسبعون ألفًا، وبقيَ معه أربعة آلاف، فلما رأت البقية الباقية من أمر جالوت وجنوده ما رأتْ هالَهُم الأمر وأفزعَهم، واستعظموا المسؤولية، وهابوا لقاء العدو ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾ [البقرة: ٢٤٩]، فنكصوا جميعًا اللهم سوى ثلاث مئة وبضعة عشر رجلا وفَّوا المسؤولية حقَّها، فكانوا ممن صدقوا ما عاهدوا الله عليه، وعِدَّتُهم لم تكن تزيد على عدةِ أهل بدر كما قال البراء بن عازب[٢٩]، فالقائمون حقَّ القيام بمسؤوليات القاعدةِ تجاه القادة هم أقلُّ القليل ممن تسلحوا باليقين بلقاء الله وبالمصابرة ﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو اللهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩] فما من سلاح في أيديهم أمضى من معيةِ الصبر هذه ثم الدعاء والتوكل ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ * فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللهِ﴾ [البقرة: ٢٤٩-٢٥٠]، وما صَمَد من أقلِّ القليل على أتمِّ وجه وأعلى مستوى في الاعتصام بزمام المسؤوليات سوى فذٍّ مثاليٍّ أحكمَ زمامها أيَّما إحكام حتى جلَّى النصرَ ورفع رايته؛ فتُوِّجَ بالملك والعلم ﴿وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٤٩ - ٢٥١]، وهذا فيه ما فيه من الأدلة على جدوى الصلاح الفرديّ والإصلاح بالفرد، وما زالت عِبر هذه الآيات وأحداثها تتكرر تفصيلا بصورٍ مختلفة إيذانًا بأنَّ سنة التدافع ماضية في حكم الأرض حمايةً لها من الفساد والدمار، وهي من أعلى صور المسؤولية، وإعلامًا بأن بيت المقدس هو المحور والميزان وبيضة القبَّان ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩ - ٢٥١]، فالأمةُ قادةً وقاعدةً أحوجُ ما تكون إلى تدبرِ تلكم الآيات واستنطاقِها بمزيد من العبر والعظات في سياق المسؤوليات والتبعات؛ للخروج من التيه والتوجه نحو بيت المقدس والمسجد الأقصى الأسير بعزم جيل، سلاحُ قادتِه وقاعدتِه حملُ المسؤوليات بعلم وأمانةٍ وإيمانٍ ويقين، ويَمُدُّهُ من ورائه آخرون نَهِمُون جمَّاعون للدُّنيا من أجل الدِّين ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ﴾ [الإسراء:٦] وهذا ليس بِدْعًا؛ فالتمكين قد وقع لشابٍّ حفيظٍ عليم، غدا قائدًا وأسس قاعدة بعد أنْ نجا من الكيد والحُبِّ، وقضى في السجن والجُبِّ بضع سنين ﴿وَاللهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف:٢١].

نتائج البحث:

جاءت شواهد البحث دالَّة على بوابات الخروج من التِّيه، وكانت تبصيرًا لمن أُصيب بعمى الألوان؛ كي يميزَ حملةَ راية تحرير الأرض والبشر والمقدسات عن أدعياء يستعبدون العقول برايات خدَّاعة من هذا القبيل، وإليك أهمّ مراحل الوصول إلى بوابة الخروج:

١. التقييم المرحلي والتقويم المستمر لمسؤوليات القادة والقاعدة، والغرض منه معرفة الخلل في التخطيط والأداء، وتداركُه بما يُصلحه من جوابر وزواجر، وسَدُّ الثغرات وتعزيزُ الإيجابيات.

٢. إنَّ معاندة السنن الإلهية أو محاولة العبث بسيرورتها هي لغزُ صيرورة القاعدة إلى المجهول، وعلَّةُ إيغالها

(٢٧) في ظلال القرآن: سيد قطب (١/ ٢٦٢)

(٢٨) تفسير الطبري (٥/ ٣٤٠-٣٤١)

(٢٩) تفسير ابن كثير (١/ ٦٦٨).

في ظلمات التيه، وسرُّ إخفاق كلٍّ من القادة والقاعدة في القيام بمسؤولياته، ومن صور العناد أو العبث: تكليف القاعدة بأعمال القادةِ، أو هروب القادة وتصدُّر القاعدة: (فمن منح الجهال علمًا أضاعَهُ *** ومن منع المستوجبين فقد ظلم).

٣. المسؤوليات العامَّة يدخل جلُّها في فروضِ الكفايةِ، فمن لم تكن له أهلية توجب عليه أداءَها لم يصحّ القول بأنه غير مكلَّف بها مطلقًا من كل وجه، بل يجب عليه من مقدِّماتها كلُّ ما له طاقة به.

٤. عاقبةُ التخلِّي عن المسؤوليات العامَّة أو ضعفِ الجاهزيةِ والاستعدادِ للنَّوءِ بأعبائها هي: الاستبدالُ كما وقع لجيل التيه، ورفعُ فاعلية الأسباب كما حلَّ بالقوم يوم حنين وقد قالوا: لن نغلب اليوم عن قلة.

٥. جلالة قدر القائد ولو بلغت حدَّ العصمة، وبراهين تأييد الله له ولو خرقت العوائد وعُدَّت من المعجزات: لن تغيِّر من سنة الله في ترتُّب النصر والفرَج والتمكين على مدى تحمل المكلَّفين لمسؤولياتهم، ولَن تَرفع شيئًا من عواقب النكوص عن القيام بتلك الواجبات.

٦. السنن الإلهية في التمكين ماضية ولو هلك القادة والقاعدة جميعًا دون أن تتحقق، وهذا ما حلَّ بجيل التيه، هلكت القاعدة، ولحق القادةُ بالرفيق الأعلى، وما زال القوم في مجاهيل التيه سادِرين، وبيتُ المقدس أسيرًا بيد الجبارين.

٧. أهليةُ فردٍ أو اثنين من القاعدة للتمكين لا تغني عنها شيئًا، والمعوَّل عليه صلاح الأمة وصلاحيتها؛ فما أغنى عن قاعدةِ جيلِ التيه أنْ كان فيهم رجلان صالحان أقدما وحذَّرا القوم مَن مغبة النكول، ولم يكن موقفهما ليرفع المسؤولية وتبعاتها عنهم.

٨. ثنائية الصلاح والإصلاح الفردي لها ما لها من الأهمية والأثر، فيقوم هذا الفرد بتربية قاعدةٍ تاليةٍ للهالكينَ وإصلاحها؛ حتى تغدو صالحةً أهلًا لتنفيذ ما يُناط بها من مسؤوليات.

٩. القاعدةُ إنْ لم تتغير سِماتها تُغيِّرْ هي ذاتها، أو قل: إنْ لم تُبَدِّلْ أوصافَها تُستبدَلْ ذواتُها.

١٠. هلاك القاعدة العاتية يمنع تأثر ذريتها بها، ويمنح عقول النسل الجديد حرية اختيار حقيقية، فيغدو أكثر قابلية لتتكون منه قاعدة مسؤولة مما لو بقي أسير عادات الآباء والأجداد ومعتقداتهم؛ وبهذا يفسَّر الهلاك العامّ للأمم السابقة، وبه يتبين أنَّ التقليد وتمسك الأبناء بما كان عليه الآباء هو أصل الداء في باب المسؤوليات كما شهدت بذلك آيات كثيرة على أمم مضت، وفي الأحاديث الشريفة ما يشهد لتأثير الأبوين على دين الأولاد وفطرتهم وتخليهم عن حملهم لمسؤولياتهم، وحسبكَ شهادةُ الواقع، ففيها دلائل وعبر مشبَعة.

١١. الأصلُ أن تمضي سنن الله في صراع الحقِّ والباطل ما لم تدعُ الضروراتُ لنصرة القادة المعصومين في حالات الصراع على البقاء والفناء؛ أما النصر البارد ففيه تعطيل لتلك السنن.

١٢. نصرُ الضروراتِ مصدره ثبات القائد المعصوم ودعاؤه وتضرعه وابتهاله، واستكماله للأسباب المتاحةِ كلها رغم قصورها، ومضيّه قُدُمًا في إعمالها، وقد تجلَّى ذلك كلُّه في دعاء النبي صلى الله عليه وسلم لربه يوم حنين ونداءه للفارين بأحب صفاتهم ومناقبهم ليكروا بعد الفرار.

١٣. للقاعدة السلبية تأثير قوي بالغ الأثر رغم التسليم بكمال القيادة، فالقيادة في أعلى رتبها وأكملها لم تكن لتنفعَ بينما القاعدةُ في الحضيض وإن كثرت.

١٤. سمو القائد بمعنويات القاعدة وإشادته ببطولات الفدائيين الباذلين لأموالهم وأنفسهم وأوقاتهم له أثر مشهود في قابل الأيام والمشاهد رغمَ الهزيمة، فلا لوم ولا تقريع، ولا همز ولا لمز، بل دأْبُ القائدِ السموُّ بأرواح القاعدة، وجبرُ خواطرها، ورأْبُ صدْعِها، والنهوضُ بمعنوياتها (بل أنتم العكَّارون، بل أنتم الكُرَّار).

١٥. التغذية المرتدة من تقويم أداء القاعدة القبليّ والمرحليّ والختاميّ لها ما لها من جليل الأثر، فبها يحصل الاستعداد لما سيكون، والاعتبار بما كان، وتدارك القصور أثناء الأداء، وهذا ما دلَّت عليه مُخرجات التقويم النبوي لأُحُد، وإليها استند حصر المشاركة في حمراء الأسد برجال أحد، وهي نفسها نتائج التقويم الموسوي لجيل التيه بعد عشرات السنين، فقد أظهرت أن لا بد من أن ينقرض هذا الجيل في أربعين سنة على أمل ولادة جيل تحرير بيت المقدس؛ ليتبوَّأ مكانه الذي يليق به، لا سيما أنه جيلٌ اعتَبر بتاريخ أسلافه، ونشأ وترعرع وتربَّى على ما سمع عن القاعدة البائدة من عظات وعبر، حتى جاز القول بأنه قاعدةٌ صُنِعَت على عين النبوة.

والحمد لله رب العالمين ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [سورة التوبة: الآية ١٠٥].

منهج صناعة القدوة الحسنة في الشَّريعة الإسلاميَّة

د. محمد تركي كتوع
دكتوراه في الفقه الإسلامي وأصوله
مدرّس في أكاديمية باشاك شهير

محمد علي النجار
محرر مجلة مقاربات

قال بعض الحكماء: (إذا أردتَ أن تحصد بعد شهور، فازرع قمحًا، وإذا أردت أن تحصد بعد سنوات فازرع شجرًا، وإذا أردت أن تحصد بعد جيل فازرع رجالًا)[1].

منذ مطلع الرسالة المحمدية نجد النبي صلى الله عليه وسلم يوزع وقته في خدمة الدين، ما بين الدعوة إليه والعناية بأتباعه لتنشئتهم قادةً وقدوات للمسلمين الجدد، كثيرون أولئك الدعاة والقادة الذين يحرصون على الكم على حساب الكيفية في كل زمان وفي كل ميدان، ولكن النبي صلى الله عليه وسلم كان في قمة التوازن بين الكم والكيف، فتراه يعتني بكل فرد من أصحابه عناية خاصة ويوجهه إلى الميدان الذي يتلاءم مع تكوينه النفسي والشخصي، حيث وجه بعضهم ليكونوا قدوة في التجارة، وبعضهم قدوة في الحرب، وآخرين قدوة في السياسة أو العمل الاستخباراتي أو حتى العمل الإنساني أو الاجتماعي والأخلاقي.

إن هذه التربية الخاصة والعناية الخاصة التي تلقاها كبار الصحابة رضوان الله عليهم من النبي صلى الله عليه وسلم؛ هي السر الحقيقي في قوة الإسلام وسرعة انتشاره، فلم تمر إلا سنون قليلة حتى تحول الأعراب إلى قادة، ورعاة الغنم والإبل من أبناء القبائل البعيدة عن الحضارة والمدنية إلى معلمين وحكماء ينشرون الحضارة والعلم والمدنية والأخلاق الفاضلة بين أبناء الأمم الأخرى.

إن الأزمات التي تعانيها أمتنا اليوم كثيرة وكبيرة، ولعلنا نستطيع اختصارها بكلمة «الضياع»، نعم إننا نعاني من الضياع في كل ميادين الحياة النظرية أو العملية الدينية أو الدنيوية منها، والسبب في ذلك غياب الدليل الصادق والقدوة الحسنة والقائد المخلص والخبير، ولعل صناعة القيادة والقدوة الحسنة في كل ميادين الحياة سيكون الطريق الذي يأخذ بيد الأمة إلى الرشاد والصحوة المنتظرة.

مفهوم صناعة القدوة اليوم:

إن مفهوم الصناعة اليوم لم يعد قاصرًا على الصناعات الخفيفة ولا حتى الثقيلة، سواء المعدنية منها أو غيرها، وإنما تعدَّى الأمر إلى صناعة السينما، وصناعة الخبر، وأخيرًا وليس آخرًا صناعة الرمز أو النجم، وليس المقصود بصناعة النجوم أو الرموز أو القدوة الحسنة هنا، الصناعة المادية المحسوسة، أي أن يكون هناك مصانع تقدِّم للمجتمع قوالب بشرية جاهزة ومسيّرة في اتجاه وطريق معين، بل المقصود إيجاد البيئة السليمة النظيفة لاحتواء هؤلاء الأشخاص، الذين تميّزوا ببعض الخصائص والصفات الحسنة، وتوجيههم التوجيه الصحيح، والتدرج معهم في مراقي الكمال والاستقامة، وإزالة العقبات والعوائق التي تعترض طريقهم، ورعايتهم ماديًّا ومعنويًّا وإعلاميًّا، فصناعة القدوة الحسنة عملية متكاملة تتضافر في سبيلها جهود بشرية عديدة، ليكون بعد ذلك قدوة حسنةً للآخرين، وشخصيّةً قويَّةً مؤثِّرةً في سلوك الناس وتوجهاتهم.

(١) فتحي، د محمد، «فنّ صناعة الرموز خطوة بخطوة»، (ط١، مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع والترجمة، ١٤٢٩هـ، ٢٠٠٨م)، ص: ٤

حرص الشريعة الإسلامية على تربية القدوة الحسنة:

كما اهتمَّت الشريعة الإسلامية برعاية جميع المجتمعات الإنسانية عموماً؛ فقد أولت عناية فائقة للمواهب التي يتمتع بها بعض الأفراد خصوصًا، وعملَتْ على تنميتها وتقويتها، ليكون هؤلاء الأفراد النابغون قدوةً للناس في فعل الخير والدلالة عليه، ورموزًا في الاستقامة والصلاح والعطاء، وأداةً فاعلةً ومؤثِّرةً في إصلاح المجتمع وتقويم سلوكه وتصويب قيمه وأفكاره.

وإن للإسلام في ميدان صناعة القدوة الحسنة منهجًا متكاملًا تتضافر فيه الأوامر الربانية مع التوجيهات النبوية، تضاف إلى ذلك تجربة إسلامية عريقة تمتد من زمن السلف الصالح إلى عصور النهضة الإسلامية الممتدة لأكثر من ألف سنة من عمر هذه الأمة، وسأعرض لها هنا بما يجلي جوانبها.

أولًا: المنهج الربَّاني في تهيئة الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام

لا شكَّ أنَّ مقام النبوة والرسالة هو مقام اصطفاء واجتباء من الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، ولكن بعد الاصطفاء كان هناك الإعداد والتهيئة للقيام بأعباء الرسالة، وقد هيأ الله سبحانه وتعالى لأنبيائه كل الوسائل المادية والأسباب الدنيوية التي تؤهلهم ليكونوا قدوة حسنة للناس من بيئة وعائلة وظروف اجتماعية وصفات خلقية وخُلقية، فلم يولد نبي من سفاح ولا من نسب سيئ، وما من نبي إلا ورعى الغنم ليتعلم من صنعته بها رعاية البشر، وقد تعرضوا في حياتهم لكثير من المواقف التي تمتحن نفس الإنسان وتعلمه الصبر والحلم والحكمة أخلاقًا متممة لما فطروا عليه من الخير والبركة، وبعد كمالهم البشري أوحى الله إليهم بالنبوات، ولم تكن المعجزات وخوارق العادات إلا تتميمًا للعناية الربانية الممتدة لسنوات من حياتهم قبل تلقي الوحي، فلم يكن الأنبياء طفرة في كون الله يصلح أحدهم للنبوة وحمل أعبائها في يوم وليلة، إذ ليس لذلك وجود في قوانين الله في كونه – وإن كان قادرا على ذلك – فقد جرت عادة الله في خلقه إذا اصطفى عبدًا أن يهيئ له أسباب تكوينه الحسية والمعنوية كاملة، ثم يمنَّ عليه بعدها بالنبوة، فيتعرض قبل النبوة لأنواع شتى من الاختبارات والمصاعب التي تصقل النفوس وتهيئها لقيادة البشر إلى طريق الحق، يقول النبي صلى الله عليه وسلم في ذلك: ((أشدكم بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل))، ولقد نوّه البيان الإلهي بهذا الإعداد للأنبياء في آيات كثيرة، واسمع ما قاله الله تعالى في تهيئة موسى عليه السلام وإعداده للقيام بمهمته في الدعوة والتبليغ: ﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى* أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي* إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَنْ يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى* وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي* اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي* اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى* فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ [طه: ٣٨- إلى-٤٤]. ولنا مع هذه الآيات الكريمة وقفتان:

الوقفة الأولى: مع قوله تعالى: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾ [طه: ٣٩].

يُقَال: صَنَع فلان جَارِيَته إذا ربَّاها، وَفُلَان صَنِيع فلان إذا ربَّاه وأدَّبه وخرَّجه[٢].

قال الطاهر بن عاشور: (وَالصُّنْعُ: مُسْتَعَارٌ لِلتَّرْبِيَةِ وَالتَّنْمِيَةِ، تَشْبِيهًا لِذَلِكَ بِصُنْعِ شَيْءٍ مَصْنُوعٍ، وَمِنْهُ يُقَالُ لِمَنْ أَنْعَمَ عَلَيْهِ أَحَدٌ نِعْمَةً عَظِيمَةً: هُوَ صَنِيعَةُ فُلَانٍ)[٣].

قال صاحب الظلال في بيان مناسبة هذه الآية: (إنَّ موسى عليه السلام ذاهبٌ لمواجهة أقوى مَلِكٍ في الأرض وأطغى جبَّار، إنَّه ذاهبٌ لخوض معركة الإيمان مع الطغيان، إنه ذاهبٌ إلى خِضمٍّ من الأحداث والمشكلات مع فرعون أول الأمر، ثم مع قومه بني إسرائيل، وقد أذلَّهُم الاستعباد الطويل وأفسدَ فطرتهم وأضعفَ استعدادهم للمهمَّة التي هم منتدبون إليها بعد الخلاص، فربُّهُ يُطْلِعُهُ على أنَّه لن يذهب غَفْلًا من التهيؤ والاستعداد، وأنَّه لم يرسل إلا بعد التهيئة والإعداد)[٤].

الوقفة الثانية: مع قوله تعالى: ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ [طه: ٤١].

(يُقَالُ: اصْطَنَعَ فُلَانٌ فُلَانًا اتَّخَذَهُ صَنِيعَةً، وَهُوَ افْتِعَالٌ مِنَ الصُّنْعِ، وَهُوَ الْإِحْسَانُ إِلَى الشَّخْصِ حَتَّى يُضَافَ إِلَيْهِ، فَيُقَالَ هَذَا صَنِيعُ فُلَانٍ)[٥]، وَالْمَعْنَى: (اصْطَنَعْتُكَ لِوَحْيِي وَرِسَالَتِي لِتَتَصَرَّفَ عَلَى إِرَادَتِي)[٦]، قَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ: (هَذَا تَمْثِيلٌ لِمَا خَوَّلَهُ مِنْ مَنْزِلَةِ التَّقْرِيبِ وَالتَّكْرِيمِ وَالتَّكْلِيمِ، مَثَّلَ حَالَهُ بِحَالِ مَنْ يَرَاهُ الْمُلُوكُ بِجَمِيعِ خِصَالٍ فِيهِ وَخَصَائِصَ؛ أَهْلًا لِأَنْ يَكُونَ أَقْرَبَ مَنْزِلَةً إِلَيْهِ وَأَلْطَفَ مَحَلًّا فَيَصْطَنِعُهُ بِالْكَرَامَةِ وَالْأَثَرَةِ

(٢) الأزهري، محمد بن أحمد الهروي، «تهذيب اللغة»، تحقيق: محمد عوض مرعب، (ط١، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ٢٠٠١م)، ٢: ٢٤

(٣) ابن عاشور، «التحرير والتنوير»، ١٦: ٢١٨

(٤) سيد قطب، «في ظلال القرآن»، ٤: ٢٣٣٤

(٥) أبو حيان الأندلسي، محمد بن يوسف بن علي، تحقيق: صدقي محمد جميل (بيروت: دار الفكر، ١٤٢٠هـ) ٧: ٣٣٤

(٦) الشوكاني، «فتح القدير»، ٣: ٤٣٢

وَيَسْتَخْلِصُهُ لِنَفْسِهِ)[7]، وقال الراغب الأصفهاني: (الاصْطِنَاعُ: المبالغةُ في إصلاح الشيء)[8].

وكذلك الحال في قصة داود: ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾ [سورة البقرة: آية ٢٥١] وسليمان ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ﴾ [سورة الأنبياء: ٧٩] وعيسى ﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [سورة آل عمران: آية ٤٦] وكذلك حال يوسف وإسماعيل وصالح عليهم السلام وغيرهم من الأنبياء، فقد تربوا تربية خاصة.

وهكذا كان حال النبي صلى الله عليه وسلم الذي خاطبه ربه بقوله: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى (٦) وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى (٧) وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى﴾ [سورة الضحى: آية ٦-٨].

عندما يفهم الإنسان المسلم المنهج الرباني في ظهور الرسل والأنبياء والمخلصين يعلم أنه من العبث بمكان أن تنتظر أمة ضائعة قادة مخلصين يظهرون كطفرة في التاريخ ليغيروا أقدارها، يقول ربنا سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [سورة الرعد: آية١١] وهذا هو الحق، فنحن نؤمن بأن نخبة القدوة الصالحة والقيادة السوية لها أكبر الأثر في خلاص الأمم الضائعة ونهضتها - فقد أثبتت ذلك التجربة- ولكن ما يجب أن نؤمن به أيضًا أن الأمة بجمعها، وبكل المصلحين فيها مكلفة بالإعداد لظهور النخبة وتهيئة البيئة الحاضنة لهم، والجيل الذي يحمل القابلية للسير من خلفهم ليتغير قدرهم، وهذا معنى قول ربنا: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [سورة الرعد: آية١١].

ثانيًا: المنهج النبوي في صناعة القدوة:

لقد كان النبي صلى الله عليه وسلّم يعتني بكل فرد من أصحابه عناية خاصة، فيرشده إلى عيوبه، ويشجعه فيما يحسن، ويشهره بين الناس بما فيه من خير، ويستر ما فيه من نقص إلا لمصلحة، مما جعلهم يستجيبون لكل نصائحه وتوجيهاته، وقد تخرج على يده مجموعة من خيرة القادة ورواد الحضارة والإنسانية في التاريخ البشري، وقد كانوا قَبلًا رعاة إبل وغنم أو محاربين بسطاء أو تجارًا محليين، ولم يكن ذلك عن تكلف أو تخطيط، بل بما فُطر عليه من أخلاق وصفات كاملة تفيض على العالم كله.

إن المتمعن في منهج النبي صلى الله عليه وسلم في صناعة الرجل القدوة يلحظ مجموعة من السبل الدقيقة والحكيمة التي توصل الإنسان إلى أن يكون قدوة حسنة وإنسانًا يتمتع بأعلى صفات الكمال، وسأعرض هنا لمجموعة من تلك السبل النبوية.

تهيئة البيئة والصحبة الصالحة:

كي تتم عملية إعداد القدوة لا بدَّ لذلك من بيئة خاصة تتم عملية التكوين فيها، ويتحصل فيها على المناعة الكافية، فلا يمرض أو يسقط عند أول هواء فاسد أو لقاء أو موقف سيئ أو امتحان عملي أو فتنة، وهذا ما فعله النبي صلَّى الله عليه وسلَّم عندما جمع الرعيل الأول من المسلمين في أعظم بيئة حاضنة في تاريخنا الإسلامي، ألا وهي دار الأرقم بن أبي الأرقم، أعظم مدرسة للتنشئة التربوية لإعداد الرموز[9]، وقد تابع النبي صلى الله عليه وسلم عملية صناعة البيئة الصحية في المدينة المنورة بعد الهجرة النبوية من خلال ربط المهاجرين بالأنصار، ووضع قواعد المجتمع السليم الذي يتخذ من المسجد النبوي وقواعد الرسول الحكيم قانونًا يحتكمون إليه، ومن نصائحه معالمَ يهتدون بها، وقد عزل هذه البيئة عن المحيط الموبوء، من خلال نهيهم عن قراءة صحف اليهود أو تقليدهم للمشركين أو التواصل مع أقاربهم المحاربين للدعوة أو المشركين إلا ضمن ضوابط خاصة نزل القرآن بها وفصل النبي صلى الله عليه وسلم فيها، فكانت البيئة شبه معزولة، وبقي التواصل خارج البيئة بمقدار ما يكتسب أفرادها المناعة من الأمراض الاجتماعية المحيطة بهم، وإلا فإن العزل التام للبيئة الحاضنة تصل بأفرادها إلى نتائج خطيرة ومدمرة لا حاجة لنا بها، وهذا ما على المربين والتربويين معرفته اليوم، إن العزلة الزائدة عن المجتمع وأمراضه تؤدي إلى نتيجة قريبة جدًا من الاختلاط التام به، فالحكمة مطلوبة في ذلك.

الاهتمام بتنوع الأجيال في المجتمع الواحد:

من أسس صناعة القدوة الحسنة في المنهج النبوي الاهتمام بعدة أجيال من المؤمنين، ونستطيع أن نقسمها إلى **ثلاثة أجيال**:

الأول: جيل الكهول والشيوخ، وقد أولاهم النبي صلى الله عليه اهتمامًا لا بأس به، وكان فيهم نسبة قليلة من قادة الصحابة أمثال: سلمان الفارسي وأبي بكر الصديق وعمر وعثمان وسعد بن عبادة وأسعد بن زرارة وعثمان بن مظعون.

الثاني: جيل الشباب الذي يضم عليًّا وجعفرًا وبقية العشرة المبشرين بالجنة وجابر بن عبد الله ومعاذ بن جبل.

الثالث: جيل النشء الصغير، ويمثله أنس وعائشة والحسن والحسين وأسامة بن زيد وقد علمهم النبي صلى الله عليه

(٧) الزمخشري، «الكشّاف عن حقائق غوامض التنزيل»، ٣: ٦٥

(٨) الراغب الأصفهاني، «المفردات في غريب القرآن»، ص: ٤٩٣

(٩) محمد فتحي، «فنّ صناعة الرموز خطوة بخطوة»، ص: ٢١

وسلم القراءة والكتابة وأنواعًا شتى من العلوم.

بهذه الطريقة أنشأ النبي صلى الله عليه وسلم ثلاثة أجيال من القدوة، الأول منهم كان ركيزة الدولة، والثاني كان فيه مستقبل الدولة القريب وجنودها المخلصون وحملة رسالتها، وهم الذين نقلوا الدين والحضارة وحملوا الأمانة خمسين سنة أخرى، والثالث جيل الناشئين الذي حملها إلى نهاية القرن، وقد خرَّج كلُّ جيل من هذه الأجيال جيلًا لاحقًا قادرًا على حمل أمانة الدين الإسلامي التي شملت كل مناحي الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية للأمة المسلمة.

وهذا ما يجب علينا اليوم في منهجنا لصناعة القدوة الحسنة، أن نهتم بكل من لديه القابلية لقدوة الناس سواء كان رجلًا كبيرًا أو شابًا في مقتبل العمر أو طفلًا ناشئًا، وإن كان الشباب هم أكثر فئة تستحوذ على الاهتمام لكثرة المهام الملقاة على عواتقهم، ونرى في سلوكنا الاجتماعي المعاصر مخالفة خطيرة في هذا المجال؛ إذ يتم الاهتمام بجيل الأطفال على حساب الشباب وهذا ما يُحدث خللًا متواصلا في نهضتنا المنشودة.

مدح أصحابه بخير ما فيهم:

من استراتيجيات صناعة القدوة التي نجدها في المنهج النبوي إشهار المتميزين والمؤهلين للقدوة والقيادة بخير ما فيهم، فقد كان النبي صلَّى الله عليه وسلَّم يمدح كل صحابي بخير ما فيه ليعتني بما وهبه الله من مكارم وليكون قدوةً لغيره في هذه الخصال، قال بدر الدين العيني[10]: (والنبي صلى الله عليه وسلم، خصَّ كل واحد من كبار الصحابة بفضيلة واحدة وصفهُ بها، فأشعرَ بقدْرٍ زائدٍ فيها على غيره)[11]، وإن الأحاديث التي تشير إلى هذا المنهج النبوي في صناعة القدوة الحسنة كثيرة، نذكر بعضًا منها:

- عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: ((أَرْحَمُ أُمَّتِي بِأُمَّتِي أَبُو بَكْرٍ، وَأَشَدُّهُمْ فِي دِينِ اللهِ عُمَرُ، وَأَصْدَقُهُمْ حَيَاءً عُثْمَانُ، وَأَقْضَاهُمْ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ، وَأَقْرَؤُهُمْ لِكِتَابِ اللهِ أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ، وَأَعْلَمُهُمْ بِالْحَلَالِ وَالْحَرَامِ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ، وَأَفْرَضُهُمْ زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ، أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَمِينًا، وَأَمِينُ هَذِهِ الْأُمَّةِ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ))[12].

- عَنِ عبد الله بن مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((اقْتَدُوا بِاللَّذَيْنِ مِنْ بَعْدِي مِنْ أَصْحَابِي أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ، وَاهْتَدُوا بِهَدْيِ عَمَّارٍ، وَتَمَسَّكُوا بِعَهْدِ ابْنِ مَسْعُودٍ))[13].

- عن أَبِي بَكْرَةَ رضي الله عنه قال: سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عَلَى الْمِنْبَرِ وَالْحَسَنُ إِلَى جَنْبِهِ، يَنْظُرُ إِلَى النَّاسِ مَرَّةً وَإِلَيْهِ مَرَّةً، وَيَقُولُ: ((ابْنِي هَذَا سَيِّدٌ، وَلَعَلَّ اللهَ أَنْ يُصْلِحَ بِهِ بَيْنَ فِئَتَيْنِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ))[14].

الرفق بالنصح:

مما تميز به منهج النبي صلى الله عليه وسلم في تنشئة الجيل الرفق بالنصح، وحرصه على أن يعي المقابل ما يرشده إليه ليكون على قناعة تامة به، وهذا ما يكشف خطأنا في تعليم طلابنا بالقسوة والصراخ والضرب كما هو الحال في بعض المناطق الإسلامية.

إن الصراخ والضرب والتخويف لا يخرِّج قدوات للمجتمع، ولكن الفكر النظيف والرفق في التأديب هو ما ينتج القدوة الحسنة، قَالَ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ رضي الله عنه، قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((يَا بُنَيَّ، إِنْ قَدَرْتَ أَنْ تُصْبِحَ وَتُمْسِيَ لَيْسَ فِي قَلْبِكَ غِشٌّ لِأَحَدٍ فَافْعَلْ)) ثُمَّ قَالَ لِي: ((يَا بُنَيَّ وَذَلِكَ مِنْ سُنَّتِي، وَمَنْ أَحْيَا سُنَّتِي فَقَدْ أَحَبَّنِي، وَمَنْ أَحَبَّنِي كَانَ مَعِي فِي الْجَنَّةِ))[15] نعم إن هذا النصح الهادئ المليء بالعطف والشفقة هو الذي فتَق العَظَمة المختبئةَ في قلب أنس وروحه رضي الله عنه.

وإن هذا لا يعني أبدًا أن نتخلى عن القسوة والعقوبة، ولكنه يعني ألا نجعل القسوة منهجًا تربويًّا، إن غضب المربي وترهيبه لطلابه في بعض الحالات قد يوجه المتعلم ويضبطه وينفعه، ولكن اعتماد هذا الأسلوب فقط ليس كافيا لينضج الإنسان ويجعل منه قدوة حسنة، بل قد ينقلب على ما تعلمه في أقرب فرصة، ويكون قدوة سيئة لمن بعده، وذلك لأنه تربى على أن يفعل الصواب خوفًا لا عن قناعة وإيمان بوجوب الاستقامة.

إرشاد المجتمع إلى تقدير أهل السيادة:

على المجتمع أن يعرف لأهل السيادة والفضل والقدوة قدرهم، وعلى المربين أن يعلموا الناس الحفاظ على هذا الاحترام لينتظم المجتمع ولا تسوده الفوضى، فقد يخطئ القدوة إذ هو بشر، ولكن لا ينبغي لهذا الخطأ أن يدفعنا لإغفال

(١٠) الإمام العيني محمود بن أحمد بن موسى، أبو محمد بدر الدين الحنفي: أصله من حلب، ولد في عينتاب وتوفي بالقاهرة، (٧٦٢-٨٥٥ هـ) انظر: [السيوطي، «نظم العقيان»، ١: ١٧٤].

(١١) العيني، «عمدة القاري شرح صحيح البخاري». (بيروت: دار إحياء التراث العربي)، ١٦: ٢٣٨

(١٢) رواه الإمام أحمد في المسند، رقم ((١٢٩٠٤))، وابن ماجه، رقم ((١٥٤)) والترمذي، رقم ((٣٧٩٠)) والحاكم في المستدرك، رقم ((٥٧٨٤))، واللفظ لابن ماجه.

(١٣) رواه الترمذي، رقم الحديث ((٣٨٠٥))، والحاكم في المستدرك، رقم الحديث ((٤٤٥٦)).

(١٤) رواه البخاري، رقم الحديث ((٣٧٤٦)).

(١٥) رواه مسلم والترمذي.

فضله، ففي حادثة خلاف أبي بكر وعمر رضي الله عنهما قال النبي صلى الله عليه وسلم: ((إن الله بعثني إليكم فقلتم كذبت وقال أبو بكر صدقتَ، وواساني بنفسه وماله، فهل أنتم تاركون لي صاحبي؟))، فما أوذي بعدها[١٦].

وكان عبد الله بن مسعود قدوة في هذه الأمة، على الرغم من النقص الخَلقي الذي كان عليه من قصر في القامة وضعف في البنية، وقد حماه النبي صلى الله عليه وسلم من الاجتراء عليه عندما ضحك بعض الناس منه، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: كنت أجتني لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سواكًا من الأراك، فكانت الريح تكْفؤُه، وكان في ساقه دقَّة، فضحك القومُ من دِقَّة سَاقي، فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: ((ما يضحككم؟)) قالوا: من دقة ساقيه، قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: ((والذي نفسي بيده، لهما أثقل في الميزان من أُحد))[١٧].

تعتاد المجتمعات المتخبطة على إسقاط القدوة عند ظهور أول نقص خلقي أو خلقي فيه، بينما تحافظ المجتمعات المنتظمة على قادتها وتحميهم، ولعل من أهم ما عانت منه الثورة السورية في سنواتها الماضية إسقاط القدوات بسبب أو بغير سبب أو عند أول خطأ، مما دفع كثيرين من أهل الخبرة والقدوة في كل ميدان إلى اعتزال العمل لأجل الشعب والوطن.

منحهم الثقة الكافية لينموا مهاراتهم:

من الاستراتيجيات التي نجدها في السنة النبوية منح المتميزين من الصحابة الثقة وفسح المجال لهم لتطوير مهاراتهم وخصالهم الحسنة التي سيورثونها للناس من بعدهم، ومن أشهر الأمثلة على ذلك عقد رسول الله صلى الله عليه وسلم إمارة بعث الشام لأسامة بن زيد رضي الله عنه، وهو الجيش الذي جمعه رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل وفاته، وكان قبل ذلك قد أوكل إليه مهمات قتالية عدة ووجهه من خلالها إلى الصواب دائمًا.

ومن الحوادث الشهيرة في ذلك إرسال الصحابي الشاب معاذ بن جبل رضي الله عنه عاملًا على اليمن، فإن النبي صلى الله عليه وسلم سأله: ((كَيْفَ تَقْضِي إِذَا عَرَضَ لَكَ قَضَاءٌ؟)) قَالَ: أَقْضِي بِكِتَابِ اللهِ. قَالَ: ((فَإِنْ لَمْ تَجِدْ فِي كِتَابِ اللهِ؟)) قَالَ: فَبِسُنَّةِ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: ((فَإِنْ لَمْ تَجِدْ فِي سُنَّةِ رَسُولِ اللهِ، وَلا فِي كِتَابِ اللهِ؟)) قَالَ: أَجْتَهِدُ رَأْيِي وَلا آلُو، فَضَرَبَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم صَدْرَهُ وَقَالَ: ((الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَفَّقَ رَسُولَ رَسُولِ اللهِ لِمَا يُرْضِي رَسُولَ اللهِ))[١٨].

الاستماع لهم وتقدير آرائهم:

بينما كان النبي صلى الله عليه وسلم يصنع قادة المجتمع وقدواته كان يستمع لآرائهم وأفكارهم حول المواضيع المختلفة، ويستشيرهم فيما يعرض لهم من الأمور، فكان دائمًا يقول: ((أشيروا عليَّ أيها الناس)) ينتظر منهم أن يفكروا ويعبروا عن أفكارهم بصراحة ووضوح، ليكون هذا الأمر منهجية حياة للمجتمع المسلم، ولا يكون مجتمعًا متمحورًا حول آراء شخص واحد مستبد في كل صغيرة وكبيرة فيما يحسن وما لا يحسن، لقد كان الرسول الخاتم قدوة لأصحابه في المرونة والاستشارة وعدم جبر الناس على ما لا يقبلون، وقد أورث هذه الصفات لكبار الصحابة من بعده، ولا أدل على ذلك من استشارتهم في غزوة بدر وأحد والخندق وغيرها، واستماعه لهم في اعتراضهم على توزيع الغنائم على المسلمين الجدد بعد فتح مكة.

لا نستطيع أن نصنع قدوة حسنة في ظل الخوف والاستبداد وتقزيم الإنسان والاعتداء على كرامته، إذ الإنسان القدوة يحتاج إلى الكرامة الإنسانية أولا حتى يستطيع تأدية مهمته في الحياة بمهنية وأخلاقية سامية.

في العقود الخمسة الماضية من تسلط حزب البعث على السلطة في بلادنا عمل الحزب على صناعة الرجال عبر الخوف والفساد والتدريب على الانتهازية، وطغيان كل ذي سلطة على من تحت يده، فأفسد المجتمع السوري وغير نظرته إلى الحياة، حتى غدا قادة الناس في الكثير من مجتمعاتنا السورية هم أصحاب المناصب والمال والقدرة على الظلم والفساد دون خوف، وكان من أخص صفاتهم السيئة إظهار القوة على من تحت أيديهم، والذلة والاستكانة لمن فوقهم، مما جعل أجيالًا عدة من شعبنا غير قادرة على الحوار أو الاجتماع إلا في ظل الخوف والسلاح، وعلى فرض أنهم اجتمعوا فإن نسبة ممن تخلقوا بأخلاق البعث يمنعون استمرار اجتماع الناس على الخير بما صُنعوا عليه من فساد أو انتهازية وقدرة على إسقاط المخلصين وصناعة المكائد للتخلص منهم، وقد عانى شعبنا الأمرَّين من هؤلاء، كما عانت الثورة في كثير من مؤسساتها الكثير من هذه المنتجات البعثية المصنعة في شعبه الحزبية ومؤسساته الموبوءة.

تحميلهم مسؤولية أخطائهم:

صحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقدر الرجال القدوة ويحميهم من تطاول المجتمع عليهم ويستمع لآرائهم

(١٦) البخاري.

(١٧) رواه أحمد وابن حبان.

(١٨) رواه أبو داود والترمذي وأحمد.

ويمدحهم بخير ما فيهم، ولكنه في مقابل ذلك كان يحاسب المخطئ منهم ويحمله مسؤولية أفعاله؛ إذ الأمر يحتاج إلى الحكمة في الترغيب والتوجيه والمكافأة أو الترهيب والعقوبة لكي لا تغتر النفس الإنسانية وتنسى حدودها فتسقط.

كان أبو ذر رضي الله عنه قدوةً في المجتمع الإسلامي، ولكن النبي صلى الله عليه وسلم غضب منه أشد الغضب عندما عير بلالًا بسواده وقال له: ((يا أبا ذر، إنك امرؤ فيك جاهلية))، وغضب على الحبِّ بن الحب أسامة بن زيد عندما قتل رجلًا مشركًا نطق بالشهادة والسيف فوق رأسه، وغضب منه حينما شفع في إسقاط حد السرقة عن المرأة المخزومية حتى تمنى أسامة لو أسلم من جديد ليغفر الله له خطأه، وسحب الراية من يد سعد بن عبادة حينما قال في فتح مكة: (اليوم يوم الملحمة)، وقبل ذلك في غزوة أحد استمع لهم وخرج إلى المعركة تحت رغبتهم وحملهم مسؤولية اختياراتهم وكانت التكلفة قاسية لم ينسوها طوال حياتهم في السلم أو الحرب.

توجيههم إلى تحصيل أنواع من العلوم والمعارف:

إن من أهم ما يميز القدوة الحسنة إضافة لأخلاقه وحسن سلوكه العلم، فيكون قدوة لمن حوله وهاديًا لهم ومنقذًا من الجهالة، وقد حرص النبي صلى الله عليه وسلم أيما حرص على حث صحابته الكرام على التعلم، ليكونوا قدوة في العلم كما هم قدوة في الدين والأخلاق، فحرص من مطلع تأسيس الدولة المسلمة أن يتعلم الناس صغارًا وكبارًا، فجعل فداء الفقراء من أسرى بدر تعليم أطفال المسلمين القراءة والكتابة، وحث زيد بن ثابت على تعلم اللغة العبرية، وحث عائشة وغيرها من أمهات المؤمنين على تعلم كثير من الوصفات الطبية، وطلب عائشة لمشاهدة الأحباش في المسجد لتتسلى وتنقل لمن بعدها أساليب حربهم، ودربها على الفتيا حتى غدت مخزنًا من مخازن العلوم الإسلامية، ودعا لأبي هريرة بقوة الذاكرة فكان إذا سمع حديثًا لم ينسه، وكان حَثُّهُ على العلم شاملًا صحابته الكرام كلهم رضوان الله عليهم أجمعين.

أساليب نبوية أخرى في صناعة القدوة:

إن ما ذكرته آنفا من الأساليب النبوية في صناعة القدوة الحسنة يمثل أبرز معالم هذا الطريق الدقيق، ولدى البحث والتفتيش الدؤوب في السنة النبوية سنجد أساليب أخرى مهمة استخدمها النبي صلى الله عليه وسلم في تربية أصحابه وورثها للعلماء والمربين من أمته، من هذه الأساليب: تدريب صحابته الكرام على القيادة والتنظيم بتحميلهم بعض المسؤوليات كما فعل مع النقباء في بيعة العقبة، وكما كان يوجههم في كل سرية أو بعث يرسله، حتى غدا كل فرد من أمراء المسلمين في عصره قادرا على تأسيس دولة وصناعة جيش وقيادة أمة.

ومنها أيضا: تدريبهم على الطاعة والانتظام وتحمل المسؤولية في حال كانوا رؤساء، كما عودهم على الطاعة في حال كانوا مرؤوسين، وجعل همهم في كلا الحالين رضا الله، وفي هذا الباب كثير من الأحاديث التي تحث على طاعة الأمير في غير معصية الله ولو كان عبدًا أسود، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يولي القيادة بعض صغار السن بوجود الكبار تهذيبًا لنفوسهم، لتتعلم الطاعة والعمل لله ولخدمة دينه وعباده تحت كل الظروف والشروط، وهذا من أهم ما يجب أن يتوفر في القدوة الصالحة اليوم، ألا وهو العمل الصالح والاستقامة تحت كل الظروف والضغوط، لا أن يكون قدوة حسنة عندما يعطيه المجتمع ما يريده من جاه وقيادة، ويسوء حاله حينما يفقد منصبه، وكم في مجتمعنا من علماء وقادة قدموا خدمات جليلة عندما أُعطوا ما يتمنون من جاه واحترام، ولجؤوا إلى السلبية والانكفاء أو إلى تجاوز الحد واتهام الآخرين وتنقص جهودهم حينما فقدوا المناصب التي يشغلونها أو لم يحصلوا على ما كانوا يصبون إليه، والأنكى من ذلك كله أن يلجؤوا إلى الخيانة والعمل مع الأعداء، ولهذا الباب نماذج معروفة في ثورتنا السورية بين القيادات السياسية أو العسكرية أو المدنية، نسأل الله الإخلاص والثبات.

ثالثًا: منهج السلف في صناعة القدوة:

يعتبر منهج الخلفاء الراشدين في صناعة القدوة الحسنة صورةً عن منهج النبيِّ صلى الله عليه وسلم وتطبيقًا عمليًّا لما تعلموه منه، وكان كذلك الأمر بالنسبة لباقي صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم وتلامذتهم من التابعين.

لقد حرص الخلفاء الراشدون على اتباع منهج النبي صلى الله عليه وسلم في الحفاظ على القدوة الحسنة والتنبيه على أهميتها في قيام الأمة، وقد وردتنا في ذلك الآثار الكثيرة، من ذلك ما روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه كان جالسًا بين أصحابه يومًا فقال لهم: «تَمَنَّوْا»، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: أَتَمَنَّى لَوْ أَنَّ هَذِهِ الدَّارَ مَمْلُوءَةٌ ذَهَبًا أُنْفِقُهُ فِي سَبِيلِ اللهِ وَأَتَصَدَّقُ، وَقَالَ رَجُلٌ: أَتَمَنَّى لَوْ أَنَّهَا مَمْلُوءَةٌ زَبَرْجَدًا وَجَوْهَرًا فَأُنْفِقُهُ فِي سَبِيلِ اللهِ وَأَتَصَدَّقُ، ثُمَّ قَالَ عُمَرُ: «تَمَنَّوْا» فَقَالُوا: مَا نَدْرِي يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، فَقَالَ عُمَرُ: «أَتَمَنَّى لَوْ أَنَّهَا مَمْلُوءَةٌ رِجَالًا مِثْلَ أَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ الْجَرَّاحِ، وَمُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ، وَسَالِمٍ مَوْلَى أَبِي حُذَيْفَةَ، وَحُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ»[19]، وكان يقول: «وَدِدْتُ أَنَّ لِي رَجُلًا مِثْلَ عُمَيْرِ بْنِ سَعْدٍ أَسْتَعِينُ بِهِ فِي أَعْمَالِ الْمُسْلِمِينَ»[20].

(١٩) رواه الحاكم في المستدرك، رقم الحديث ((٥٠٠٥)).

(٢٠) أبو نعيم الأصبهاني، أحمد بن عبد الله بن أحمد، «حلية الأولياء وطبقات الأصفياء»، (السعادة، بجوار محافظة مصر، ١٣٩٤هـ، ١٩٧٤م)، ١: ٢٥٠

ومما اشتهر عن عمر رضي الله عنه إجلاسه عبد الله بن عباس رغم حداثة سنه في مجلس شورى شيوخ المسلمين؛ ليفيدهم برأيه وينضج فكره بمجالستهم وسماع أحاديثهم، وكذلك يجب أن نفعل، نجلس النابهين من شبابنا مع أهل الفضل والعلم ليتعلموا منهم ويقتدوا بهم ويستنيروا بالاستماع إليهم.

ولقد أورد الخطيب البغدادي بعضًا من هذه الأحاديث ثم قال: (يُسْتَحَبُّ لِلْفَقِيهِ أَنْ يُنَبِّهَ عَلَى مَرَاتِبِ أَصْحَابِهِ فِي الْعِلْمِ، وَيَذْكُرَ فَضْلَهُمْ، وَيُبَيِّنَ مَقَادِيرَهُمْ، لِيَفْرُغَ النَّاسُ فِي النَّوَازِلِ بَعْدَهُ إِلَيْهِمْ، وَيَأْخُذُوا عَنْهُمْ)[٢١]، وكذلك كان قبله الصديق أبو بكر رضي الله عنه في العناية بالرجال القدوة وتمييزهم عن غيرهم وتعريف الناس بهم وحمايتهم، قال يومًا معرفًا بمكانة القعقاع، ((صوت القعقاع في الجيش خير من ألف رجل))[٢٢]، وعندما تُكلم في القائد العسكري خالد بن الوليد رضي الله عنه قال: ((والله لا أشيم سيفًا سله الله على عدوه))[٢٣].

صناعة القدوة عند علماء المسلمين:

لقد قام علماء الأمة وأئمة الدين برعاية ما جاء من نصوص شريفة في هذا الباب، وحرصوا على التوجيه إليها والتنبيه عليها، ونجد ذلك منثورا في كثير من كتب السنة وشروحها أو كتب الفقه وأصوله وغيرها.

لقد فصّل الإمام الشاطبي في هذه الصناعة التي تندرج ضمن فروض الكفاية، والتي تتعلّق بها مصالح الأمّة، وذكر ما يجب على أولياء الأمور والقائمين على التعليم من رعاية تلك المواهب وملاحظة الجوانب التي يتميّز بها كلّ فرد، ليتمَّ إعداده اعدادًا مناسبًا، ليكون قدوة في هذا المجال والتخصّص الذي يبرع فيه، ليكون بعد ذلك أداة نفع ونهضة للأمة، فكان من جملة ما قاله: (وَيَتَعَيَّنُ عَلَى النَّاظِرِينَ فِيهِمِ الِالْتِفَاتُ إِلَى تِلْكَ الْجِهَاتِ؛ فَيُرَاعُونَهُمْ بِحَسْبِهَا وَيُرَاعُونَهَا إِلَى أَنْ تَخْرُجَ فِي أَيْدِيهِمْ عَلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، وَيُعِينُونَهُمْ عَلَى الْقِيَامِ بِهَا، وَيُحَرِّضُونَهُمْ عَلَى الدَّوَامِ فِيهَا؛ حَتَّى يَبْرُزَ كُلُّ وَاحِدٍ فِيمَا غَلَبَ عَلَيْهِ وَمَالَ إِلَيْهِ مِنْ تِلْكَ الْخُطَطِ، ثُمَّ يُخَلَّى بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ أَهْلِهَا، فَيُعَامِلُونَهُمْ بِمَا يَلِيقُ بِهِمْ لِيَكُونُوا مِنْ أَهْلِهَا، إِذَا صَارَتْ لَهُمْ كَالْأَوْصَافِ الْفِطْرِيَّةِ، وَالْمُدْرَكَاتِ الضَّرُورِيَّةِ؛ فَعِنْدَ ذَلِكَ يَحْصُلُ الِانْتِفَاعُ، وَتَظْهَرُ نَتِيجَةُ تِلْكَ التَّرْبِيَةِ، فَإِذَا فُرِضَ -مَثَلًا- وَاحِدٌ مِنَ الصِّبْيَانِ، ظَهَرَ عَلَيْهِ حُسْنُ إِدْرَاكٍ، وَجَوْدَةُ فَهْمٍ، وَوُفُورُ حِفْظٍ لِمَا يَسْمَعُ -وَإِنْ كَانَ مُشَارِكًا فِي غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأَوْصَافِ- مِيلَ بِهِ نَحْوَ ذَلِكَ الْقَصْدِ، وَهَذَا وَاجِبٌ عَلَى النَّاظِرِ فِيهِ مِنْ حَيْثُ الْجُمْلَةُ، مُرَاعَاةً لِمَا يُرْجَى فِيهِ مِنَ الْقِيَامِ بِمَصْلَحَةِ التَّعْلِيمِ، فَطُلِبَ بِالتَّعَلُّمِ وَأُدِّبَ بِالْآدَابِ الْمُشْتَرَكَةِ بَجَمِيعِ الْعُلُومِ، وَلَا بُدَّ أَنْ يُمَالَ مِنْهَا إِلَى بَعْضٍ فَيُؤْخَذَ بِهِ، وَيُعَانَ عَلَيْهِ، وَلَكِنْ عَلَى التَّرْتِيبِ الَّذِي نَصَّ عَلَيْهِ رَبَّانِيُّو الْعُلَمَاءِ، فَإِذَا دَخَلَ فِي ذَلِكَ الْبَعْضِ فَمَالَ بِهِ طَبْعُهُ إِلَيْهِ عَلَى الْخُصُوصِ، وَأَحَبَّهُ أَكْثَرَ مِنْ غَيْرِهِ؛ تُرِكَ وَمَا أَحَبَّ، وَخُصَّ بِأَهْلِهِ؛ فوجب عليه إِنْهَاضُهُ فِيهِ حَتَّى يَأْخُذَ مِنْهُ مَا قُدِّرَ لَهُ، مِنْ غَيْرِ إِهْمَالٍ لَهُ وَلَا تَرْكٍ لِمُرَاعَاتِهِ... وَبِذَلِكَ يَتَرَبَّى لِكُلِّ فِعْلٍ هُوَ فَرْضُ كِفَايَةٍ قَوْمٌ؛ لِأَنَّهُ سُيِّرَ أَوَّلًا فِي طَرِيقٍ مُشْتَرَكٍ، فَحَيْثُ وَقَفَ السَّائِرُ وَعَجَزَ عَنِ السَّيْرِ؛ فَقَدْ وَقَفَ فِي مَرْتَبَةٍ مُحْتَاجٍ إِلَيْهَا فِي الْجُمْلَةِ، وَإِنْ كَانَ بِهِ قُوَّةٌ زَادَ فِي السَّيْرِ إِلَى أَنْ يَصِلَ إِلَى أَقْصَى الْغَايَاتِ فِي الْمَفْرُوضَاتِ الْكِفَائِيَّةِ، وَفِي الَّتِي يَنْدُرُ مَنْ يَصِلُ إِلَيْهَا؛ كَالِاجْتِهَادِ فِي الشَّرِيعَةِ، وَالْإِمَارَةِ؛ فَبِذَلِكَ تَسْتَقِيمُ أَحْوَالُ الدُّنْيَا وَأَعْمَالُ الْآخِرَةِ)[٢٤].

قال ابن مسكويه: (والشريعة هي التي تقوّم الأحداث، وتعوّدهم الأفعال المرضيّة، وتعدُّ نفوسهم لقبول الحكمة، وطلب الفضائل والبلوغ إلى السعادة الإنسية، بالفكر الصحيح والقياس المستقيم، وعلى الوالدين أخذهم بها وسائر الآداب الجميلة بضروب السياسات، من الضرب إذا دعت إليه الحاجة أو التوبيخات أو الإطماع في الكرامات أو غيرها، مما يميلون إليه من الراحات أو يحذرونه من العقوبات، حتى إذا تعوّدوا ذلك، واستمروا عليه مدة من الزمان كثيرة، أمكن فيهم حينئذ أن يعلَّموا براهين ما أخذوه تقليدًا، وينبّهوا على طرق الفضائل واكتسابها والبلوغ إلى غاياتها بهذه الصناعة التي نحن بصددها)[٢٥].

فالمسلمون في العصور المتقدّمة لم يُغفلوا هذه الصناعة أو يهملوها، بل اهتموا بها اهتمامًا كبيرًا، تطبيقًا وتنظيرًا، وكان هذا الأمر قائمًا ومشاهَدًا في المدارس الفقهية والتربوية وغيرها من المجالات.

فقد رأينا المدارس والمذاهب الفقهية منذ نشأتها ركّزت على صنع هؤلاء الرجال، الذين يحملون فكر هذه المدرسة وينقلون علومها إلى الأجيال المتعاقبة، بل إنّ المدارس التي لم تهتمّ بهذه الصناعة وتؤسِّس لها؛ اندرستْ وانطوى ذكرها وأثرها، وذلك بسبب غياب هؤلاء الرجال الذين يحملون لواءها وينشرون علومها وآثارها.

نبدأ مع الإمام أبي حنيفة رحمه الله تعالى الذي اعتنى بصناعة تلامذته النجباء الموهوبين، فكان أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم، والشيباني محمد بن الحسن، وزفر بن الهذيل،

(٢١) الخطيب البغدادي، «الفقيه والمتفقّه»، ٢: ٢٩٠

(٢٢) ابن الأثير الجزري، علي بن أبي الكرم محمد بن محمد، «أُسد الغابة في معرفة الصحابة»، تحقيق: علي معوض، عادل عبد الموجود، (ط١، دار الكتب العلمية، ١٩٩٤م)، ٤: ٣٩٠

(٢٣) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه، حديث اليمامة ومن شهدها، رقم ٣٤٤١٤

(٢٤) الشاطبي، «الموافقات في أصول الفقه»، ١: ٢٨٦

(٢٥) ابن مسكويه، «تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق»، ص: ٤٥

والحسن بن زياد اللؤلؤي، الذين دوّنوا المذهب وحفِظوا كثيرًا من آراء إمامهم وأقواله وفتاويه، فكانوا قدوةً في ميدانهم، ومرجعًا في مدرستهم.

ثمَّ رأينا هذا الاهتمام نفسه بهذه الصناعة عند المدرسة المالكية، متمثّلة بمؤسِّسها الإمام مالك بن أنس رحمه الله تعالى، حيث كان من تلامذته: عبد الله بن وهب، وعبد الرحمن بن القاسم، وأشهب بن عبد العزيز، الذين نشروا مذهب إمامهم، وكانوا قدوة ومرجعًا في مدرستهم.

ثمَّ جاءت مدرسة الشافعية، فكان من تلامذة الإمام الشافعي في العراق: الزعفراني الحسن بن محمد، والكرابيسي الحسين بن علي، وكان من تلامذته في مصر: المزني إسماعيل بن يحيى، والبويطي يوسف بن يحيى، والمرادي الربيع بن سليمان، ففي كلّ مكان استقرَّ وأقام فيه الإمام الشافعي كان يصنع رجالًا، ويربِّي أئمّةً، يحملون فقهه وينشرونه في البلاد.

وعلى هذا النهج سارت مدرسة الحنابلة، فكان من تلامذة الإمام أحمد بن حنبل ولداه عبد الله وصالح، ومن تلامذته أيضًا الأثرم أحمد بن محمد، وأبو بكر المروذي، ولقد برعَ هؤلاء الرجال الذين تربَّوا على مائدة الإمام أحمد بن حنبل في نقل فقهه ونشره بين النَّاس.

وهذا النهج في صناعة الرجال القدوة كان ملحوظًا ومعتبَرًا عند أرباب السلوك والتربية، فعلى سبيل المثال كان أبو الحسن الشاذلي صاحب طريقة في التربية والسلوك، ومع ذلك لم يُعرَف عنه أنَّه ألَّفَ كُتبًا، وكلّ ما وصل إلينا من آثاره العلمية ما نقله أصحابه عنه من وصايا وأقوال مأثورة وأدعية وحِكَم، حيث كان الشيخ يرى أنَّ كتبه هي تلاميذه، وأنَّه خيرٌ له أن يَخرُج على يديه تلميذٌ يفهم علومه وأقواله وحكمه من أن يؤلِّف كتابًا، قد يقرؤه البعض أو لا يقرؤونه، وقد يفهمه البعض ويعجز عن فهمه البعض الآخر، ولقد سُئِلَ الشيخ أبو الحسن مرة: «لم يا سيدي لا تضعُ الكتب في الدلالة على علوم القوم؟»، فأجاب الشيخ: «كُتُبي أصحابي».

وهكذا نجد أنَّ الأساس الذي من خلاله حافظتْ المذاهب الفقهية والمدارس التربوية على وجودها واستمرارها وسعة انتشارها هو تهيئة هؤلاء الرجال من تلاميذ الأئمة وتربيتهم والاهتمام بهم، ليكونوا خير خلف لخير سلف، بينما كان الفناء أو الضياع مصير المدارس الأخرى التي لم تعتن بهذه الصناعة، إذ لم يكن لها تلاميذ يحملون أفكارها وينشرون علومها.

إن المدارس التي لا تجهد بتلقُّف الرجال والمواهب واستثمارها والعناية بها تموت بموتِ مؤسّسها، وهذه الصناعة هي التي تمنح الحياة للمدارس العلمية وتكفل استمرارها وتحافظ على بقائها، وما رأيناه وعايناه من تاريخ المدارس العلمية يطرد على الأمم والمجتمعات، فالمجتمع الذي لا يعتني بتربية أجيال صالحة يقتدي بها الناس وتحمل مسؤولية الأمة ورسالتها على عاتقها تضمحل وتختفي عند أول عاصفة اجتماعية أو سياسية وفي التاريخ شواهد كثيرة على ضياع أمم وشعوب شتى.

وممن تكلم في هذا الباب ابن خلدون في «مقدمته» حيث عقد فصلا بعنوان: (فصل في أنَّ التعليم للعلم من جملة الصنائع)[٢٦] حيث عد التعليم والتربية صناعة من الصنائع.

يقول ابن مسكويه: (هذه الصناعة، هي أفضل الصناعات كلِّها، أعني صناعة الأخلاق، التي تُعنَى بتجويد أفعال الإنسان بحسب ما هو إنسان... وجب أن تكون الصناعة التي تُعنى بتجويد أفعال الإنسان، حتى تصدر عنه أفعاله كلّها تامة كاملة بحسب جوهره، ورفعه عن رتبة الأخسِّ التي يستحقُّ بها المقت من الله، والقرار في العذاب الأليم، أشرف الصناعات كلها وأكرمها، وأما سائر الصناعات الأُخَر فمراتبها من الشرف بحسب مراتب جوهر الشيء الذي تستصلحه، وهذا ظاهر جدًا من تصفُّح الصناعات؛ لأن فيها الدباغة التي تُعنَى باستصلاح جلود البهائم الميتة، وفيها صناعة الطب والعلاج التي تهتمُّ باستصلاح الجواهر الشريفة الكريمة، وهكذا الهمم المتفاوتة التي ينصرف بعضها إلى العلوم الدنيئة، وبعضها إلى العلوم الشريفة)[٢٧].

إن ما ذُكر هنا عما كتبه علماء المسلمين هو غيض من فيض مما كتبوا ودونوا في هذه الصناعة، وإلا فإن للمسلمين تصانيف كثيرة اعتنت بتربية القدوة الصالحة وتوجيهه ومن أشهرها كتاب إحياء علوم الدين للإمام أبي حامد الغزالي رحمه الله، الذي يعلم الإنسان الإخلاص في القول والعمل والالتزام بكل ما جاء في تعاليم ديننا من حث على المعالي الدينية والدنيوية، وكثيرا ما نعى الإمام الغزالي في كتابه أولئك الفقهاء الذين كانوا قدوة سيئة لمجتمعاتهم وساهموا في تكريس الفساد عوض العمل على مواجهته.

يتحدث الإمام عن دور فقهاء السوء في إفساد المجتمع فيقول: (إن فساد الزمان لا سبب له إلا كثرة أمثال أولئك الفقهاء الذين يأكلون ما يجدون ولا يميزون بين الحلال والحرام، فتلحظهم أعين الجهال ويستجرئون على المعاصي باستجرائهم اقتداء بهم واقتفاء لآثارهم، ولذلك قيل: ما فسدت الرعية إلا بفساد الملوك وما فسدت الملوك إلا بفساد العلماء)[٢٨]، ويقول في موضع آخر: (وبالجملة إنما فسدت الرعية بفساد الملوك

(٢٦) ابن خلدون، «مقدمة ابن خلدون»، ١: ٥٤٣

(٢٧) ابن مسكويه، «تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق»، ص: ٤٦

(٢٨) الإمام أبو حامد الغزالي «إحياء علوم الدين» ٢ – ٢٣٨

وفساد الملوك بفساد العلماء فلولا القضاة السوء والعلماء السوء لقل فساد الملوك خوفا من إنكارهم)[٢٩].

واقع صناعة القدوة في عصرنا:

إن واقع صناعة القدوة في العالم العربي والإسلامي اليوم يعاني من ضياع مرير لا يختلف كثيرا عما تعيشه الأمة في ميادين الحضارة الأخرى، فمن جهة نفتقد القدوة الصالحة الذي تطابق أفعاله أقواله ومبادئه إلا ما رحم ربي، ومن جهة أخرى لا نجد العناية الكافية من الحكومات والمؤسسات المدنية لرعاية أصحاب الكفاءات والمواهب وتهيئتهم لخدمة الأمة والعمل لأجلها تحت كل الظروف.

وأخطر شيء في هذا الباب ما تعمل عليه وسائل الإعلام المرئية من تنظيم مسابقات للغناء والمواهب التافهة، حيث تقصد هذه البرامج إلى جعل الفنان أو الفنانة الفلانية المثل الأعلى لأبنائنا وأطفالنا، وليس فلان أو فلانة في أغلب الأحيان إلّا أناس من أحط المستويات الأخلاقية والمهنية في المجتمع شهرتهم ممارسة السفالة الأخلاقية وارتياد الحفلات الداعرة.

نعم في مقابل ذلك نجد كثيرا من المؤسسات الدينية والمدنية تعتني بتربية الطلاب وتنشئتهم على العلم والأخلاق، ولكن هذه المؤسسات غالبا ما تعجز عن تحقيق الأهداف التي بنيت لأجلها إلا في حدود ضيقة ونسب محدودة، ويعود السبب في ذلك إلى الخلل في محورين من محاور التربية الثلاثة، إذ إن عملية التربية وتهيئة القدوة تقوم على أركان ثلاثة الأول التلميذ والثاني المربي والثالث التربية، وغالبا ما يقع الخلل في فقدان المربي الصالح الذي يوافق قولُه عملَه وعملُه قولَه، أو في اتباع أساليب تربية خاطئة نتيجة لتصورات مشوهة عن الدين والحياة والأهداف المناطة بالجيل المسلم، وكثيرا ما يتم الاعتناء بالموهوبين وأصحاب القدرات لخدمة أفكار وأهداف جماعة معينة عوض العمل لأجل الأمة الواحدة، ومن عاش الواقع وعرفه يجد الخلل لا يعدو أحد هذين المحورين.

الخاتمة:

لقد كان هذا البحث محاولة لإضاءة هذا الجانب المهمل في واقع مؤسساتنا التربوية اليوم؛ لصالح مجموعة من التصورات الاعتباطية والعشوائية أو الغربية عن فن التربية وصناعة الرجال.

وإننا مطالبون اليوم بنشر الوعي بقضية التربية الصالحة وصناعة القدوة وفق أسس علمية صحيحة مستندة إلى توجيهات الشرع الحكيم، والتجارب العلمية المعاصرة أو السابقة التي وردتنا عن أسلافنا.

التوصيات:

- يجب على أهل العلم والسيادة في المجتمع أن يبدؤوا بإصلاح نفوسهم ومراقبتها ومحاسبتها على كل صغيرة وكبيرة ليكونوا قدوة صالحة لنشء هذه الأمة وشبابها.
- ينبغي أن يهتم الباحثون بهذا الجانب من الدين لما له من أثر كبير في تصويب عملية التربية وتطوير أساليب صناعة القدوة الحسنة.
- لقد تطور هذا العلم في الغرب تطورا كبيرا وينبغي أن ندرس أساليب التربية المعاصرة للاستفادة منها في صناعة القدوة المناسب لزماننا وعصرنا.
- إن أهداف الغرب من صناعة القدوات أو الرموز تختلف عن أهداف الإسلام، ولهذا ينبغي الحذر فيما ننقل عنهم، والسبيل إلى معرفة صوابه من خطئه فهم الفكرة الإسلامية عن الحياة أولا، ثم المقارنة بين مقاصد الدين في هذه الحياة ومقاصد الحضارة الغربية المادية، ومن ثمَّ سنتمكن من اختيار الوسائل المعاصرة التي لا تتعارض مع ثقافتنا ومبادئنا الإسلامية، وذلك بعد استيفاء الأساليب الإسلامية في ذلك.
- على المؤسسات التربوية أن تشمل في برامجها كل شرائح المجتمع وليكن التركيز على جيل الشباب بدل التركيز المستمر على جيل الأطفال.
- بالنسبة لواقعنا السوري فإن على مؤسساتنا أن تخصص جزءا من نفقاتها الإنسانية لصناعة النخب الصالحة والاعتناء بهم لعله يكون على يدهم الخلاص لشعبنا السوري المشرد في مشارق الأرض ومغاربها.
- علينا أن نشيع فكرة احترام القدوة وتقديره في مجتمعنا السوري، وينبغي أن يعرف الناس أن القدوة بشر يخطئ ويصيب، ولا يجوز الانجرار خلف الإعلام وأبواقه في إسقاط قادة المجتمع عند أول خطأ، بل ينبغي التعامل مع صوابهم وخطئهم بإنصاف تام.
- على من يجد في نفسه القدرة على أن يكون قدوة حسنة لمجتمعه في أي مجال من مجالات الحياة أن يتقدم بنفسه ويأخذ مكانه، ولا ينتظر حتى يكتشفه الآخرون، فإن الأمة بأمس الحاجة إلى المثل الصالحة في مجتمعنا، والله محاسب كل عبد على ما وهبه وأعطاه.

والحمد لله رب العالمين

(٢٩) «إحياء علوم الدين» ٢- ١٥٠

الحدود بين الغلو والرفض ضوابط وموانع

د. محمد نور حمدان
دكتوراه في الفقه الإسلامي

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد:

إن الحفاظ على أمن المجتمع مقصد رئيس من مقاصد الشريعة الإسلامية، ومن أجل الحفاظ على أمن المجتمع شرع الله تعالى عقوبات لعدد من الجرائم المرتكبة في المجتمع، وتنقسم هذه العقوبات في الشريعة الإسلامية إلى عقوبات حدية وتعزيرية.

فالعقوبات الحدية[1]: هي التي حدها الله عز وجل في كتابه الكريم لجرائم معينة خطيرة تمس أمن المجتمع، وتهدف هذه العقوبات إلى حماية المجتمع من الجريمة، والتقليل من وقوعها قدر الإمكان، فكانت هذه العقوبات زاجرة للمجرم رادعة لغيره، وقد اقتصرت العقوبات الحدية على جرائم خطيرة محددة لغايات معينة، ولا يجوز تجاوزها لغيرها من الجرائم.

وبالرغم من تشريع العقوبات الحدية إلا أنه وجدت ضوابط وموانع كثيرة من قيام هذه الحدود عند وقوع الجريمة الحدية بحيث إذا توافرت يسقط الحد ويستبدل بها عقوبة تقررها السلطة القضائية المختصة.

فالشريعة الإسلامية لم تتشوف إلى إيقاع العقوبة، ولا تعتبر إيقاع العقوبة هدفًا رئيسًا بمقدار ما تتطلع إلى حماية المجتمع، والحفاظ على أمنه وسلامته إلا أنه عند التعارض بين المصلحة العامة وهو الحفاظ على أمن المجتمع، والمصلحة الخاصة وهو إيقاع العقوبة كان لا بد من تقديم المصلحة العامة على الخاصة.

لذلك إن استقرأنا كتب السيرة نلاحظ أمرين اثنين، الأول: أن العقوبات الحدية التي طبقها رسول الله صلى الله عليه وسلم على المجرمين كانت قليلة جدًّا، والأمر الثاني: أن المجرم عندما يأتي معترفًا بالجريمة الحدية كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحاول أن يصرفه ولا يقيم عليه الحد.

وقد أثارت قضية الحدود في الشريعة الإسلامية جدلًا واسعًا، وكانت منفذا تسلل منه المستشرقون لضرب الدين الإسلامي وتشويه صورته، من خلال تصوير هذه العقوبات بأنها عقوبات قاسية تتنافى مع حقوق الإنسان وكرامته وآدميّته.

وبالمقابل فإن الممارسات الخاطئة في تطبيق الحدود من جماعات الغلو التي أرادت أن تطبق الشريعة الإسلامية وظنت أن تطبيق الشريعة الإسلامية يكون بدءًا من تطبيق الحدود في المجتمع؛ كان لها أثر كبير في تشويه قضية الحدود ومقاصدها؛ إذ اعتبرت أن تطبيق الحدود ومعاقبة الجناة مقصد من مقاصد الشريعة الإسلامية فأساءت للإسلام من حيث حسبت أنها أحسنت إليه، وشوهت قانون العقوبات في الإسلام بسبب التطبيقات الخاطئة للحدود، وجهلت أنه قبل الحديث عن تطبيق الحدود لا بد من تعليم المجتمع وتوعيته، وتوفير وسائل الأمن، ومقومات العيش الكريم.

صحيح أن الشريعة الإسلامية أمرت بتطبيق الحدود حماية للمجتمع من الجريمة، وكانت الغاية الأساسية من هذه الحدود الردع والزجر بحيث تقضي على أسباب الجريمة بشكل كامل وتستأصل شأفتها، إلا أنه يوجد ضوابط لهذه الحدود عند تطبيقها لا يمكن تجاوزها، ومن يتجاوزها يعتبر معتديًّا متجاوزًا للحق العام، إذ لا يعتبر تطبيق الحدود مقصدًا من مقاصد الشريعة الإسلامية، وإنما وسيلة من وسائل الإصلاح العام.

لقد تكلم الفقهاء كثيرًا عن ضوابط إثبات الحدود وإيقاعها على الجناة أو إسقاطها عنهم في كتب الفقه والسياسة الشرعية وغيرها، وقد حرصت في هذا البحث على جمعها وضبطها، ومن هذه الضوابط ما اتفق فيه الفقهاء، ومنها ما اختُلف فيه، **وقد صنفت هذه الضوابط إلى ثلاثة أنواع:**

(١) وهي خمسة عند الحنفية: حد السرقة ويدخل فيه حد الحرابة والبغاة، وحد الزنا، وحد الشرب، وحد السكر، وحد القذف، ودخل فيها عند بعض المذاهب حدي القصاص والردة، انظر الفقه الإسلامي وأدلته: ٧/ ٥٢٧٦

ضوابط سقوط الحد- ضوابط وسائل إثبات الحد- ضوابط إقامة الحد.

أولًا: ضوابط سقوط الحدود

الضابط الأول: أثر التوبة في الحدود

إن للتوبة أثرها في سقوط الحد، فمن ارتكب جريمة حدية ثم تاب من هذه الجريمة فهذه التوبة تسقط الحد باتفاق في جريمة الحرابة (قطع الطريق) وتسقطها في باقي الحدود على خلاف بين العلماء.

إن أثر التوبة في الحد درءًا أو إيجابًا يكون على حالتين:

الحالة الأولى: أن تكون توبته بعد القدرة عليه، فهذه التوبة لا تسقط الحد بالاتفاق.

الحالة الثانية: أن تكون توبة مرتكب الجريمة الحدية قبل القدرة عليه، وأثر التوبة في سقوط العقوبة الحدية في هذه الحالة ينقسم إلى قسمين:

محل اتفاق ومحل اختلاف.

١- محل الاتفاق:

وهو المحارب: إذا تاب قبل القدرة عليه سقط عنه الحد بالاتفاق، والأصل في هذا قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [سورة المائدة: آية ٣٣].

٢- محل الاختلاف:

وهو: في توبة ما عدا المحارب من مرتكبي الجرائم الحدية كالزنا والسرقة ونحوهما إذا تاب قبل القدرة عليه، ففي هذا خلاف على قولين.

القول الأول: قبول التوبة قبل القدرة عليه، وهذا هو المعتمد من مذهب الشافعية[٢]، وهو إحدى الروايتين عن الإمام أحمد[٣].

وحجتهم في ذلك أن القرآن نص على سقوط عقوبة المحارب بالتوبة، وجريمة الحرابة هي أشد الجرائم، فإذا دفعت التوبة عن المحارب عقوبته كان من الأولى أن تدفع التوبة عقوبة ما دون الحرابة من الجرائم، وأن القرآن لما جاء بعقوبة الزنا الأولى رتب على التوبة منع العقوبة، وذلك قوله تعالى: ﴿وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنْكُمْ فَآذُوهُمَا فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا﴾ [النساء: آية ١٦]، وذكر القرآن حد السارق وأتبعه بذكر التوبة في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ﴾ [المائدة: آية ٣٩]، وقد قال صلى الله عليه وسلم في ماعز لما أُخبر بهربه: ((هلا تركتموه يتوب فيتوب الله عليه))[٤].

ويشترط الفقهاء لتسقط العقوبة أن تكون الجريمة مما يتعلق بحق الله، أي أن تكون من الجرائم الماسة بحقوق الجماعة كالزنا والشرب، وألا تكون مما يمس حق الأفراد كالقتل أو الضرب[٥].

وقال ابن القيم رحمه الله تعالى: (نص الشارع، على اعتبار توبة المحارب قبل القدرة عليه، من باب التنبيه على اعتبار توبة غيره قبل القدرة عليه، بطريق الأولى، فإنه إذا دفعت عنه توبته حد حرابة مع شدة ضررها وتعديه، فلأن تدفع التوبة عنه ما دون حد الحرابة بطريق الأولى والأحرى، وقد قال الله تعالى: ﴿قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف﴾ [سورة الأنفال: آية٣٨])[٦].

وهذا قياس واضح الأولوية جلي الدلالة: فإنه ذكر الفرع المقيس: وهو توبة غير المحارب قبل القدرة عليه، وذكر الأصل المقيس عليه: وهو توبة المحارب قبل القدرة عليه، وذكر العلة الجامعة: وجود التوبة قبل القدرة وإزالتها للجريمة، وذكر الحكم وهو: سقوط الحد.

وبيّن أنه قياس الأولى: لأن الحرابة أشد ضررًا من سائر الحدود وقد قبلت، وقد أسقطت توبة المحارب حد الحرابة عنه، والضرر في سائر الحدود عدا الحرابة أقل منها ضررًا، والله أعلم[٧].

القول الثاني: أن توبة غير المحارب قبل القدرة عليه لا تسقط الحد عنه، وبه قال: أبو حنيفة، ومالك، والشافعي في أحد قوليه، وأحمد في إحدى الروايتين عنه[٨].

استُدِلَّ لهذا القول بعموم آيات إقامة الحدود في القرآن نحو قوله تعالى ﴿الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة﴾ [سورة النور: آية٢]، وقوله تعالى ﴿والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما﴾ [سورة المائدة: ٣٨]، وقوله تعالى ﴿والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة﴾ [سورة النور: ٤]، فهذه الآيات عامة في التائبين وغيرهم، ولهذا فإن التوبة قبل القدرة لا تسقط الحد عن التائب.

ونوقشت هذه الأدلة بأن هذا من العموم المخصّص، وقد قام الدليل على المخصِّص من السنة بسقوط الحد عن التائب قبل القدرة عليه كحديث المرأة الغامدية وحديث ماعز.

---

(٢) روضة الطالبين ١٠ / ٩٧

(٣) انظر: أعلام الموقعين ٢/ ٧٩، والمغني مع الشرح الكبير ١٠/ ٣١٦. انظر: نيل الأوطار ٧/ ١٢٠، الحدود والتعزيرات عند ابن القيم ص: ٧٤

(٤) مصنف ابن أبي شيبة (٢٩٣٧٩).

(٥) نهاية المحتاج ج٨ ص٦، المغني ج١٠ ص٣١٦، ٣١٧- التشريع الجنائي الإسلامي مقارنا بالقانون الوضعي (١/ ٣٥٥).

(٦) أعلام الموقعين ٢/ ٧٨

(٧) الحدود والتعزيرات عند ابن القيم ص: ٨٣

(٨) المغني مع الشرح الكبير ١٠/ ٣١٦- بدائع الصنائع ٧/ ٩٦. شرح الزرقاني ٨/ ١١٠

وفي بيان هذا يقول ابن القيم رحمه الله تعالى: (فإن قيل: فماعز جاء تائبًا، والغامدية جاءت تائبة، وأقام عليهم الحد؟ قيل: لا ريب أنهما جاءا تائبين، ولا ريب أن الحد أقيم عليهما، وبهما احتج أصحاب القول الآخر، وسألت شيخنا - يقصد ابن تيمية رحمه الله - عن ذلك، فأجاب بما مضمونه بأن الحد مطهر، وأن التوبة مطهرة وهما اختارا التطهر بالحد على التطهير بالتوبة، وأبيا إلا أن يطهرا بالحد، فأجابهما النبي صلى الله عليه وسلم إلى ذلك، وأرشد إلى اختيار التطهير بالتوبة على التطهير بالحد، فقال في حق ماعز ((هلاّ تركتموه يتوب فيتوب الله عليه)) ولو تعين الحد بعد التوبة لما جاز تركه، بل الإمام مخير بين أن يتركه كما قال لصاحب الحد الذي اعترف به: ((اذهب فقد غفر الله لك)) وبين أن يقيمه كما أقامه على ماعز والغامدية لما اختارا إقامته وأبيا إلا التطهير به، ولذلك ردهما النبي صلى الله عليه وسلم مرارًا وهما يأبيان إلا إقامته عليهما.

وهذا المسلك وسط بين مسلك من يقول: لا تجوز إقامته بعد التوبة البتة، وبين مسلك من يقول: لا أثر للتوبة في إسقاطه البتة، وإذا تأملت السنة رأيتها لا تدل إلا على هذا القول الوسط والله أعلم)[٩].

من خلال هذا العرض يتبين لنا أنه من ارتكب جريمة حدية ثم تاب عنها فالتوبة تدرأ الحد، ولا يجوز للسلطة القضائية أن تحقق معه، ولا يجوز لأحد من الناس أن يبلّغ عنه، بل التستر عنه أولى من التشهير به، وورد في موطأ الإمام مالك عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ، أَنَّ رَجُلًا اعْتَرَفَ عَلَى نَفْسِهِ بِالزِّنَا عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم، فَدَعَا لَهُ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم بِسَوْطٍ، فَأُتِيَ بِسَوْطٍ مَكْسُورٍ، فَقَالَ: ((فَوْقَ هذَا)) فَأُتِيَ بِسَوْطٍ جَدِيدٍ لَمْ تُقْطَعْ ثَمَرَتُهُ، فَقَالَ: ((دُونَ هذَا))، فَأُتِيَ بِسَوْطٍ قَدْ رُكِبَ بِهِ وَلاَنَ، فَأَمَرَ بِهِ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم فَجُلِدَ، ثُمَّ قَالَ: ((يَا أَيُّهَا النَّاسُ، قَدْ آنَ لَكُمْ أَنْ تَنْتَهُوا عَنْ حُدُودِ اللهِ، مَنْ أَصَابَ مِنْ هذِهِ الْقَاذُورَةِ شَيْئًا، فَلْيَسْتَتِرْ بِسِتْرِ اللهِ، فَإِنَّهُ مَنْ يُبْدِي لَنَا صَفْحَتَهُ، نُقِمْ عَلَيْهِ كِتَابَ اللهِ))[١٠].

الضابط الثاني: سقوط الحدود بالشبهة

إن الشبهة بأنواعها العديدة في الجريمة، سواء أكانت شبهة في الفعل، أم شبهة في الفاعل، أم شبهة في المحل، تدرأ الحدود وتسقطها بإجماع أهل العلم؛ قال ابن المنذر: (أجمع كل من نحفظ عنه من أهل العلم أن الحدود تدرأ بالشبهات، فمن زنى أو سرق أو شرب خمرًا جاهلًا بالتحريم بأن أسلم حديثًا أو نشأ في بلد بعيد عن العلماء أو سرق الدائن من مدينه ما يعادل دينه، ولو كان الدين مؤجلًا، أو سرق الضيف من مضيفه، أو سرق أحد الزوجين من الآخر، أو سرق الشخص من أحد أقاربه المحارم، أو ادعى المتهم وجود زوجية بينه وبين امرأة، فلا يقام عليه الحد؛ لأن الشبهة تجعل له معذرة)[١١].

والأصل في ذلك قوله صلى الله عليه وسلم: ((ادرؤوا الحدود بالشبهات))[١٢]، وحديث عائشة رضي الله تعالى عنها: ((ادرؤوا الحدود عن المسلمين ما استطعتم، فإن كان له مخرج فخلوا سبيله، فإن الإمام أن يخطئ في العفو خير من أن يخطئ في العقوبة))[١٣].

والحديث المروي في ذلك مشهور بين العلماء، وتلقته الأمة بالقبول وأصبحت (درء الحدود بالشبهات) قاعدةً فقهيةً معمول بها بين الفقهاء[١٤].

وقد عمل الصحابة بها بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم، فروي عن عمر بن الخطاب أنه قال: (لأن أعطل الحدود بالشبهات أحب إليّ من أن أقيمها بالشبهات)[١٥].

وقد أنكر الظاهريون قاعدة درء الحدود بالشبهات، فإنهم يرون أن الحد لا يحل درؤه بالشبهة، ولا يسلمون بصحة ما روي عن الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة[١٦].

ما يترتب على درء الحدود بالشبهات:

تختلف النتائج التي تترتب على الأخذ بقاعدة درء الحدود بالشبهات، ففي بعض الأحيان يؤدي تطبيق القاعدة إلى درء عقوبة الحد وتبرئة المتهم من الجريمة المنسوبة إليه، وفي بعض الأحيان يؤدي تطبيق القاعدة إلى درء عقوبة الحد وإحلال عقوبة تعزيرية محلها.

ويُبرأ المتهم من الجناية المنسوبة إليه في ثلاث حالات:

الأولى: إذا كانت الشبهة قائمة في ركن من أركان الجريمة، كمن أخذ خفية مالًا له وهو يعتقد أنه مال الغير، فإنه لا يعاقب على السرقة حدًّا ولا تعزيرًا؛ لانعدام ركن من أركان الجريمة، وهو كون المال مال الغير.

(٩) أعلام الموقعين ٢/ ٧٩

(١٠) موطأ الإمام مالك رقم: ٣٠٤٨

(١١) الفقه الإسلامي وأدلته ٧/ ٥٣٠٧ - الموسوعة الفقهية الكويتية (١٧/ ١٣٤)

(١٢) حديث: «ادرؤوا الحدود بالشبهات» أخرجه السمعاني كما في المقاصد الحسنة للسخاوي (ص ٣٠) ونقل عن ابن حجر أنه قال: «في سنده من لا يعرف».

(١٣) حديث: «ادرؤوا الحدود عن المسلمين ما استطعتم...» أخرجه الترمذي (٤ / ٣٣) من حديث عائشة، وضعفه ابن حجر في التلخيص ٤ / ٥٦

(١٤) ابن عابدين ٣ / ١٤٩، والأشباه والنظائر لابن نجيم ١٤٢، والقوانين الفقهية ٣٤٧، والأشباه والنظائر للسيوطي ١٢٢، والمنثور في القواعد ٢ / ٢٢٥، وروضة الطالبين ١٠ / ٩٢، ٩٣، وكشاف القناع ٦ / ٩٦- الموسوعة الفقهية الكويتية (١٧/ ١٣٥) - التشريع الجنائي الإسلامي مقارنًا بالقانون الوضعي (١/ ٢٠٨)

(١٥) مصنف ابن أبي شيبة ٢٩٠٥٨

(١٦) شرح فتح القدير ج٤ ص١٣٩

الثانية: أن تكون الشبهة قائمة في انطباق النص المحرم على الفعل المنسوب للمتهم، فمن تزوج بلا شهود أو بلا ولي، أو تزوج زواج متعة، لا يعاقب حدًا ولا تعزيرًا باعتباره زانيًا؛ لأن العلماء اختلفوا في هذه الأنكحة، فأحلها بعضهم وحرمها البعض الآخر، وهذا الاختلاف معناه الشك في انطباق نص الزنا على هذه الأفعال، ومن ثَمّ تجب تبرئة المتهم من الجناية المنسوبة إليه.

الثالثة: أن تكون الشبهة قائمة في ثبوت الجريمة، فإذا شهد شخصان على آخر بأنه شرب خمرًا، ثم عدلا عن شهادتهما ولم يكن هناك دليل آخر، درئ الحد لشبهة صدق الشاهدين في عدولهما، وبرئ المتهم مما نسب إليه، وإذا نسب إلى شخص يُجَنُّ ويفيق أنه ارتد أو سرق، ولم يعلم إن كان ارتكب الجريمة وقت الإفاقة أو وقت الجنون، درئ عنه الحد؛ لشبهة عدم التكليف، وبُرِّئَ مما نسب إليه.

وفيما عدا هذه الحالات الثلاث فإن تطبيق القاعدة إذا أدى لدرء الحد فإنه يؤدي في الوقت ذاته إلى استبدال التعزير بالحد أيًا كان مصدر الشبهة، كمن يسرق باب المسجد يدرأ عنه الحد لشبهة عدم الحرز ولكنه يعزر، وإذا نسب إلى شخص سرقة مثلًا، واشتبه فيما إذا كان بلغ الحلم أم لم يبلغ، درئ عنه الحد، وعزر على ما نسب إليه.

ومن يقر على نفسه بجريمة من جرائم الحدود ولا دليل عليه إلا إقراره يحد بإقراره، فإذا عدل عن إقراره كان عدوله شبهة تدرأ الحد، ولكنه يعزر بدلًا من عقوبة الحد[17].

فالقاضي يجب عليه أن يدرأ الحد عند أدنى شبهة، ودرء الحدود في الشبهات يثبت أن الشريعة لم تكن متشوفة إلى إقامة الحدود على الناس خلافًا لما يقوم به الغلاة اليوم من التسرع في إقامة الحدود ظنًا منهم أنهم يطبقون شريعة الله تعالى، فينبغي للقاضي أن يسأل المجرم أسئلة منوعة لعله يصل إلى شبهة تدرأ الحد، لا أن يقرره ويحقق معه حتى يقيم الحد عليه.

الضابط الثالث: سقوط الحدود بالرجوع عن الإقرار:

إذا ثبتت الحدود بالإقرار، فلا خلاف بين جمهور الفقهاء في أنها تسقط بالرجوع، إذا كان الحد حقًا لله تعالى؛ لأن الرجوع عن الإقرار يورث الشبهة، والحدود تدرأ بالشبهات[18].

إن الآثار الكثيرة المروية عن الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة تؤيد صحة هذه القاعدة، من ذلك أنه لما جاء ماعز معترفًا بالزنا للرسول صلى الله عليه وسلم؛ قال عليه الصلاة والسلام: ((لعلك قبلت، لعلك لمست، لعلك غمزت))[19] كل ذلك يلقنه أن يقول نعم بعد إقراره بالزنا.

وجيء له بسارق معترف بالسرقة فقال له: ((أسرقت؟ ما إخالك سرقت))[20]، ولما جاءته الغامدية مقرة بالزنا، قال لها نحوًا من ذلك.. فهذه جرائم من جرائم الحدود كان الدليل الوحيد فيها على الجريمة هو الإقرار، وكان الرسول يلقن المقر أن يعدل عن إقراره، ولو لم يكن للعدول أثره في درء الحد لما أوحى به الرسول للمقر.

ولما جاءت شراحة الهمدانية معترفة بالزنا لعلي رضي الله عنه قال لها: (لعلك وقع عليك وأنت نائمة؟ لعلك استكرهت؟ لعل مولاك زوجك منه وأنت تكتمينه؟)[21] وما كان علي كرم الله وجهه يقصد من هذه الأسئلة إلا ما قصده الرسول عليه السلام[22].

ومن أجل ذلك يرى بعض الفقهاء أنه يستحب للقاضي أن يعرِّض للمقر بالرجوع عن الإقرار إذا لم يكن ثمة دليل إلا الإقرار.

والرجوع عن الإقرار قد يكون نصًا، وقد يكون دلالة، بأن يأخذ الناس في رجمه، فيهرب ولا يرجع، أو يأخذ الجلاد في الجلد فيهرب، ولا يرجع، فلا يتعرض له، لأن الهرب في هذه الحالة دلالة الرجوع.

واستثنوا حد القذف، فإنه لا يسقط بالرجوع، لأنه حق العبد، وهو لا يحتمل السقوط بالرجوع بعدما ثبت كالقصاص، ويسقط الحد برجوع الشهود كلهم أو بعضهم إذا كان الباقي أقل من النصاب بعد القضاء، قبل الإمضاء[23].

وإذا تبين أن الإقرار كان نتيجة إكراه كان الحكم بالبراءة واجبًا، إذ الإقرار نتيجة الإكراه أو التهديد باطل.

ولأن الإقرار يكون حجة لترجيح جانب الصدق فيه، فإذا امتنع المقر عن الإقرار حتى هُدد أو أُكره فالظاهر أنه كاذب في إقراره، والعدول عن الإقرار الصحيح يدرأ به الحد للشبهة، ولكن الإقرار يبقى مع هذا مرجحًا فيه جانب الصدق، فيصلح دليلًا يُعزَّر به وإن لم يصلح دليلًا لعقوبة الحد، والمسألة على كل حال متروكة لتقدير القاضي، فإن اقتنع أن الإقرار صحيح عاقب بعقوبة تعزيرية، وإن لم يقتنع حكم بالبراءة.

وورد في بدائع الصنائع: (وأما بيان ما يسقط الحد بعد وجوبه فالمسقط له أنواع: منها الرجوع عن الإقرار بالزنا والسرقة والشرب

(١٧) التشريع الجنائي الإسلامي مقارنا بالقانون الوضعي (١/ ٢١٥)

(١٨) الموسوعة الفقهية الكويتية (١٧/ ١٣٥)

(١٩) صحيح البخاري: ٦٨٢٤- ٨/ ١٦٧

(٢٠) سنن البيهقي الكبرى: ١٧٧١٥- ٨/ ٢٧١

(٢١) سنن البيهقي الكبرى: ١٧٤١٧- ٨/ ٢٢٠

(٢٢) التشريع الجنائي الإسلامي مقارنا بالقانون الوضعي (١/ ٢١٥)

(٢٣) البدائع ٧/ ٦١- روضة الطالبين ١٠/ ٩٧- المغني ٨/ ١٩٧- الفقه الإسلامي وأدلته ٨/ ٦٠٩٩

والسكر؛ لأنه يحتمل أن يكون صادقًا في الرجوع وهو الإنكار، ويحتمل أن يكون كاذبًا فيه، فإن كان صادقًا في الإنكار يكون كاذبًا في الإقرار، وإن كان كاذبًا في الإنكار يكون صادقًا في الإقرار، فيورث شبهة في ظهور الحد، والحدود لا تستوفى مع الشبهات)[٢٤].

ولكل حد من الحدود تفاصيل في الإقرار، كعدد مرات الإقرار، وشروط المقر وغير ذلك، يمكن الرجوع إليها في كتب الفقه.

فيجب على القاضي أن يلقن المقر بالرجوع عن إقراره، وإن رجع المقر يخلي سراحه ولا يعاقبه أو يعاقبه بعقوبة تعزيرية مناسبة، وقد شهدنا اليوم الكثير من الحالات القضائية الظالمة التي يقام فيها الحد بالرغم من رجوع المقر عن إقراره وإنكاره للجريمة، ناهيك عن عدم اعترافه بها أصلا، بل يُكره المتهم ويُضرب ليعترف بأنه قام بهذه الجريمة الحدية ثم يعاقب عليها.

الضابط الرابع: سقوط الحدود بالتكذيب وغيره:

تكذيب المزني بها للمقر بالزنا قبل إقامة الحد عليه، وتكذيب المقذوف شهوده على القذف، وهي البينة بأن يقول: شهودي زور، كما أن ادعاء النكاح والمهر قبل إقامة حد الزنا تعتبر من مسقطات الحدود عند الحنفية.

يقول الكاساني في مسألة مسقطات الحدود: (و«منها» تكذيب المقذوف حجته على القذف - وهي البينة - بأن يقول بعد القضاء بالحد قبل الإمضاء: شهودي شَهِدُوا بزور؛ لأنه يحتمل أن يكون صادقًا في التكذيب فتثبت الشبهة، ولا يجوز استيفاء الحد مع الشبهة، «ومنها» تكذيب المزني بها المقر بالزنا قبل إقامة الحد عليه بأن قال رجل: زنيت بفلانة فكذبته وأنكرت الزنا، وقالت: «لا أعرفك» ويسقط الحد عن الرجل، وهذا قولهما، وقال محمد: لا يسقط)[٢٥].

وورد: (فأما إذا ادعت النكاح والمهر قبل إقامة الحد عليه يسقط الحد عن الرجل بالإجماع؛ لأنه لم يجب عليها للشبهة؛ لاحتمال أن تكون صادقة في دعوى النكاح فتمكنت الشبهة في وجوب الحد عليها، وإذا لم يجب عليها الحد؛ تعدى إلى جانب الرجل فسقط عنه وعليه المهر؛ لأن الوطء لا يخلو عن عقوبة أو غرامة)[٢٦].

ثانيًا: ضوابط وسائل إثبات الحدود

إضافة إلى الضوابط التي ذكرها الفقهاء في الحدود، توجد ضوابط أخرى خاصة بوسائل إثبات الحدود، **ومن هذه الضوابط:**

اتحاد المجلس:

ذهب الجمهور (الحنفية والمالكية والحنابلة) إلى أنه لا بد أن يكون الشهود مجتمعين في مجلس واحد عند أداء الشهادة في إثبات الزنا، فإن جاؤوا متفرقين يشهدون واحدًا بعد واحد، لا تقبل شهادتهم، ويُحدون وإن كثروا[٢٧].

عدم التقادم:

والمقصود بالتقادم هو مضي مدة من الزمن على ارتكاب الجريمة، وذهب الحنفية إلى أن عدم التقادم في البينة شرط، وذلك في حد الزنا والسرقة وشرب الخمر، وليس بشرط في حد القذف، وذكر ابن أبي موسى أنه مذهب لأحمد.

ووجه ذلك: أن الشاهد إذا عاين الجريمة فهو مخير بين أداء الشهادة حسبة لله تعالى: ﴿وأقيموا الشهادة لله﴾ [سورة الطلاق: آية ٢]، وبين الستر على أخيه المسلم لقوله عليه الصلاة والسلام: ((من ستر مسلمًا ستره الله يوم القيامة))[٢٨].

فلما لم يشهد فور المعاينة دل ذلك على اختيار جهة الستر، فإذا شهد بعد ذلك دل على أن الضغينة حملته على ذلك، فلا تقبل شهادته، لما روي عن عمر رضي الله عنه أنه قال: ((أيما قوم شهدوا على حد لم يشهدوا عند حضرته، فإنما شهدوا عن ضغن، ولا شهادة لهم)) ولم ينقل أنه أنكر عليه أحد، فيكون إجماعًا، ولأن التأخير والحالة هذه يورث تهمة، ولا شهادة للمُتَّهَم[٢٩].

تكرار الإقرار:

ذهب الحنفية والحنابلة إلى أنه يشترط أن يقر الزاني أو الزانية أربع مرات، وبهذا قال الحكم وابن أبي ليلى وإسحاق واستدل الحنفية والحنابلة بما روي أن ماعزًا جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأقر بالزنا، فأعرض عنه النبي صلى الله عليه وسلم بوجهه الكريم إلى الأربع، فلو كان الإقرار مرة موجبًا للحد لما أخره إلى الأربع[٣٠].

علم الإمام أو نائبه في الحدود:

ذهب الحنفية والمالكية والحنابلة والشافعية في قول: إلى أنه ليس للإمام أو نائبه إقامة الحد بعلمه لأن تجويز القضاء بعلمه يفضي إلى تهمته، والحكم بما اشتهى، ويحيله على علمه، يقول ابن قدامة: («ولا يحكم الحاكم بعلمه» ظاهر المذهب أن الحاكم لا يحكم بعلمه في حد ولا غيره، لا فيما علمه قبل الولاية ولا بعدها، هذا قول شريح، والشعبي، ومالك، وإسحاق، وأبي عبيد، ومحمد

(٢٤) بدائع الصنائع: ٧/ ٦١
(٢٥) بدائع الصنائع: ٧/ ٦١
(٢٦) بدائع الصنائع: ٧/ ٦١
(٢٧) الفقه الإسلامي وأدلته، ٧/ ٥٣٧٦
(٢٨) أخرجه مسلم (٤ / ١٩٩٦)
(٢٩) البدائع ٧/ ٤٦
(٣٠) البدائع ٧/ ٤٩- والمغني ٨/ ١٩١

بن الحسن، وهو أحد قولي الشافعي)[٣١].

واستدلوا على ذلك بقول النبي صلى الله عليه وسلم: ((إنما أنا بشر، وإنكم تختصمون إلي، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، فأقضي له على نحو ما أسمع منه))[٣٢]، فدل على أنه إنما يقضي بما يسمع لا بما يعلم، وقال النبي صلى الله عليه وسلم في قضية الحضرمي والكندي: ((شاهداك أو يمينه))[٣٣].

ثالثًا: ضوابط إقامة الحد

يراعى في إقامة الحد أمور، منها ما يعم الحدود كلها، ومنها ما يخص البعض دون البعض:

الإمامة:

اتفق الفقهاء على أنه لا يقيم الحد إلا الإمام أو نائبه، وذلك لمصلحة العباد، وهي صيانة أنفسهم وأموالهم وأعراضهم، والإمام قادر على الإقامة لشوكته ومنعته، وانقياد الرعية له قهرًا وجبرًا، كما أن تهمة الميل والمحاباة والتواني عن الإقامة منتفية في حقه، فيقيمها على وجهه فيحصل الغرض المشروع بيقين، ولأن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقيم الحدود، وكذا خلفاؤه من بعده، وصرح الحنفية باشتراط الإمام أو نائبه لإقامة الحد[٣٤]، يقول الكاساني: (وبيان ذلك أن ولاية إقامة الحد إنما ثبتت للإمام؛ لمصلحة العباد وهي صيانة أنفسهم وأموالهم وأعراضهم... والإمام قادر على الإقامة لشوكته ومنعته وانقياد الرعية له قهرًا وجبرًا، ولا يخاف تبعة الجناة وأتباعهم؛ لانعدام المعارضة بينهم وبين الإمام، وتهمة الميل والمحاباة والتواني عن الإقامة منتفية في حقه فيقيم على وجهها فيحصل الغرض المشروع له الولاية بيقين)[٣٥].

يقول الدكتور عبد القادر عودة: (من المتفق عليه بين الفقهاء أنه لا يجوز أن يقيم الحد - أي العقوبات المقررة لجرائم الحدود - إلا الإمام أو نائبه؛ لأن الحد حق الله تعالى ومشروع لصالح الجماعة فوجب تفويضه إلى نائب الجماعة وهو الإمام، ولأن الحد يفتقر إلى الاجتهاد ولا يؤمن في استيفائه من الحيف والزيادة على الواجب، فوجب تركه لولي الأمر يقيمه إن شاء بنفسه أو بواسطة نائبه)[٣٦].

يقول الزحيلي: (واختلف الفقهاء حول تولي القاضي الشؤون الآتية: ١ - إقامة الحدود. ٢ - صلاة الجمعة والعيدين. ٣ - أموال الصدقات.

فبعضهم أسندها للقاضي؛ لأنه كالوصي المطلق إلا ما اختَصّ به الخليفة نفسه من شؤون الجيش وقتال البغاة وجباية الخراج.

وبعضهم لم يدخلها في اختصاص القاضي لأنه وكيل عن الإمام الأعظم، وليس للوكيل أن يتعدى حدود وكالته، ودليلهم أن عمر رضي الله عنه نهى الولاة عن تنفيذ حكم الإعدام على أحد إلا بعد مشاورته وموافقته، وقاسوا القضاة على الولاة، ويظهر أن هذا الرأي هو الأرجح؛ لأن القاضي وكيل عن الإمام الأعظم، فليس له أن يتعدى حدود وكالته)[٣٧].

فوجود حاكم للمسلمين شرط أساسي لإقامة الحدود وإن لم يوجد الإمام لا يجوز إقامة الحد كما هو الحال في سوريا.

أهلية الشهادة عند الإقامة:

لو بطلت أهلية الشهادة بالفسق أو الردة، أو الجنون، أو العمى، أو الخرس، أو حد القذف، أو غيرها بالنسبة لكلهم أو بعضهم بحيث ينقص النصاب لا يقام الحد على المشهود عليه، لأن اعتراض أسباب الجرح على الشهادة عند إمضاء الحد بمنزلة اعتراضها عند القضاء به، واعتراضها عند القضاء يبطل الشهادة، فكذا عند الإمضاء في باب الحدود وهذا عند الحنفية والمالكية.

يقول الكاساني: (ومنها أهلية أداء الشهادة للشهود عند الإقامة في الحدود كلها، حتى لو بطلت الأهلية بالفسق أو الردة أو الجنون أو العمى أو الخرس أو حد القذف، بأن فسق الشهود أو ارتدوا أو جنوا أو عموا أو خرسوا أو ضربوا حد القذف كلهم أو بعضهم لا يقام الحد على المشهود عليه؛ لأن اعتراض أسباب الجرح على الشهادة عند إمضاء الحد بمنزلة اعتراضها عند القضاء به، واعتراضها عند القضاء يبطل الشهادة فكذا عند الإمضاء في باب الحدود عن القضاء)[٣٨].

في تأخير الحد لعارض:

يقرر العلماء في مسائل منثورة من أبواب الحدود خاصة في بابي (الزنا) و (السرقة) تأخير الحد لعارض من حر أو برد أو حمل أو رضاع أو نحو ذلك[٣٩].

وتأخير الحد لعارض أمر يشكل قاعدة شرعية: وهي تأخير الحد لعارض يترتب عليه مصلحة للإسلام أو للمحدود أو لمصلحة من تعلق به كالحمل والرضيع، وابن القيم رحمه الله تعالى يشير إلى ذلك في معرض كلامه عن تأخير الحد عن الغزاة، حيث

(٣١) المغني: ١٠/ ٥٠

(٣٢) صحيح البخاري: ٦٩٦٧

(٣٣) المغني: ١٠/ ٥٠، والحديث رواه البخاري: ٢٦٦٩

(٣٤) الموسوعة الفقهية الكويتية (١٧/ ١٤٥)

(٣٥) بدائع الصنائع، ٧/ ٥٨

(٣٦) التشريع الجنائي الإسلامي مقارنا بالقانون الوضعي، ١/ ٧٥٥

(٣٧) الفقه الإسلامي وأدلته ٨/ ٥٩٣١

(٣٨) بدائع الصنائع: ٧/ ٥٩

(٣٩) المغني مع الشرح الكبير ١٠/ ١٣٨ - زاد المعاد ٣/ ٢٠٦

يقول: (تأخير الحد لعارضٍ أمرٌ وردت به الشريعة كما يؤخر عن الحامل والمرضع، وعن وقت الحر والبرد، والمرض لمصلحة المحدود)[٤٠].

واستدل ابن القيم رحمه الله تعالى لذلك بما جاء في حديث الغامدية فقال: (وفي صحيح مسلم، جاءت الغامدية فقالت: يا رسول الله، إني قد زنيت فطهرني، وأنه ردها فلما كان من الغد، قالت: يا رسول الله، لم تردّني، لعلك أن تردَّني كما رددت ماعزًا، فوالله أني لحبلى، قال: أما الآن، فاذهبي حتى تلدي، فلما ولدت أتته بالصبي في خرقة، قالت: هذا قد ولدته، قال: اذهبي فأرضعيه حتى تفطميه، فلما فطمته أتته بالصبي، وفي يده كسرة خبز، فقالت: هذا يا نبي الله قد فطمته، وقد أكل الطعام، فدفع الصبي إلى رجل من المسلمين ثم أمر بها صلى الله عليه وسلم فحفر لها إلى صدرها وأمر الناس فرجموها...)[٤١].

وجه الاستدلال:

قد قرر ابن القيم رحمه الله تعالى أن هذا الحديث يدل على تأخير الحد - أي حد من الحدود - لأي من المصالح المترتبة على تأخيره[٤٢]، ولهذا هو يقرر هذه القاعدة وهي تأخير الحد لعارض فيه مصلحة للمحدود أو لغيره، وعليه جاز تأخيره لكلّ مصلحة تترتب على التأخير، ومنه جعل هذه القاعدة من مؤيدات تأخير الحد عن الغزاة بل هو أولى كما تقدم والله أعلم.

وورد عن الترمذي في سننه: (والعمل على هذا عند بعض أهل العلم منهم: الأوزاعي، لا يرون أن يقام الحد في الغزو بحضرة العدو مخافة أن يلحق من يقام عليه الحد بالعدو، فإذا خرج الإمام من أرض الحرب ورجع إلى دار الإسلام أقام الحد على من أصابه)[٤٣].

تقسيم العوارض حسب المصلحة الموجبة لتأخير الحد:

ومن هنا نستطيع أن نقسم العوارض الموجبة لتأخير الحد على ما يأتي:

١- عارض لمصلحة الإسلام والمسلمين، كما في تأخيره عن الغزاة كما تقدم.

٢- عارض لمصلحة المحدود ذاته كما في تأخيره لحر أو برد أو مرض.

٣- عارض لمصلحة المحدود وغيره كما في تأخيره عن الحامل.

٤- عارض لمصلحة الغير كما في تأخيره عن المرضع حتى يفطم الرضيع، وكما في تأخيره عن الحامل إذا كان الحد بالقتل، والله أعلم[٤٤].

ختامًا:

بعد هذا العرض يمكن التأكيد على عدة نقاط:

- حفظ أمن المجتمع مقصد رئيس من مقاصد الشريعة الإسلامية، فالهدف من تشريع الحدود هو الحفاظ على المجتمع وحمايته من الجريمة.
- الشريعة الإسلامية لم تتشوف إلى إيقاع الحدود بل كانت متشوفة إلى درء الحدود ما استطاعت.
- لا يجوز التسرع في إقامة الحدود فهو مجاوزة للحد واعتداء على الناس.
- لا يجوز إقامة الحدود إلا في ظل سلطة مستقرة ومجتمع آمن توفر له تلك السلطة أسباب الحياة الكريمة ومقوماتها، فإن وقعت الجريمة الحدية بعد ذلك عندها يستحق المجرم إقامة الحد عليه بعد توافر الشروط لإقامة الحد وانتفاء الموانع.

وفي نهاية البحث يمكننا ذكر أهم الضوابط في تطبيق الحدود:

- تسقط الحدود بالتوبة قبل الوصول إلى القضاء.
- تسقط الحدود بالشبهة.
- يسقط الحد برجوع المقر عن إقراره.
- لا يقيم الحد إلا الإمام أو نائبه.
- يشترط في الشهادة على الحدود اتحاد المجلس وعدم التقادم وتكرار الإقرار وأهلية الشهود عند الإقامة، فإن اختل شرط من هذه الشروط يسقط الحد.
- لا يثبت الحد بعلم الإمام أو نائبه بل لا بد من الإقرار أو الشهادة.
- يمكن تأخير الحدود لمصلحة أو لعارض يراه الإمام.

والحمد لله رب العالمين

(٤٠) زاد المعاد ٣/ ٢٠٦

(٤١) زاد المعاد ٥/ ٢٧

(٤٢) الحدود والتعزيرات عند ابن القيم (ص: ٧٠)

(٤٣) سنن الترمذي: ٣/ ١٠٥.

(٤٤) الحدود والتعزيرات عند ابن القيم (ص: ٧٠).

فقه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

د. معاذ الخن - رئيس مجلس الإفتاء السوري

الحمد لله حمدًا كثيرًا، شرع لنا دينًا قويمًا، وهدانا صراطًا مستقيمًا، وأسبغ علينا نعمه ظاهرةً وباطنةً، والصلاة والسلام الأتمّان الأكملان على سيِّدنا محمَّدٍ وآله وصحبه، وبعد:

فإنّ من أهمِّ تكاليف هذا الدِّين العظيم الأمرَ بالمعروف والنهيَ عن المنكر، ولأهميّة هذا المبدأ يكفي أن نعلم أنّ الله تعالى قد أمر به في عدة مواضع في كتابه الكريم، بصيغة الأمر تارة، كقوله تعالى: ﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر﴾ [سورة آل عمران: آية ١٠٤]، وتارة في معرض الوصف بالخيرية، كقوله تعالى: ﴿كنتم خير أمَّة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله﴾ [سورة آل عمران: آية ١١٠]، وتارة بأن هذه المهمة من أعظم مهام الرسالة النبوية، كقوله تعالى: ﴿الذين يتبعون الرسول النبي الأمّي الذي يجدونه مكتوبًا عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر﴾ [سورة الأعراف: آية ١٥٧]، وتارة بالوصف المستقر للمؤمنين، كما في قوله تعالى: ﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر﴾ [سورة التوبة: ٧١].

بل وامتدح الله بهذه المهمة الأمم السابقة جماعات وأفرادًا فقال سبحانه: ﴿ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون * يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر﴾ [سورة آل عمران: آية ١١٤]، وقال في وصية لقمان: ﴿يا بني أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك﴾ [سورة لقمان: آية ١٧]، وجعل هذه المهمة من شروط التمكين لهذه الأمة فقال: ﴿الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر﴾ [سورة الحج: آية ٤١]، وسأتكلّم حول هذا الركن العظيم من أركان الدين بما يعرف به ويقرّبه إلى واقع الأمة اليوم، من خلال التعرّض لأربعة من أهمّ مسائله، وهي: دور الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على مستوى الأمة، أركان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ثم مسؤولية الجماعة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأخيرًا درجات إنكار المنكر.

حكم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأثره في الأمة

حكم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

هو بالأصل فرض كفاية بشروطه التي سأذكرها، فقد قال الله تعالى: ﴿ولتكن منكم أمةٌ يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر﴾ [سورة آل عمران: آية ١٠٤]، وعلى هذا فهو جائزٌ لآحاد المسلمين بالشروط المعتبرة، لكن **نصّ الفقهاء على أنّ فرض الكفاية قد يتعين في حالات، منها على سبيل المثال:**

الأولى: إذا كان المنكر في موضع لا يعلم به إلا هو، وكان متمكنًا من إزالته.

الثانية: في موضع ودائرة مسؤولية الإنسان، كالأب في بيته، والمدير في دائرته، كما جاء في الحديث ((والرجل راعٍ على أهل بيته ومسؤول عن رعيته))[1].

الثالثة: إذا لم يكن أحد قادرًا على تغييره إلا هو فيتعين عليه.

نستطيع أن نلخص دور الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في أمرين أساسيين هما، الأول: حراسة الدين في واقع الناس،

(١) متفق عليه، البخاري في باب تأويل قوله تعالى: «من بعد وصية يوصى بها أو دين» عن ابن عمر، ومسلم في باب فضيلة الإمام العادل عن ابن عمر.

الثاني: تكوين رأي عام فاضل.

وإن الدافع للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عند المسلم؛ الأول: رجاء ثواب الله تعالى، الثاني: الخوف من العقوبة على تركه، الثالث: الغضب لله تعالى أن تنتهك محارمه، وإجلال الله ومحبته وتعظيمه، فهو أهلٌ لأن يُطاع فلا يعصى، ويُذكر فلا يُنسى، ويُشكر فلا يُكفر، الرابع: النصيحة للمؤمنين والرحمة بهم من أن تنالهم عقوبة الله تعالى.

من خصائص هذه الأمة:

قال الله تعالى في معرض حديثه عن هذه الأمة: ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله﴾ [سورة آل عمران: آية ١١٠]، فلا يسمح لأحد أن يخرج جهارًا على قيم المجتمع الإسلامي، ممّا يحقق السيادة المطلقة لقيم الإسلام، وبذلك تأمن سفينة المسلمين من الغرق في لجج المعاصي والمفاسد الأخلاقية والاجتماعية التي هي سبب الهلاك والدمار والزوال، وتأمن من العقوبة الربانية التي تنزل بالأمة إذا تخلت عن هذا الواجب الاجتماعي الجماعي، لذا نلاحظ أنّ الأمم السابقة استحقت غضب الله ونقمته عندما تركت النهي عن المنكر، فغدا المفسدون يرتعون ويسرحون ويمرحون في قيم الأمة ويتلاعبون فيها كما يشاؤون، قال تعالى: ﴿لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون * كانوا لا يتناهون عن منكرٍ فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون﴾ [سورة المائدة: آية ٧٨-٧٩]، ولو سلكت هذه الأمة هذا الطريق لحلّ بها ما حلّ بمن قبلها.

المسؤولية الجماعية والحرية المقيّدة:

لا يوجد حرية مطلقة بنظر كل الأديان والمبادئ والمذاهب، فالجميع يقولون بالحرية المقيّدة، ولكن يختلف هؤلاء بتحديد تلك القيود ومن يملك صلاحيات وحق التقييد، فالقيود عند المسلمين دينية شرعية، وعند غيرهم قوانين وضعية، وعلى هذا فالنهي عن المنكر لا يعد تعديًا على الحريات، بل هو تقييد شرعي لها، صحيح أنّ المسؤولية في الأصل هي مسؤولية فردية، لكن المسؤولية الفردية لا تلغي المسؤولية الجماعية، وهذا ما أشكل على كثير من الناس حتى في عصر الصحابة الكرام رضي الله عنهم أجمعين، فقد ثبت أنّ أبا بكر الصديق رضي الله عنه قال في خطبته: (أيّها الناس إنّكم تقرؤون هذه الآية ﴿يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضلّ إذا اهتديتم﴾ [سورة المائدة: آية ١٠٥] وإنّكم تضعونها على غير موضعها، وإنّي سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: ((إنّ النّاس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه أوشك أن يعمهم الله بعقابٍ منه))[٢].

أركان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

هما ركنان أساسيان، الأول: العلم، والثاني: القدرة.

الركن الأول: العلم

إن العلم بهذا الأمر يشمل أربع مسائل: (العلم بالحكم، والعلم بالوقوع، والعلم بآداب الأمر والنهي، والعلم بمآلات الأمر أو النهي).

العلم بالحكم:

ينبغي لمن يتصدى للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أن يكون عالمًا بالأمر المأمور به أو المنهي عنه، فالعلم إمام العمل كما قال معاذ بن جبل رضي الله عنخ، وأكد هذا المعنى عمر بن عبد العزيز رحمه الله إذ قال: ((مَنْ عَبَدَ الله بغير علم كان يفسد أكثر ممّا يصلح))[٣]، يقول الإمام ابن تيمية رحمه الله: ً(فلا بدّ من العلم بالمعروف والمنكر والتمييز بينهما، ولا بدّ من العلم بحال المأمور وحال المنهي)[٤] وعلى هذا **فالأمور التي يؤمر بها أو يُنهى عنها قسمان:**

ما يستوي في علمه أكثر الناس:

ويندرج في ذلك ما علم من الدين بالضرورة، كوجوب الصلاة والصيام، وحرمة الربا والزنا وشرب الخمر، وتحريم الحلف بغير الله تعالى، وتحريم الظلم والعدوان، وتحريم الاستطالة على الأموال والأنفس والأعراض، هذه المسائل متفق على تحريمها بغير خلاف معتبر، فيجب الأمر والنهي فيها، نفعت الذكرى أم لم تنفع.

ما كان مختلفًا فيه بين العلماء اختلافًا معتبرًا: وله حالتان:

الأولى: في مسائل الاجتهاد، ما دام الخلاف فيها قائمًا معتبرًا، فلا إنكار فيه مطلقًا، فمن يعمل بأحد هذه الأقوال لا يُنكر عليه، وعليه قعّد العلماء قاعدة (لا إنكار في موارد الاجتهاد)، قال الإمام ابن تيمية: (مسائل الاجتهاد من عمل

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب الفتن وقال: حديث حسن صحيح. وأخرجه أحمد في مسند أبي بكر وابن ماجه في باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهو صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

(٣) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لابن تيمية ص٦٨، وورد في مصنف ابن أبي شيبة ٧/ ١٨٧ من كلام الحسن البصري.

(٤) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر للإمام ابن تيمية رحمه الله ص٦٨

فيها بقول بعض العلماء لم يُنكر عليه ولم يُهجر، ومن عمل بأحد القولين لم يُنكر عليه)[٥]، ويقول في موضع آخر: (وأما الاختلاف في الأحكام فأكثر من أن ينضبط، ولو كان كلما اختلف مسلمان في شيء تهاجرا لم يبق بين المسلمين عصمةٌ ولا أخوة)[٦]، ففي مسائل الاجتهاد لا يسوغ الإنكار بل يجوز الإرشاد والمدارسة لبيان الراجح فيها، إلا إن علم المنكِر أن الفاعل يرى تحريم ما يُنكر عليه.

> اشترط العلماء في إزالة المنكر أن يكون موجودًا في الحال فتكون الإزالة تتناول الحال أو الاستقبال، وأما الماضي فتتناوله العقوبة وهي من اختصاصات السلطان

الثانية: ما كان في دقائق مسائل الشرع التي حسم الخلاف فيها، وأضحى وجه الحق فيها واضحًا عند أهل الاختصاص، فلا يجوز لكل أحد أن ينكر فيها؛ لأنها تحتاج إلى فهم دقيق، ويمكن لأهل العلم والتخصص الإنكار فيها، ومثالها دقائق مسائل الاعتقاد.

العلم بوقوع المنكر بحيث يكون ظاهرًا بغير تجسس:

قال الله تعالى ﴿ولا تجسسوا﴾، والأصل عدم تتبع عورات المسلمين، قال عمر رضي الله عنه: (إنّ ناسًا كانوا يُؤخذون بالوحي في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، وإن الوحي قد انقطع وإنما نأخذكم الآن بما ظهر لنا من أعمالكم، فمن أظهر لنا خيرًا أمنّاه وقربناه وليس إلينا من سريرته شيء، الله يحاسب سريرته، ومن أظهر لنا سوءًا لم نأمنه ولم نصدقه وإن قال سريرته حسنة)، والناس بعد هذا ضربان: الأول: مستور لم يعرف بشيء من المنكرات، فإذا وقعت منه هفوة أو زلة فإنه لا يجوز كشفها ولا هتكها ولا التحدث بها، والثاني: من كان مشتهرًا بالمعاصي معلنًا بها ولا يبالي بما ارتكب منها ولا بما قيل له، فهذا فاجر معلن لا بأس بمتابعته لتقام عليه الحدود.

العلم بآدابهما، وأهمها ثلاثة: الرفق، والتدرج، والصبر.

(١) فالرفق: قال سفيان الثوري: (لا يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر إلا من كان فيه ثلاث خصال: رفيق فيما يأمر رفيق فيما ينهى، عدلٌ بما يأمر عدلٌ فيما ينهى، عالمٌ فيما يأمر وعالمٌ فيما ينهى)[٧]، وهو الأصل في أسلوب الأمر والنهي، وما كان على خلافه فهو الاستثناء، والنبي صلّى الله عليه وسلّم قال: ((إنّ الله رفيق يحب الرفق في الأمر كله، ويعطي عليه ما لا يعطي على العنف))[٨]، وقال: ((إن الرفق لا يكون في شيء إلاّ زانه ولا يُنزع من شيء إلا شانه))[٩]، ولهذا قيل: (ليكن أمرك بالمعروف بمعروف، ونهيك عن المنكر غير منكر)[١٠]، وأمثلة جدوى الرفق في هذا المقام من السيرة النبوية وتراجم المصلحين أكثر من أن تحصر، وأشهر من أن تذكر، وهو موضوع طويل بالإمكان أن يفرد بالبحث فيملأ الكثير من الصفحات، وهنا أشير إلى نقطة مهمة، وهي أن النهي عن المنكر ليس عقوبة، بل هو إما تذكير (باللسان) أو تغيير وإزالة (باليد)، والأمر والنهي والإزالة حق لكل مسلم بشروطه كما سأبين، وعلى هذا يجب الاقتصار في التغيير على قدر الحاجة، ولكن العقوبة حق للسلطان وحده، ولهذا اشترط العلماء في إزالة المنكر أن يكون موجودًا في الحال فتكون الإزالة تتناول الحال أو الاستقبال، وأما الماضي فتتناوله العقوبة وهي من اختصاصات السلطان، قال الإمام أبو حامد الغزالي رحمه الله: (كل منكر موجود في الحال، ظاهر للمحتسب بغير تجسس، معلوم كونه منكرًا بغير اجتهاد)[١١].

(٢) التدرج: والمقصود بذلك معرفة مراتب التعامل مع مرتكب المنكر مثلًا، فإنّ كثيرًا من الناس يقررون الهجر والمقاطعة لأول وهلة، مع أنها ليست المرتبة الأولى في التعامل مع المنكَر عليه، لذا **رتب العلماء مراتب التعامل**:

الأول: التعريف، لأنّ المرتكب قد يكون جاهلًا والجاهل يُعلّم، وهذا متوقع خاصة في أزماننا هذه، ففي كثير من بلاد المسلمين هناك تجهيل متعمد بالدين، ولا يتلقى الطالب مثلًا إلا معلومات ضحلة عن مبادئ الدين، ويرافق التعريف كما بينت الترفق والتلطف والإرشاد والتوجيه، كل

(٥) مجموع الفتاوى ٢٠/ ٢٥٧

(٦) مجموع الفتاوى ٢٤/ ١٧٣

(٧) جامع العلوم والحكم ١/ ٣٢٥

(٨) أخرجه مسلم عن عائشة في كتاب البر والصلة.

(٩) أخرجه مسلم عن عائشة في كتاب البر والصلة.

(١٠) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر للإمام ابن تيمية ص٥٦

(١١) إحياء علوم الدين ٢/ ٣٥٢

ذلك مجلل بالرحمة والحرص على هذا المرء.

الثاني: الوعظ والنصح والتخويف من الله تعالى، فالمنكَر عليه هنا عالم بالحكم الشرعي، فالتذكير بالله تعالى والتحذير من مخالفته والتخويف من عقوبته من الذكرى التي تنفع المؤمنين كما قال تعالى: ﴿وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين﴾ [سورة الذاريات: الآية ٥٥]، وليحرص أن يكون ذلك في السر ليعينه على قبولها فلا تأخذه العزة بالإثم، وليدرك أن القصد النصح لا التشهير.

الثالث: التغليظ بالقول، إذا لم ينفع ما ذكر، فلا مانع من إغلاظ القول، لكن ضمن ضوابط الشريعة في خطاب الناس، ويكون ذلك على قدر الحاجة وبحدود ضيقة ولا يقول إلا حقًا، قال تعالى في مثل هذا المقام ﴿فأعرض عنهم وعظهم وقل لهم في أنفسهم قولًا بليغا﴾ [سورة النساء: الآية٦٣].

الرابع: التهديد والتخويف، بالتغيير باليد، أو بالإبلاغ عنه إلى من يملك ذلك، أو التهديد بالهجران أو المقاطعة وعدم الزيارة، أو عدم تلبية دعوته وأكل طعامه، ولا يجوز له أن يهدده بوعيد ليس من حقه أن يهدده به، كتحريق بيته أو ضربه، أو ما شابه ذلك.

> لا بدّ للآمر بالمعروف والناهي عن المنكر أن يتمثل بثلاث خصال: العلم قبله، والرفق عنده، والصبر بعده

الخامس: الهجر والمقاطعة، ويكون ذلك عند الإصرار بعد استخدام كل ما سبق، فلا يكون أكيله ولا جليسه ولا زائره، فقد جاء في الحديث عن ابن مسعود رضي الله قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ((إن أول ما دخل النقص على بني إسرائيل أنّ الرجل كان يلقى الرجل فيقول: يا هذا اتق الله ودع ما تصنع فإنه لا يحل لك، ثم يلقاه من الغد وهو على حاله فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده، فلما فعلوا ضرب الله قلوب بعضهم على بعض ثم قال: ﴿لُعن الذين كفروا من بني إسرائيل...﴾ الآية))[١٢]، وهناك تفصيل للعلماء في مسألة الهجر يحسن الرجوع إليها.

(٣) الصبر: فمما ينبغي أن يُعلم أنّ الآمر والناهي لا يتوقع الاستجابة ابتداءً، أو على الأقل استجابةً فورية، فضلًا عن توقع الرد القبيح، الذي قد يصل إلى الأذى باللسان أو باليد، فعند ذلك ينبغي التحلي بالصبر واحتساب الأجر، وأسوأ ما يمكن تصوره في هذه الحالة الندم على ما قام به من الأمر أو النهي، وليعتبر هذا من الابتلاء في نصرة الدين وإظهار الحق والصدع به، وجاء في وصية لقمان لابنه في الكتاب الكريم ﴿يَابُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [سورة لقمان: آية ١٧]، وقالوا لا بدّ للآمر بالمعروف والناهي عن المنكر أن يتمثل بثلاث خصال: العلم قبله، والرفق عنده، والصبر بعده.

النظر في المآلات:

من العلم الواجب لمن يتصدى للأمر بالمعروف أو النهي عن المنكر أن يكون عالما بمآلات ما يقوم به، وذلك أن الشريعة جاءت لتحقيق المصالح ودرء المفاسد، ومن ذلك تحقيق خير الخيرين ودفع شر الشرين، وهذا مقدرٌ بميزان الشريعة، ويكفي في تقدير ذلك اليقين أو غلبة الظن، ذكر ابن القيم أن **إنكار المنكر أربع درجات**:

الأولى: أن يزول المنكر ويخلفه ضده (أي المعروف).

الثانية: أن يقلّ وإن لم يزل بجملته.

الثالثة: أن يتساويا، أي يزول المنكر ويعقبه منكر قريب منه.

الرابعة: أن يزول ويخلفه منكر شر منه.

قال: فالأولى والثانية مشروعتان، والثالثة موضع اجتهاد، والرابعة محرمة.

ومثلوا للدرجة الرابعة ترك النبي صلّى الله عليه وسلّم قتل عبد الله بن أبي، بل ونهيه عن ذلك، لئلا يتحدث الناس أنّ محمدًا يقتل أصحابه، وكذلك نهيه تعالى عن سب آلهة المشركين مع أنها باطلة حتى لا يسبوا الله عدوًا بغير علم، وذكر ابن القيم مثالًا من فهم شيخه ابن تيمية لهذه القاعدة فقال: (مررت أنا وبعض أصحابي في زمن التتار بقوم منهم يشربون الخمر، فأنكر عليهم من كان معي،

(١٢) تفسير ابن كثير ٢/ ٧٨، وأخرجه أبو داود في سننه في باب الأمر والنهي عن ابن مسعود. وأخرجه البيهقي بَابُ مَا يُسْتَدَلُّ بِهِ عَلَى أَنَّ الْقَضَاءَ وَسَائِرَ أَعْمَالِ الْوُلَاةِ مِمَّا يَكُونُ أَمْرًا بِمَعْرُوفٍ، أَوْ نَهْيًا عَنْ مُنْكَرٍ مِنْ فُرُوضِ الْكِفَايَاتِ.

فأنكرت عليه وقلت له: إنّما حرّم الله الخمر لأنّها تصدّ عن ذكر الله وعن الصلاة، وهؤلاء تصدهم الخمر عن قتل النفوس وسبي الذراري وأخذ الأموال فدعهم)[١٣]، ثم ذكر كلامًا نفيسًا فقال: (ومن تأمل ما جرى على الإسلام في الفتن الكبار والصغار رآها من إضاعة هذا الأصل وعدم الصبر على منكر فطلب إزالته فتولد منه ما هو أكبر منه، فقد كان رسول الله يرى بمكة أكبر المنكرات ولا يستطيع تغييرها، بل لما فتح الله مكة وصارت دار إسلام عزم على تغيير البيت ورده على قواعد إبراهيم ومنعه من ذلك مع قدرته عليه خشية وقوع ما هو أعظم منه من عدم احتمال قريش لذلك لقرب عهدهم بالإسلام وكونهم حديثي عهد بكفر)[١٤]، وقال الإمام ابن تيمية رحمه الله: (وإذا اشتبه الأمر استبان المؤمن حتى يتبين له الحق، فلا يقدم على الطاعة إلا بعلم ونية وإذا تركها كان عاصيًا، فترك الواجب معصية، وفعل ما نهي عنه من الأمر معصية، وهذا باب واسع)[١٥].

الركن الثاني: القدرة

والأصل في هذا قوله تعالى: ﴿لا يكلف الله نفسًا إلا وسعها﴾ [سورة البقرة ٢٨٦]، وجاء في الحديث الصحيح عن أبي سعيد الخدري قوله صلّى الله عليه وسلّم((من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فمن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان))[١٦]، وفي رواية: ((وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل))، فواضح من الحديث ربط التغيير بالقدرة والاستطاعة، ولقد قال تعالى: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [سورة الحج ٤١]، فالآية أشارت إلى التمكين، وهو من أعلى مراتب الاستطاعة، **فالقدرة تنتقض بأمرين:**

الأول: العجز الحسي الفعلي.

الثاني: بالخوف من المكاره الكبيرة.

وهي المكاره المحققة التي تلحق الإنسان في نفسه أو بدنه أو ماله، ولا عبرة بالضرر اليسير كالكلمة النابية أو السب والشتم، فهذا قد لا يخلو منه إنكار منكر، وهذا المراد في وصية لقمان لابنه: ﴿وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك﴾ [سورة لقمان: ١٧]، لكن **فرّق العلماء بين حالتين:**

الأولى: توقع حصول الضرر البالغ عليه وحده، فهنا يكون حكم المكلف مترددًا بين أخذه بالرخصة أو بالعزيمة، فله أن ينكر مع توقع حصول هذا الضرر على سبيل العزيمة، وله الترك من باب الرخصة، وعلى هذا يُحمل قوله صلى الله عليه وسلم: ((أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر))[١٧]، وقوله ((سيد الشهداء حمزة، ورجل قام إلى سلطان جائر فوعظه فقتله))[١٨]، لأنّ الإنسان له أن يتسامح في حقوق نفسه، ولكن يخلص في ذلك كله لله تعالى، لكن في بعض الحالات تنتفي الرخصة في حق العالم المقتدى به كما أشار بعض أهل العلم، إذا كان السكوت يقتضي فتنة كبيرة على الأمة وإضلالًا لها، كما حصل مع الإمام أحمد رحمه الله في امتحانه بمسألة القول بخلق القرآن فكان لا يرى لنفسه رخصة بالسكوت، وهذا ما صرح به.

> إذا كان المنكر لا يزال إلا باجتماع مجموعة تتعاون على إزالته؛ وجب اجتماعهم بقصد إزالته، وإذا كان بالإمكان إزالة المنكر دون ذلك يصبح هذا التجمع مندوبًا ومستحبًا من قبيل التعاون على البر والتقوى ما لم يؤد إلى محظور

الثانية: توقع حصول ضرر على أهله أو جماعته أو من ينتمي إليهم فكريًا، فهنا يمتنع عن النهي إلا بإذنهم، لأنّه ليس له أن يتسامح في حقوقهم، أو يلحق بهم أذى بغير إذنهم ورضاهم، وكما بينت سابقًا كل هذا مبني على أساس اليقين أو غلبة الظن، قال ابن رجب: (من خشي في الإقدام في الإنكار على الملوك أن يؤذي أهله أو جيرانه لم ينبغ التعرض لهم حينئذ، لما فيه من تعدي الأذى إلى غيره، كذلك قال الفضيل بن عياض وغيره، ومع هذا متى خاف منهم على نفسه السيف أو السوط أو الحبس أو القيد

(١٣) إعلام الموقعين ٣/ ١٥

(١٤) المرجع السابق.

(١٥) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ص٦١

(١٦) أخرجه مسلم عن أبي سعيد، بَابُ بَيَانِ كَوْنِ النَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ مِنَ الْإِيمَانِ، وَأَنَّ الْإِيمَانَ يَزِيدُ وَيَنْقُصُ، وَأَنَّ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاجِبَانِ.

(١٧) أخرجه أحمد عن أبي سعيد الخدري، وأبو داود في كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وابن ماجه في كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

(١٨) أخرجه الحاكم في مستدركه عن جابر، قال الحاكم: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه.

أو النفي أو أخذ المال أو نحو ذلك من الأذى، سقط أمرهم ونهيهم، وقد نص الأئمة على ذلك، منهم مالك وإسحق وغيرهم، قال أحمد: لا يتعرض إلى السلطان فإن سيفه مسلول)[١٩].

مسؤولية الجماعة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

جاءت الآيات مصرحة بالدور الجماعي لهذا الواجب الشرعي كقوله تعالى: ﴿ولتكن منكم أمةٌ يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر﴾ [سورة آل عمران: ١٠٤]، ويتأكد هذا الواجب الجماعي في زمان ضيعة الدين وعدم قيام الجهات الرسمية بهذا الواجب، بل في بعض البلاد على العكس تمامًا نجد هذه الجهات هي التي تأمر بالمنكر وتشجع عليه وتروج له، وينشأ من ذلك ضعف الأفراد وعجزهم عن القيام ببعض صور هذا الواجب، لا سيما في مثل هذه المنكرات التي انتشرت وتدعمها جهات متنفذة أو رسمية، فعندها تكون الجماعة أقدر على القيام بهذا الواجب من الفرد، لكن **بشروط ذكرها أهل العلم، منها**:

- التزامها الكامل بشروط القيام بهذا الواجب مما جاء في شرط العلم، كأن يكون هذا المنكر مما أجمع على إنكاره وليس من مسائل الاجتهاد المختلف فيها.
- أن تكون هذه المجموعة موالية لجماعة المسلمين وإمامهم إن كان لهم إمام وجماعة.
- ألا تشق عصا الطاعة ولا تخلع يدًا من طاعة، إن كان هذا المنكر لا يصل إلى أن يكون كفرًا بواحًا لا يقبل تأويلًا ولا تسويغًا، فليس ثمة ولاية خاصة تقدم على ولاية عامة.
- ألا تقدم مصلحة أفرادها على مصلحة المسلمين العامة، بل يكون هدفها مصلحة المسلمين العامة.
- ألا يكون في أهدافها دعوة أو نصرة لعصبية.

وعلى هذا إذا كان المنكر لا يزال إلا باجتماع مجموعة تتعاون على إزالته؛ وجب اجتماعهم بقصد إزالته، على قاعدة (ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب)، وإذا كان بالإمكان إزالة المنكر دون ذلك - ومبنى ذلك على الظن وغلبته أو على اليقين- يصبح هذا التجمع مندوبًا ومستحبًا، ويأتي الاستحباب لأن هذا الاجتماع من قبيل التعاون على البر والتقوى ما لم يؤد إلى محظور، فعند ذلك تدخل المسألة في فقه الموازنات بين المصالح والمفاسد.

درجات إنكار المنكر

نلاحظ في فقه الاستطاعة في باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الملاحظات الآتية:

إن الإنكار والتغيير باليد واللسان ربطا بالاستطاعة، بينما الإنكار بالقلب يستطيعه كل مسلم، فلم يذكر فيه الاستطاعة، وهو في الوقت نفسه مؤشر على صدق الإيمان، فمن تأثّر قلبه لرؤية المنكر وتمعّر وجهه فهذا من علامات صدق الإيمان، وتعظيم حرمات الله والغيرة على محارمه، وأمّا من لم يجد في قلبه شيئًا من هذا فيخشى أن يكون ذلك من علامات ضعف الإيمان، فكيف لو سرّ بالمنكر وانشرح له صدره، فلا شك أنّ شائبة النفاق شابت إيمانه.

إن التغيير باليد يقوم به من كان قادرًا عليه، لكن ينبغي التنبيه على مسائل:

الأولى: التغيير باليد واجب في دائرة المسؤولية والرعاية لقوله صلى الله عليه وسلم ((والرجل راع على أهل بيته ومسؤول عن رعيته))[٢٠]، وهكذا في كل دوائر المسؤولية، ويقع على قمة هرم المسؤولية، الحاكم ذو السلطان، فهو مسؤول عن الأمة بأسرها، ومن أوجب واجباته تغيير المنكر باليد حفاظًا على الدين.

الثانية: إذا ترتب على تغيير المنكر باليد فتنة؛ لم يجز لآحاد الناس أن يقوموا بذلك، كما هو حال زماننا إذ عم الجهل بأحكام الشريعة وضعف القائمون بأحكام الدين وشرائعه، فإنّه لا يؤمن الفساد والفتن لو أطلق جواز التغيير باليد في مثل هذه الأحوال، فيقتصر التغيير باليد على الحاكم أو من يقيمه الحاكم في أمر الحسبة، على أن يكون التغيير باليد على قدر الحاجة، ويدخل ذلك التغيير في دائرة المسؤولية.

ويبقى الإنكار باللسان جائزًا بشروطه، قال الجويني: (ويسوغ لآحاد الرعية أن يصدَّ مرتكب الكبيرة إن لم يندفع عنها بقوله، ما لم ينته الأمر إلى نصب قتال وشهر سلاح، فإن انتهى الأمر إلى ذلك رُبط الأمر بالسلطان)[٢١].

وفي الختام، هذه جملةٌ من آداب الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر وأحكامِها، حري بكل مسلم أن يطَّلع عليها ويكون على علم ودرايةٍ بها، لأنَّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أوجَب الواجبات، لكن عن علم وفقه وحكمة، والله الموفِّق والهادي إلى سواء السَّبيل.

(١٩) جامع العلوم والحكم، ص٢٨٢

(٢٠) سبق تخريجه.

(٢١) السيل الجرار للشوكاني ص٥٨٦

السنن الإلهية

أ. د. أحمد معاذ حقي علوان
أستاذ العقيدة والمذاهب المعاصرة
في جامعة الزهراء

إن الله سبحانه وتعالى خلق هذا الكون وَفق سنن، وهذه السنن هي القوانين التي أودعها الله في هذا الكون، وأخضعه لها بما فيه من مخلوقات؛ لتكون تلك السنن حاكمة لكل صغيرة وكبيرة، وتتصف تلك السنن بمجموعة من الصفات التي تعطيها صفة القانون الرياضي الصارم، فهي من جهة لا تتبدل ولا تتحول، ومن جهة أخرى مطردة، تتكرر على الوتيرة نفسها كلما توفرت الشروط، وانتفت الموانع ﴿سُنَّةَ اللهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلًا﴾ [سورة الأحزاب: آية ٦٢].

وهذه السنن والقوانين هي وفق إرادة الله ومشيئته النافذة، ولذلك لا تختل، ولا تتبدل، ولا تحابي أحدًا، ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [سورة القمر: آية ٤٩]، ويعلمنا القرآن الكريم أن للتقدم قوانينه وسننه، وأن التخلف والتأخر ليسا إلا ثمرة لغياب هذه السنن والقوانين، فليس التقدم أماني وأحلامًا للكسالى والقاعدين، حتى لو حسنت منهم النيات، وصحت لديهم المعتقدات النظرية، فحتى الإيمان الديني لا يكتمل إلا إذا جاء العمل ليجسد التصديق، وشواهد القرآن الكريم على هذه الحقيقة تتعدى اقتران الإيمان بالعمل في آياته الكريمة الكثيرة – وهو ملحظ له دلالته الكبرى – وإنما نرى هذه الشواهد في مثل قوله سبحانه وتعالى: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [سورة النساء: آية ١٢٣][1].

إن معرفة هذه السنن جزء من معرفة الدين، وهي معرفة ضرورية، ومن الواجبات الشرعية؛ لأنها تبصرنا بكيفية السلوك الصحيح في الحياة حتى لا نقع في الخطأ[2]، ثم إن اكتشافها وحسن التعامل معها ضروري لعملية الاستخلاف وعمارة الأرض التي كلفنا الله تعالى بها، والعصبة المؤمنة مأمورة باكتشافها وحسن التعامل معها، فهذا ذو القرنين الملك المؤمن يسر الله له أسباب التمكن والملك والسلطان، فسلك الطريق الذي يسره الله له[3] ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا * فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾ [سورة الكهف: آية ٨٤ و ٨٥].

سبيل المعرفة بالسنن الكونية

مما ينبغي التنبيه عليه أنه لا يوجد علم فلسفة التاريخ، وإنما هناك محاولات من الفلاسفة والمؤرخين والاجتماعيين لفهم أسباب قيام الحضارات واندثارها، وكلها محاولات لم تصل إلى حد وضع قواعد أو قوانين أو حتى خطوط عريضة واضحة تُعين أو تساعد على تعريفنا بالطريق الصحيح الذي ينبغي على البشر أن يسيروا فيه لبناء مجتمع يُوفّر أسباب السعادة للبشر، واختلاف المؤرخين والفلاسفة في ذلك هو دليل على عدم وضوح الرؤية، ورغم أن توينبي[4] هو أكبر من حاول فلسفة التاريخ في عصرنا، لم يقل قط إنه فيلسوف تاريخ، وأحسن ما قيل فيه إنه شاعر[5].

والسبب في عدم إدراك هذه السنن يعود بالدرجة الأولى إلى أن العقل البشري لا يمكن أن يستقل بهذه المعرفة ابتداء، فلا بُدَّ من فهم القرآن الكريم أولًا باعتباره الكتاب المقروء الذي أخبرنا خالق الكون عن هذه السنن فيه، ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [سورة ص: آية ٢٩] فهو مصدر لبيانها، وثانيًا: لا بد من إعمال العقل في الكتاب المرئي – الكون – لاستنباط السنن، ولذلك يدعونا القرآن الكريم إلى النظر والتفكر في تضاعيف السماوات والأرض لاستنباط السنن، ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [سورة الحج: آية ٤٦]، ويأمرنا بالسير في الأرض والتدبر في الحضارات وتقلبها، والاستفادة من تجربتها، ولو كانت حضارة كافرة حتى لا نقع في أخطائها، ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [سورة آل عمران: آية ١٣٧]، ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا

(١) (هل الإسلام هو الحل لماذا وكيف) محمد عمارة: ص ٣٩

(٢) راجع (السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية)، عبد الكريم زيدان: ص ١٦

(٣) راجع (تفسير القرآن العظيم) ابن كثير: ص ١١٧٠

(٤) أرنولد توينبي مؤرخ وفيلسوف إنكليزي معاصر، توفي سنة ١٩٥٧م. راجع (مدخل إلى تاريخ الحضارة) شحادة الناطور وآخرون: ص ٤٦

(٥) راجع (الحضارة دراسة في أصول وعوامل قيامها وتطورها) حسين مؤنس: ص ٨-٩

عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [سورة الروم: آية٩]، فلا بد من العقل المستنير بنور الوحي أن يتبصر في تاريخ الأولين وسيرهم لاستنباط العبر والسنن الربانية[٦]، بينما العقل المجرد البعيد عن نور الله تعالى يقع في أخطاء فادحة؛ لأنه يفسر الظواهر تفسيرًا سطحيًّا كما قال الحق عز وجل: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ [سورة الروم: آية٧].

ومن جهة أخرى فإن الحياة البشرية تجري بمقتضى سنن أجراها الله في خلقه، ثبتها سبحانه وتعالى لتنظيم الحياة البشرية، وكثير منها تكون أطول مدى في تحققها من حياة الفرد القصيرة المحدودة، وخاصة ما يتعلق منها بالجماعات البشرية، ولما كانت السنن الإلهية طويلة المدى في تحققها وجب علينا ألا نستخرج النتائج خلال جيل أو جيلين؛ لأننا سنقع في أخطاء منهجية، لهذا وجهنا الله سبحانه وتعالى إلى تدبر التاريخ، واستخراج العبر منه؛ إذ التاريخ هو المجال الواقعي الذي تحققت فيه السنن الربانية من قبل، ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [سورة العنكبوت: آية٢٠].

فما لا يدرك الإنسان تحققه في فرصة عمره المحدود يستطيع أن يراه متحققًا في التاريخ، ونحن مأمورون بتدبر هذه السنن واتباعها، وهي متصلة بالعقيدة كما هي متصلة بالعوالم الإنسانية؛ لأن الله هو الذي أجراها، وهو وحده يستطيع أن يخرقها، ومن هنا تختلف حتمية السنن الربانية عن الحتمية المادية، أو الحتمية التاريخية التي اصطبغها ماركس[٧]، أو الحتمية النفسية التي اصطبغها فرويد[٨]، أو الحتمية الاجتماعية التي اصطبغها دوركايم[٩]، التي تلغي كلها إيجابية الإنسان إزاء الضغوط الواقعة عليه خارج كيانه، أو من داخل كيانه، وتجعله عبدًا ذليلًا للأوضاع المادية، وفرق كبير بين حتمية السنن الربانية – على هذه الصورة – المؤكدة لإنسانية الإنسان، وإيجابياته، والاعتراف بوعيه، وحريته، وإرادته، ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ [سورة الشمس: آية ٧-١٠]، وبين الحتميات الزائفة التي أتت بها الجاهلية المعاصرة.

نماذج من السنن الإلهية

لعلنا نشير إلى بعض هذه السنن التي ذكرها الحق في كتابه ليرتكز عليها العالم المؤمن حين ينظر في تضاعيف السماوات والأرض لاستنباط السنن الكونية، منها:

١- **حيادية القوانين الربانية:** من السنن العامة أن الله يعطي على الجهد في الدنيا للمؤمنين والكافرين سواء على قدر ما يبذلونه من الجهد بالطريقة الصحيحة قال تعالى: ﴿كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [سورة الإسراء: آية٢٠]، وهذا يعني أن التمكين في الدنيا ليس في ذاته مقياسًا للخيرية، وإلا لكان المغول – الذين هجموا على الشرق وأزالوا دولًا ودكُّوا حضارات – خير الناس، وإن كنا مأمورين بأن نبلغ التمكن فيها أيضًا، كما أن التمكين في الأرض والاستمرار في التمكين من لوازم الإيمان، ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [سورة الأنبياء: آية١٠٥]، وهذا يعني أيضًا أن الاستمرار في التمكن لا يمكن أن يحصل مع الكفر؛ لأنه لا يملك أدوات الاستمرارية، بل فيه بذرة الفناء والدمار.

٢- **سنن الله في الاختلاف:** من القوانين والسنن سنن الاختلاف، ومن حاول أن يجعل الناس أمة واحدة فمرده إلى الفشل، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ [سورة هود: آية١١٨]، فالله عز وجل يبين لرسوله صلى الله عليه وسلم ولو شاء ربك يا محمد لجعل الناس كلها جماعة واحدة على ملة واحدة ودين واحد، قال قتادة: لجعلهم مسلمين كلهم، وقوله: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ أي ولا يزال الناس مختلفين، ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ﴾ [سورة

---

(٦) لتوضيح هذه المسألة أقول إن العلماء الغربيين الذين حاولوا البحث في بدايات الإنسان أمثال (توينبي) نظروا إليه على أنه كان أقرب ما يكون إلى حيوان لا يعلم شيئًا، وهذه النتائج التي توصل إليها تخمينات، وتعارض نصوص الوحي التي تخبرنا أن الإنسان كانت تشمله عناية الله ورحمته منذ أن خلقه، وهذا مبحث جليل والأدلة عليه كثيرة، ومنها لما قتل أحد ابني آدم أخاه علّمه ربه عن طريق الغراب كيف يواري أخاه، ﴿فَبَعَثَ اللهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾ [المائدة: ٣١] وعلى هذا المفهوم أنكر حسين مؤنس على ابن حزم قوله: إن هذه العلوم من ميراث علم النبوة، لاشك أن كثيرًا من العلوم أسس بنيانها الأنبياء ثم أضاف البشر على ذلك من خبراتهم، فنوح عليه السلام أوحي إليه في كيفية صناعة السفينة، ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾ [هود: ٣٧]، والدروع أول من صنعها داود عليه السلام، ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٨٠]، ولا شك أن الناس بعد ذلك طوروا صناعة الدروع.

(٧) كارل ماركس (١٨١٨م – ١٨٨٣ م) مفكر اقتصادي، ولد من عائلة يهودية تسكن ألمانيا، صاحب نظرية المادية التاريخية، وحاول تفسير أحداث التاريخ على أساس العوامل المادية وحدها، راجع (موسوعة الفلسفة) عبد الرحمن بدوي:٢ / ٤٠٧-٤١٨

(٨) فرويد (١٨٥٦ – ١٩٣٩م) ولد من أسرة يهودية، وهو مؤسس التحليل النفسي، والفكرة الأساسية التي يقوم عليها مذهبه أن الغرض الأساسي من كل فعل يقوم به الإنسان هو تحصيل أكبر لذة، وجعل الألم أقل ما يمكن، ورأى أن السلوك الإنساني يتجه نحو السعادة بمعنى تحصيل أكبر لذة، أو إشباع الحاجات الحسية. راجع (موسوعة الفلسفة) عبد الرحمن بدوي: ٢ / ١٢٢ – ١٢٣

(٩) دور كايم (١٨٥٨ – ١٩١٧م) فيلسوف اجتماعي ولد في فرنسا من أسرة يهودية، وتتلخص فلسفته في أن الواقعة الاجتماعية لا تفسر إلا بواقعة اجتماعية أخرى، وهذا يعني أنه لا يجوز رد الظواهر الاجتماعية إلى وقائع اقتصادية، وإلى أسباب أخرى جزئية. راجع (موسوعة الفلسفة) عبد الرحمن بدوي: ١ / ٤٨٠ – ٤٨٢

هود: آية١١٩]، قال بعض أهل التأويل: هو الاختلاف في الأديان، فتأويل ذلك على رأي هؤلاء: ولا يزال الناس مختلفين على أديان شتّى من بين يهودي، ونصراني، ومجوسي، ونحو ذلك[١٠].

ومع ذلك نحن مأمورون بالدعوة قطعًا للعذر وإبراءً للذمة، ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [سورة الأعراف: آية١٦٤].

٣- **سنن الله في التداول:** من السنن الربانية سنة التدافع، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾ [سورة البقرة: آية٢٥١]، وقال: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيرًا﴾ [سورة الحج: آية٤٠].

ومن هنا فإن العلو في الأرض لا ينحصر في شعب دون شعب، ولا في قوم دون قوم، ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [سورة آل عمران: آية١٤٠]، إن المداولة توحي بالحركة الدائمة وبالتجدد وبالأمل، وتقرر أن الأيام ليست ملكًا لأحد، ومن ثم لا داعي لليأس والهزيمة، فمن هم في القمة ستنزل بهم حركة الأيام إلى الحضيض، ومن هم في القاع الآن ستصعد بهم الحركة نفسها إلى القمة، إن المداولة القرآنية تحمل كافة جوانب إيجابيتها التاريخية: حركة العالم المستمرة، وتمخّض الصراع الفعال، وديمومة الأمل البشري الذي يرفض الحزن والهوان[١١]، ولقد آمن كثير من المؤرخين وفلاسفة الحضارة بظاهرة التعاقب الحضاري، حتى غدت عندهم حقيقة ثابتة لا مراء فيها، والحق أنها قاعدة يجب أن تكون متفقًا عليها، وهي سنة الله في خلقه، وهذا أمر ثابت منذ كان للحضارة وجود، وإلا لكانت الإنسانية عرفت حضارة واحدة، فظلت قائمة منذ الأزل إلى ما شاء الله، ثم عاشت الإنسانية في ظلام. فتعاقب الحضارات والأمم والتبدل بين القوة والضعف على مسرح التاريخ؛ شاهد على سنة الله في خلقه، وقد غدت فكرة دورات التاريخ وتداول الحضارة من أهم الأفكار والنظريات التي حظيت باهتمام فلاسفة الفكر الحضاري لدى الغرب ابتداءً من فلاسفة اليونان، ومرورًا بالفكر الكنسي وانتهاء بالعصر الحديث في أوربا، وإن اختلفت في تفسير أسباب سقوط الحضارات[١٢].

٤- **شروط الاستخلاف في الأرض:** إن السنن الخاصة بقيام الأمم وزوالها من أهم ما نقرؤه في القرآن الكريم في هذا الباب، وهي من أهم ما يحتاجه المجتمع المسلم اليوم، نظرا للأفكار والتصورات الخاطئة التي امتلأت بها عقول البعض.

من هذه السنن أن الاستخلاف في الأرض يكون بالإيمان والعمل الصالح، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [سورة النور: آية ٥٥]، والاستخلاف في الأرض غير مقصور على عهد الصحابة والخلفاء الراشدين، وإنما هو ثابت من الله تعالى، وسنة مطردة[١٣].

وإنَّ ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بداية لسقوط حضاري، ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ * كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [سورة المائدة: آية ٧٨ - ٧٩] لأنه حينئذٍ سيستشري الفساد في الأرض، ثم سرعان ما يزول الاستخلاف، قال سبحانه وتعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [سورة الأنفال: آية٥٣]، لقد هلكت أمم وزالت دول بسبب انغماسهم في الترف والشهوات[١٤]، ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ [سورة الإسراء: آية١٦].

٥- **الكفر والمعاصي والذنوب سبب لهلاك الأمم:** إذن فانتهاء الحضارات ما هو إلا نتيجة حتمية للكفر والذنوب، والفسق، والظلم، والمعاصي، هذه سنة الله في خلقه، ﴿وَضَرَبَ اللهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ * وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [سورة النحل: آية١١٢ و١١٣]، وقال: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [سورة العنكبوت: آية٤٠]، وقال: ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللهِ فَأَخَذَهُمُ اللهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [سورة الأنفال: آية ٥٢].

وإن نهاية الظلم وشيكة، وعاقبته وخيمة، فهو منذر بزوال العمران، وكما يقال: فدولة الظلم ساعة، ودولة العدل إلى قيام الساعة، ﴿فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ﴾ [سورة إبراهيم: آية١٣]، وعاقبة المكذبين وخيمة ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [سورة الأنعام: آية١١]، والشرك عاقبته دمار وهلاك، ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ﴾

(١٠) تفسير الطبري: ٧/ ١٣٧

(١١) «التفسير الإسلامي للتاريخ» عماد الدين خليل: ص ٢٥٩

(١٢) راجع «سنن القرآن قيام الحضارات وسقوطها» محمد هيشور: ص١٣٣-١٣٦

(١٣) راجع (التفسير الكبير) الفخر الرازي، ٨/ ٤١٣، و(السنن الإلهية) عبد الكريم زيدان: ص ١٨٠

(١٤) راجع (حول التأصيل الإسلامي للعلوم الاجتماعية) محمد قطب: ص ٩٢-١٠٢

[سورة الروم: آية٤٢]، والعاقبة للمتقين ﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ [سورة النور: آية٥٥].

إن الباطل لا يدوم؛ لأنه ليس له في الواقع ما يؤيده ويؤازره، فإذا جاء الحق فلا يلبث أن يدفع الباطل، وتكون العاقبة للحق، ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [سورة الإسراء: آية٨١]، ومن المعروف أن الباطل لا يملك أدوات الاستمرار والتمكين في الأرض؛ باعتباره لا يملك الميزان والضابط الذي ينجيه من الانحراف والغرور والمعاصي، وكلها مهلكات، ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾ [سورة الرعد: آية١٧]، «فالأخطاء المتراكمة هي السبب الحقيقي الذي يدمر الحضارة ويوقف دورانها، ويأذن لغيرها بالقيادة، حتى تموت الأمم وتسقط الحضارات من داخلها قبل أن يسقطها أعداؤها.. وقدرة الأعداء في التغلب إنما تكون فاعلة عندما تجد الاستعداد والضعف الذي يمكّن لها، والأخطاء الذاتية المتراكمة التي تحصرها قبل أعدائها، ﴿بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [سورة البقرة: آية٨١]، ومن سنن الله أن جعل الظلم الاجتماعي سببًا في دمار الاقتصاد، ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ * وَلَا يَسْتَثْنُونَ * فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ * فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ﴾ [سورة القلم: آية ١٧-٢٠]»[١٥].

٦ - سنن الله في الترف والمترفين: من رحمته سبحانه وتعالى بالناس أنه لم يرد بسط الرزق لهم جميعًا؛ لأنه يفضي إلى المفسدة[١٦] ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ [سورة الشورى: آية٢٧]، ولقد هلكت أمم وزالت دول بسبب انغماسها في الترف والشهوات ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ [سورة الإسراء: آية١٦].

مقوِّمات بقاء الحضارة الإسلامية

الحضارات والأمم كالبشر، تمر بحالات من الضعف والقوة، بل إن بعض الحضارات تموت، وتبقى أثرًا بعد عين، وخبرًا يروى في بطون الكتب، ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [سورة النمل: آية٥٢]، والتداول بين الأمم من سنن الله الكونية ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [سورة آل عمران: آية١٤٠]، ولكل من نشأة الحضارة وانهيارها أو اندثارها سننها وأسبابها.

إن الأمة الإسلامية ليست بدعًا من الأمم في خضوعها لهذه الدورات الحضارية من ضعف ومن ثم نهوض واسترجاع للقوة ثم ضعف تعقبه قوة، ولكن مما امتازت به هذه الأمة عن كثير غيرها أنها لا تموت، وهي باقية إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها؛ لأن الله سبحانه وتعالى جعل فيها بذرة الديمومة والبقاء والإصلاح الذاتي من خلال عوامل كثيرة سأذكر أهمها.. منها:

١ - تكفل الله سبحانه بحفظ كتاب هذه الأمة: وهذا دليل على بقائها ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [سورة الحجر: آية٩]، إن هذا القرآن العظيم هو الذي يحفظ هذه الأمة، ولولاه لضاعت الأمة منذ آماد بعيدة، ولا أدلّ على ذلك من أن هذه الأمة تتلاشى في آخر الزمان عندما يُرفع كتابُ الله، كما أشار إليه الحديث المروي عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((يَدْرُسُ[١٧] الإسلامُ كما يَدْرُسُ وَشْيُ[١٨] الثوب حتى لا يُدْرَى ما صيامٌ، ولا صلاةٌ، ولا نسكٌ، ولا صدقة، ولَيُسْرَى على كتاب الله[١٩] عز وجلّ في ليلة فلا يبقى في الأرض منه آيةٌ، وتبقى طوائف من الناس: الشيخُ الكبيرُ والعجوزُ يقولون: أدركنا آباءنا على هذه الكلمة: لا إله إلا الله، فنحن نقولها))، فقال له صِلَةُ: ما تُغْني عنهم لا إله إلا الله، وهم لا يدرون ما صلاةٌ، ولا صيامٌ، ولا نسكٌ، ولا صدقة، فأعرض عنه حذيفةُ، ثم ردها عليه ثلاثًا، كُلّ ذلك يُعْرِضُ عنه حذيفةُ، ثم أقبل عليه في الثالثة، فقال: يا صِلَةُ تُنجيهم من النار ثلاثًا))[٢٠]، فالقرآن يوقظ فينا بواعث النهضة والعمل.

٢ - من طبيعة هذه الأمة أنها لا تجتمع على ضلالة: بشهادة الصادق المصدوق المؤيد بخبر السماء، إذ قال صلى الله عليه وسلم: ((إن أمتي لا تجتمع على ضلالة))[٢١]، وقال أبو مسعود الأنصاري رضي الله عنه: (عليكم بتقوى الله ولزوم جماعة محمد صلى الله عليه وسلم فإن الله تعالى لن

(١٥) (حتى يتحقق الشهود الحضاري) عمر عبيد حسينة: ص ٤٨

(١٦) - (التفسير الكبير) الرازي:٩/ ٥٩٨

(١٧) يدرس الإسلام: درس الشيء والرسم دروسًا عفا وهلك، ومن درس الثوب درسًا إذا صار عتيقًا. راجع (لسان العرب) ابن منظور، مادة (درس)، ٢/ ٣٧٥

(١٨) وشي الثوب: وشي الثوب وشيًا، وشية: حسنه، ووشاه: نمنمه، ونقشه، وحسنه. (لسان العرب) ابن منظور، مادة (وشي)، ٦/ ٤٤٧

(١٩) وليسرى على كتاب الله: أي يذهب بالليل، قال أبو إسحاق في قوله تعالى: ﴿والليل إذا يسر﴾ قال: سَرَى يَسْري إذا مضى. راجع (لسان العرب) مادة (سري)، ٣/ ٢٨٢-٢٨٣

(٢٠) رواه ابن ماجه في سننه: الفتن/ باب ذهاب القرآن، ح (٤٠٤٩)، والحاكم في المستدرك: الفتن، ح (٨٤٦٠)، وقال صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه.

(٢١) رواه ابن ماجه في سننه: الفتن / ٨، ح (٣٩٥٠)، ٢ / ١٣٠٣، في الزوائد في إسناده أبو خلف الأعمى، واسمه حازم بن عطاء، وهو ضعيف، وقد جاء الحديث بطرق، قلت: وجاءت أحاديث صحيحة تؤكد هذا المعنى مثل حديث: (لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله، وهم كذلك).

يجمع جماعة محمد على ضلالة)[٢٢]، وهذه الميزة باقية في هذه الأمة لبقاء مصدر التشريع الكتاب والسنة، قال ابن عباس رضي الله عنه: (تضمن الله لمن قرأ القرآن واتبع ما فيه أن لا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة) ثم تلا هذه الآية: ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ [سورة طه: آية١٢٣][٢٣].

٣- استمرار طائفة أهل الحق فيها: ستظل طائفة من هذه الأمة على الحق، يدعون إلى الخير، ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، حتى يأتي أمر الله لا تأخذهم في الله لومة لائم، ((لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله، وهم كذلك))[٢٤].

٤- عوامل التجديد باقية في هذه الأمة: وذلك برجال يرسلهم الله على رأس كل قرن ينتشلون الناس مما هم فيه من بعد أو ضياع، قال صلى الله عليه وسلم: ((إن الله يبعث إلى هذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد أمر دينها))[٢٥].

٥- حفظُ هذه الأمة من الهلاك: الله سبحانه وتعالى لا يجعل للكافرين على المؤمنين سبيلًا يمحو به دولة الإسلام، ويذهب آثارهم، ويستبيح بيضتهم[٢٦]، ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [سورة النساء: آية١٤١]، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((وإني سألت ربي لأمتي أن لا يهلكها بسنة عامة، وأن لا يسلط عليهم عدوًا من سوى أنفسهم، فيستبيح بيضتهم، وإن ربي قال: يا محمد إني إذا قضيت قضاء فإنه لا يرد، وإني أعطيتك لأمتك أن لا أهلكهم بسنة عامة، وأن لا أسلط عليهم عدوًا من سوى أنفسهم، يستبيح بيضتهم، ولو اجتمع عليهم من بأقطارها - أو قال من بين أقطارها - حتى يكون بعضهم يهلك بعضًا، ويسبي بعضهم بعضًا))[٢٧]، قال الإمام النووي: (أي لا أهلكهم بقحط يعمهم بل إن وقع قحط فيكون في ناحية يسيرة بالنسبة إلى باقي بلاد الإسلام فلله الحمد والشكر على جميع نعمه)[٢٨].

والتاريخ يشهد أن هذه الأمة أصابتها نكسات ونكبات كبرى، منذ نشأتها وإلى اليوم، حتى ظن الظانون بها ظن السوء، وابتلي المؤمنون، وزلزلوا زلزالًا شديدًا، ولكن الأمة استطاعت أن تتغلب على عوامل الضعف من الداخل، وعوامل الغزو من الخارج، وأن تحول الهزائم المرة إلى انتصارات، وتصير إلى قوة بعد ضعف، وتتوحد بعد أن كانت شتاتًا وأشلاء ممزقة مبعثرة.

واليوم تجتاز الأمة مرحلة من أسوأ المراحل التي مرت بها، ويمكن أن نطلق عليها مرحلة الغثائية، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة على قصعتها)) فقال قائل: أو من قلة نحن يومئذ؟ قال: ((بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفن الله في قلوبكم الوهن))، فقال قائل: يا رسول الله، وما الوهن؟ قال: ((حب الدنيا وكراهية الموت))[٢٩]، وهذه كسابقتها ستمر بلا شك، وسيمكن الله لدينه مرة أخرى في الأرض تحقيقًا لوعده ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [سورة الأنبياء: آية١٠٥]، والمطلوب منا في هذه الآونة أن نعرف حقيقة هذه الأزمة، ونبحث عن سبل الخروج منها.

إن الواجبات الملقاة على عاتقنا للخروج بالأمة الإسلامية من أزمتها الحالية كثيرة وجليلة، وإن أولها هو الجلوس أمام القرآن الكريم لنقرأه ونعيه كما أراد ربنا ونعمل به، فهو يرمي إلى بناء الإنسان والمجتمع والدولة وإعمار الأرض وبناء الحضارة.. وفيه بيان السنن الربانية، والقوانين الكونية عن قيام الحضارات وازدهارها وسيرها في طريق القوة والنضج، كما يحث المسلمين على التمسك بها لتكون قيادة العالم في أيديهم، ويبين لهم عوامل هلاك الحضارات واندثارها بعد القوة، ويهددهم بسوء العاقبة إن هم تساهلوا أو انحرفوا عن الجادة.

أنزل الله هذا القرآن الكريم لينشئ أمة راشدة يسلمها قيادة البشرية، لتنأى بنفسها وبالأمم عن التيه والضياع، «لقد جاء النص القرآني - ابتداءً - لينشئ المقررات الصحيحة التي يريد الله أن تقوم عليها تصورات البشر، وأن تقوم عليها حياتهم، وأقل ما يستحقه هذا التفضل من العلي الكبير، وهذه الرعاية من الله ذي الجلال - وهو الغني عن العالمين - أن يتلقوها وقد فرغوا لها قلوبهم وعقولهم من كل غبش دخيل، ليقوم تصورهم الجديد نظيفًا من كل رواسب الجاهليات - قديمها وحديثها على السواء - مستمدًا من تعاليم الله وحده، لا من ظنون البشر، التي لا تغني من الحق شيئًا»[٣٠]، ولعل من نافلة القول أن نذكر أن غياب التدبر القرآني والفقه القرآني هو السبب الكامن خلف الغياب الحضاري لهذه الأمة.

(٢٢) رواه الحاكم في المستدرك: الفتن، ح (٨٥٤٥)، ٤/ ٥٥٢، وقال هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

(٢٣) رواه الطبري، (تفسير الطبري): رقم (٢٤٤٠٠)، ٨/ ٤٧٩

(٢٤) رواه مسلم في صحيحه: الإمارة/ ٥٣، ح (١٩٢٠).

(٢٥) رواه الحاكم في المستدرك: الفتن، ٤/ ٥٢٢. وسكت عنه الذهبي في التلخيص.

(٢٦) (الجامع لأحكام القرآن) القرطبي: ٥/ ٤٢٠

(٢٧) رواه مسلم في صحيحه: الفتن/ ٥، ح (٢٨٨٩).

(٢٨) (صحيح مسلم بشرح النووي): ١٨/ ١٤

(٢٩) رواه أبو داود في سننه: الملاحم/ ٥، ح (٤٢٩٧)، وفي سنده مجهول وروي عند أحمد من طريق آخر وسنده قوي: ٥/ ٢٧١.. (جامع الأصول): ١٠/ ٢٨

(٣٠) - (خصائص التصور الإسلامي) سيد قطب: ص ١٥.

ملف العدد:

الخطاب الإسلامي

- مدخل لتقارب الرؤى حول الإعلام والإعلام الإسلامي
- خصائص الخطاب السياسيِّ في القرآن الكريم وعلاقته بالخطاب الدعوي
- قراءة في ظاهرة الإلحاد وكتاب «قصة الإيمان»
- ضوابط المصلحة الدعوية
- قراءة في أهم أسباب ظهور الخطاب الديني المتطرف
- الخطاب الديني للناشئة

تمهيد:

من العسير الإدلاء بقول جازم في شأن ماهية الإعلام الإسلامي، ناهيك عن إيجاد صيغة محكمة لتعريفه، وبالمقابل من العسير أيضًا أن تؤدي عملية تطويره المرجوّة أهدافها على أرض الواقع، دون حد أدنى من التقارب على رؤية مشتركة لما يعنيه هذا التعبير المنتشر منذ زمن، وإن هذا البحث هو محاولة للإسهام في وضع مؤشرات أولية للتعريف بهذا المصطلح دون ادّعاء استيفاء الاطلاع على ما كتب في الموضوع نفسه، فهو كثير وما زال متواصلًا. ومعظم ما كتب حول الإعلام الإسلامي يبدأ بمحاولة مراجعة استنباط المصطلحات وتعريفها والبحث المنهجي بشأنها، إنما لا يكاد يوجد رابط ناظم للمحاولات المبذولة في هذا الاتجاه سوى تأكيد الالتزام بالإسلام عمومًا[1].

الأصل في المصطلحات هو التوافق على تعريف موجز محكم، يحدد المقصود من التعبير، وهو هنا شطران، أحدهما كلمة الإسلام، ولا يتحقق التوافق على تعريف ما ينسب من الإعلام إليه ما دام كل طرف يربط المقصود من الكلمة بمنطلقه الذاتي، الفقهي أو الحركي أو الدعوي، أو يتناول الموضوع تبعًا لموقعه من الإعلام دارسًا أو منتجًا أو مستهلكًا أو ناقدًا إعلاميًا، سواء كان صاحب رؤية إسلامية أو رؤية أخرى.

السؤال:

ما الذي يجعل الباحثين يرون في السَّعي إلى إيجاد مفهوم اصطلاحيٍّ للإعلام الإسلاميِّ ضرورةً شبهَ حتميَّةٍ في بحوثهم؟

عند استحالة تثبيت المصطلح منهجيًا ألا تكون تلك النظرة إلى حتميته من معيقات العمل لتطوير الإعلام الإسلامي وهو موجود على أرض الواقع؟

وبالمقابل:

ألا يعيق غياب قواسم مشتركة للتعامل منهجيًا مع تعبير الإعلام الإسلامي، ظهور رؤى متقاربة لتطويره بما ينسجم مع الرغبة في خدمة ما انتشر وينتشر من مواد ووسائل وعطاءات تحت هذا العنوان؟

محاولة الإجابة في هذا البحث ترتكز على إيجاد معطيات تتعلق بالإعلام أولًا، وبما شاع توصيفه بالإسلامي ثانيًا،

(١) التقاء محاولات تعريف الإعلام الإسلامي على تأكيد «الالتزام بالإسلام» فحسب، والشاهد في مثالين حول تعريف مختصر وآخر مفصل.. تعريف مختصر: «الإعلام هو الدعوة، والدعوة هي الإسلام»، تيسير محجوب الفتياني، كتاب «مقومات رجل الإعلام الإسلامي»، ص ٣٠، الناشر: دار عمار للنشر والتوزيع في عمّان، ط ١: ١٩٨٧م، وممن يربط الإعلام بالدعوة أيضا د. عبد القادر طاش، ومحيي الدين عبد الحليم، ومحمد منير حجاب، ومحمد موفق الغلاييني.

تعريف مفصل: «استخدام منهج إسلامي بأسلوب فني إعلامي يقوم به مسلمون عالمون عاملون بدينهم، متفقهون لطبيعة الإعلام ووسائله الحديثة وجماهيره المتباينة، مستخدمين تلك الوسائل المتطورة لنشر الأفكار المتحضرة، والأخبار الحديثة، والقيم والمبادئ والمُثُل للمسلمين ولغير المسلمين في كل زمان ومكان في إطار الموضوعية الكاملة؛ بهدف التوجيه والتوعية، والإرشاد لإحداث التأثير المطلوب». د. نسيبة محاسنة، في مقالة «الإعلام في الإسلام»، ١٠/ ٦/ ٢٠١٤م. https://www.wasatyea.net/?q=ar/content

بهدف التوصل إلى مؤشرات عملية نحو رؤية مشتركة، خطوةً تمهيدية لطرح معالم الكيفية التطويرية الممكنة للإعلام الإسلامي[٢]، وهذا مع مراعاة ما حَمَلَ هذا التعبير أو حُمِّلَ عبر تداوله على نطاق واسع بين العامة والخاصة.

مفهوم الإعلام يلهث وراء مساراته

في تعبير الإعلام الإسلامي الموضوع للبحث كلمتان: إعلام وإسلام.. ومن الضروري والمفيد منطقيًّا البحث في كلمة إعلام بِعَدِّه هو الموصوف، قبل البحث في الصفة، أي كلمة إسلامي.

إشكالية مفهوم الإعلام:

الإعلام بحد ذاته لا يجد مفهومًا اصطلاحيًا متوافقًا عليه، وبعض ما وضع خلال عقود مضت لتأطير الكلمة في نطاق علم الإعلام جامعيًا، لم يصمد أمام المتغيرات الجارية في واقع الإعلام عبر تطوير وسائله، فأصبح لهذه الوسائل تأثير كبير في الباحثين؛ إذ يعطونها موقعًا متقدمًا في أي تعريف يميلون إليه، ممّا يشير إلى طغيان سرعة تطورها على سرعة دراسات جوهر ماهية الإعلام وممارسته وتنوع مضامينه وميادين تأثيره، ناهيك عن رسالته وتعدد أشكال أدائها.

تبسيط صياغة المفهوم:

يرى إبراهيم إمام تعريفَ الإعلام بأنه: «نشر للحقائق والأخبار والأفكار والآراء بوسائل الإعلام المختلفة»[٣]، وفي هذا التعريف تبسيط يحول دون وصفه بالاصطلاحي المحكم. ونرصد عمومًا لحاق محاولات صياغة المصطلحات بعجلة التطور، فهذه إشكالية قديمة متجددة[٤]، ولكن استفحلت حديثًا في ميدان الإعلام استفحالًا لا نكاد نقدّر حجمه بما يكفي.

سرعة تجاوز التطورات للمفهوم:

في عام ١٩٩٨م كتب الباحث الألماني في عالم الاتصالات (Gerhard Maletzke) أن الإعلام يتميز عن سواه بخمسة عناصر حاسمة، وترجمتها بإيجاز: (١) العلنية فلا تخصيص للمستقبل. (٢) استخدام تقنيات وسائل الاتصال عن بعد. (٣) بصورة غير مباشرة أي انفصال المرسل والمستقبل مكانًا وزمانًا. (٤) أن يكون الإرسال باتجاه واحد وليس متبادلًا. (٥) تباعد الجمهور بعضه عن بعض.

وبعد ذلك بثلاثة أعوام فقط، نشر الباحثان المتخصصان في علوم الاتصالات أيضا (Michael Kunczik) و(Astrid Zipfel) كتابًا جاء فيه حول تلك العناصر الخمسة ما ترجمته: «إن هذه العناصر مناسبة لوصف التواصل الإعلامي عن طريق وسائل مثل الصحف والإذاعة والتلفزة، ولكن لم يعد التعريف - استنادًا إليها - كافيًا للتعامل مع الوسائل الجديدة، ولا سيما مع وجود عنصر التبادل الإعلامي المباشر بين المرسل والمستقبل»[٥].

مسار التطورات معقد ومذهل:

الواقع أن مسار تطورات جميع ما يتعلق بالإعلام أصبح واسع النطاق وشديد التعقيد، ويعبر محطات متتالية ومتداخلة بسرعة متصاعدة، ومن عناوين تلك التطورات:

(١) تسارع اختراعات التواصل عن بعد، سلكيًا ثم فضائيًا.

(٢) انطلاق البث الإذاعي والتلفازي محدودًا ثم متضخمًا.

(٣) بداية انتشار ترجمة الصوت إلكترونيًا إلى حروف مكتوبة وبالعكس.

(٤) تطور تقنيات الصورة من الأسود والأبيض إلى أقصى

---

(٢) تحت الإعداد بقلم كاتب هذه السطور بحث آخر حول «معالم لتطوير الإعلام الإسلامي تطويرا متجددا».

(٣) ينقل د. نزار نبيل أبو منشار في مقال بعنوان: «تعريف الإعلام» في موقع الألوكة أكثر من تعريف اصطلاحي للدكتور سامي ذبيان، ومحمود سفر، وطلعت همام، وإبراهيم إمام، والألماني أوتو جرات، وغيرها فينتقدها جميعًا ويستقر من بينها على تعريف إبراهيم إمام: «نشر للحقائق والأخبار والأفكار والآراء بوسائل الإعلام المختلفة» http://www.alukah.net/culture/٠/٧٢٣٢٢/وعلى غرار ذلك تورد سمية إبراهيم المكاوي في بحث ماجستير «الإعلام الإسلامي والإعلام الغربي في حاضر اليوم دراسة مقارنة» عام ٢٠١٦م، عددًا من التعريفات، ص ٤٨-٤٩، وآخرها قول الكاتبة سهيلة حماد في كتابها «الإعلام في العالم الإسلامي الواقع والمستقبل: «الإعلام الإسلامي يعني بيان الحق وتزيينه للناس بكافة الطرق والأساليب والوسائل العلمية المشروعة؛ بقصد جلب العقول إلى الحق، وإشراك الناس في نيل خير الإسلام وهديه، وإبعادهم عن الباطل وإقامة الحجة عليهم»، وتختتم المكاوي ذلك بقولها:» فالإعلام الإسلامي هو تعميم الاتصال الايجابي، لنشر مبادئ الدين الإسلامي وأخباره في جميع الميادين، وعلى كافة المستويات وبكافة الوسائل المتاحة، لتحقيق كافة الأهداف المشروعة».

(٤) في نص التعريف بـ «مشروع المصطلحات الخاصة بالمنظمة العربية للترجمة»، إعداد عدة مؤلفين، ترد إشارات عديدة إلى العلاقة بين ظهور مصطلحات جديدة أو مفاهيم جديدة نتيجة انطلاق عجلة التطور، وهو ما يضع العاملين في الترجمة إلى العربية أمام إشكاليات وصعوبات كبيرة. http://www.langue-arabe.fr/IMG/pdf/attachment٤٤٠_pdf.١٠٧ والواقع أن هذا لا يقتصر على قطاع الترجمة بل يشمل عموم ما يتعلق بالتعامل مع المصطلحات في عالمنا المعاصر.

(٥) انظر: Gerhard Maletzke: Kommunikationswissenschaft im Überblick: Grundlagen, Probleme, Perspektiven. Westdeutscher Verlag, Opladen ١٩٩٨, S. ٤٥f.

وانظر: Michael Kunczik, Astrid Zipfel: Publizistik. Ein Studienhandbuch. Böhlau, Köln/ Weimar/ Wien ٢٠٠١, S. ٥٠.

أطياف الألوان المتعددة.

(٥) النقلة متعددة المراحل من الرسم إلى آلة التصوير الذكية التي تميّز بنفسها نوعيات ما يتم تصويره.

(٦) نقلة التصوير من الثابت إلى المتحرك.

(٧) التقنيات المجسّمة والرقمية.

(٨) بوابة التقنيات الفراغية / الهولوجرافية.. مع توقعات لا حدود لها لما وراء هذه البوابة.

شبكات التواصل الحاضنة للإعلام وتأثيرها:

العنصر الأهم من وراء هذه اللوحة الزاخرة بالمتغيرات، معايشتُنا لها جميعًا بصورة متوازية مع تطوّر شبكات التواصل وأدواتها، نوعًا وكمًّا، وانتشارها جغرافيًا وفضائيًا، بسرعة مذهلة.

وهذا بمجموعه تطور تاريخي غير مسبوق حجمًا وتأثيرًا، ولئن احتاج تطور بعض القطاعات الاقتصادية كصناعة السيارات إلى مائة عام وأكثر.. وما زال مستمرًا، فقد كان كافيًا أن يمضي عقدان من الزمن فقط، لتتجاوزها شركات حديثة النشأة في ميدان الاتصال، مثل جوجل وآبل وفيس بوك وأمثالها، مع اتساع حجم عملها في نطاق الإعلام وسواه، ويقابل ذلك في المدة نفسها توجه الإعلام المطبوع نحو الانقراض كما يقال. وبهذا الصدد يقول (Warren Buffett) المستثمر الأمريكي المشهور في مجال الإعلام: «إن عدد المطبوعات الأمريكية الكبرى انخفض من نحو ١٨٠٠ إلى ١٣٠٠ خلال عقدين، ولا يتوقع أن يبقى منها إلا تلك التي أوجدت لنفسها مدخلًا شبكيًا إلى الإعلام، مثل وول ستريت جورنال ونيويورك تايمز»(٦).

ولا يقتصر تأثير ما ظهر من شركات عملاقة في تنامي نفوذها «السياسي والمالي والاجتماعي» عالميًا، بل يشمل ممارساتها المؤثرة في صناعة الإنسان عبر تطوير هائل وسريع لمضامين الإعلام ووظيفته الأولى، ولنقلها المقترن بدرجات تأثير إضافية، تقنيًا ودعائيًا، تتجاوز بمراحل صلب المفاهيم الاصطلاحية القديمة المتعددة لكلمة الإعلام ومسارها منذ النشأة الأولى لهذا التعبير.

والسؤال: كيف نراعي هذه الأبعاد في الإعلام وتطوره، في الدراسات النظرية حول الإعلام الإسلامي وتطويره، ناهيك عن الميدان العملي؟

التعدّي على أسس مفهوم الإعلام

أصبح لحاق عموم المصطلحات بالتطورات التقنية المتسارعة، من الظواهر المعاصرة التي لم تتضح أبعاد تأثيرها في أرض الواقع بما فيه الكفاية.

تآكل تمييز قطاع الإعلام:

هذه ظاهرة تكتسب في ميدان الإعلام بالذات أجنحة إضافية إذا صح التعبير؛ إذ نرصد كيف ينتشر مفعول تلك التطورات المعقدة السريعة في ميادين أخرى مجاورة لميدان الإعلام، انتشارًا يسهم في تسارع تآكل المعالم المميزة للإعلام عن سواه، مثل سوق الإعلانات التجارية، وبتعبير آخر: لم يعد هناك ميدان إعلامي مستقل قائم بذاته.

التعدي على وظيفة الإعلام:

إذا كان تأثير القوة المالية من وراء الإعلانات في وسائل الإعلام معروفًا بمعالمه الكبرى على الأقل، فلا يمكن القول بذلك عن مدى تأثير مضامين الإعلانات في نوعية المعلومات ومكونات الرأي لدى الفرد، ولا سيما عند بداية نشأتها لدى فئات أعمار الأطفال والناشئة، وهي أهم مجالات وظيفة الإعلام الأولى.

وكما يقول الدكتور بابكر مصطفى: «كما يؤثر الإعلان في ترويج السلع والخدمات، فإنه يُسهم في نشر القيم والاتجاهات الجديدة، ويدفع المتلقي إلى تقبُّل أفكار أو أشخاص أو منشآت مُعلَن عنها، كما يعمل على تغيير العادات والأذواق وسط مستقبليه. وحينما يستقبِل مجتمعٌ ما إعلانات تم إنتاجها من قِبَل ثقافة مغايرة لثقافته، فإن الإعلانات تحمل معها قيم ثقافتها، وقد تكون عاملًا من عوامل التغيُّر الاجتماعي»(٧).

تداخل اندماجي بين قطاعات متعددة متقاربة:

هذه صورة تكرّر ما سبق رصده في العقود الماضية عند خطوط التماس بين الفنون المختلفة والإعلام، وهو مما أوجده مثلًا انتشار المسارح والمعارض والمتاحف والمهرجانات، بل يمكن رؤية اختلاط تأثير الفن بوظيفة الإعلام حتى في تبادل بطاقات التهنئة وتصاميمها؛ فجميع ذلك وأشباهه -كالإبداعات الأدبية- يقتحم حدود الأهداف والوسائل التي بدت للوهلة الأولى وكأنها محصّنة أو خاصّة

(٦) من مقابلة إعلامية مع وارّن بوفيت يوم ١/ ٣/ ٢٠١٧م: https://meedia.de/٢٠١٧/٠٣/٠١/warren-buffett-sagt-grosses-zeitungssterben-voraus-nur-die-new-york-times-und-das-wall-street-journal-ueberleben/

(٧) نقلا عن «د. محمد الراجي» في مراجعته لكتاب «أيديولوجيا شبكات التواصل الاجتماعي وتشكيل الرأي العام» في موقع مركز دراسات الجزيرة، ٢٧/ ١٢/ ٢٠١٥م. http://studies.aljazeera.net/ar/bookrevision/

بعالم الإعلام، على أساس جوهر خصائصه التي تدور حول محور صناعة الرأي العام أو التعبير عنه.

أصبح هذا التداخل الاندماجي، وبالتالي التأثير المتبادل بين ميادين متجاورة -أحدها الإعلام- أعمق نظريًا وأوسع تطبيقًا من مجرد الإحاطة به وبتفرعاته، ناهيك عن قابلية ضبط مساراته على أرض الواقع، وليس في عالم الرؤى والمناهج والمصطلحات فحسب.

أبعاد زوال خطوط التماس:

الجيل الذي ما يزال عالم الإعلام عمومًا تحت إدارة نخب تنتمي إليه؛ سبق وعايش على امتداد عدة عقود مضت تنامي تأثير منتجات عالم الفنون والتربية، عبر ابتكار شخصية «ميكي ماوس» الكرتونية واقتحامها شاشة الأفلام الصامتة لأول مرة سنة ١٩٢٨م. ويمكن لجيل الشبيبة الذي بدأ يتبوأ مواقع صناعة إعلام المستقبل، أن يقيس على ذلك التأثير الكبير وأشباهه من عالم الأمس، لاستشراف ما يُنتظر في عالم اليوم والغد القريب من تأثير أكبر وأعمق وأوسع من ذلك بأضعاف مضاعفة، كنتيجة لما تجسّده تطورات يعبر عنها المثال الآتي مع بيان عناصره:

(١) اختيار قصة من قصص الأطفال.. (٢) حول شخصية تاريخية أو حديثة مبتدعة.. (٣) وإخراج مغزاها في صيغة لعبة شبكية.. (٤) تستهوي الأطفال والناشئة.. (٥) وتعتمد على أداة تقنية / إلكترونية حديثة، أصبح بمقدور تلك الفئة من الأعمار التعامل معها.. (٦) بينما لا يكاد يعلم أهاليهم وأساتذتهم حتى بالخطوط العريضة حول وجودها ومفعولها.. (٧) هذا.. ناهيك عن تنامي إمكانات التأثير بأضعاف مضاعفة عبر التطوير المنتظر لاستخدام أدوات التقنيات الفراغية / الهولوجرافية.

مفعول العطاءات الاندماجية:

إن هذا التطور المتداخل والمتجدد والمتسارع يضع الحديث عن الإعلام عمومًا -والإعلامُ الإسلامي فرع منه- أمام أسئلة عديدة، منها:

هل يمكن - حسب المثال السابق - عزل هدف متعة اللعب، وسواها من دوافع اختيار القصة فإخراجها فتسويقها تجاريًا، عن أهداف الإعلام وتأثيره في تكوين الشخصية الفردية، تعلّمًا (المهمة الإخبارية) ومعرفةً (خلفيات الخبر والحدث) ووعيًا (التعليل والتحليل) وبالتالي الإسهام المبكّر في صناعة الرأي الفردي والجمعي، وترسيخه في طريقة تفكير ومنهج سلوك نمطيين.. (وندع هنا مهمة التعبير عن الرأي بموازاة صناعته)؟

ألا يتفوق المفعول الإعلامي الانسيابي المتسلل، عبر لعب قصصية للأطفال والناشئة، على مفعول كثير من العطاءات الإعلامية، بصيغها المألوفة؟ أين سيصل ذلك المفعول المتسلل بهدوء مخيف، عبر محطات صناعة المستقبل وأجياله القادمة، إذا أخذنا بعين الاعتبار أيضًا تفاقم ما يسمّى حديثًا الإدمان على الشبكة وألعابها ووسائل التواصل وتجلياتها؟!

لا نخوض هنا في شؤون التشخيص والعلاج في قضية تربوية اجتماعية إلى جانب تماسّها مع الإعلام، إنما نوجد تساؤلات أخرى ما بين السطور:

ما جدوى التعامل مع الإعلام في نطاق مفهوم اصطلاحي بمضمون محدود، لا يشمل ما نرصده من ممارسة وظيفة الإعلام الأساسية ولكن تحت عناوين أخرى؟

هل يمكن التغافل عن ارتباط هذا التساؤل بالبحث عن مفهوم أو رؤية أو عن صيغة تطوير، خاصة بإعلام إسلامي؟

الدراسات ما بين العناوين والمضامين:

يوجد من حاول أو يحاول طرق هذه الأبواب وما يتبع لها بالرصد والبحوث والدراسات الهادفة[٨]، إنما لم يصل ذلك - مع عدم التهوين من قيمته الذاتية قطعًا - حتى إلى حسم تعدد التسميات لما يظهر من وسائل، بين من يطلق عليها توصيف «إعلام جديد» أو «إعلام شبكي» أو «إعلام إلكتروني» أو «إعلام حديث».. وإذ يشير الباحث خالد الحروب بهذا الصدد إلى أن كل جديد سرعان ما يصبح قديمًا، يشير عمليًا إلى أن التطور التالي يسبق الكتابة عما سبقه، ويضيف: «الواقع يشير إلى أن الحدود بين الإعلام التقليدي والجديد تتداخل والوظائف تتكامل، بحيث يصعب رسم خطوط صارمة تفرق بين الفضاءين»[٩].

نبقى في حدود المطلوب من ذكر مثال إخراج قصة أطفال في صيغة لعبة إلكترونية آنفًا، وما يطرحه علينا من

---

(٨) توجد بالعربية كتب ودراسات ومقالات عديدة حول تفاقم تأثير وسائل الاتصال الحديثة وتطورها السريع، منها ما خصص الحديث عن العلاقة بينها وبين الإعلام الإسلامي، ومن ذلك كمثال: «الإعلام الإسلامي» كتاب بقلم د. عبد الرزاق محمد الدليمي، الذي يرى أن الإعلام أصبح جزءا من «الاتصال» وليس العكس، وصدر الكتاب عام ٢٠١٣م عن دار المسيرة في عمان.. ومنها ما ركز على العلاقة بين ما بات يوصف بالقديم والجديد من الإعلام، ومثال ذلك: «الإعلام القديم والجديد.. تكامل لا صراع» أحمد حموش، تقرير إخباري حول ندوة حوارية في منتدى الجزيرة، ١٦/ ٣/ ٢٠١٣م. http://www.aljazeera.net/news/reportsandinterviews

(٩) خالد حروب، جدل «الإعلام التقليدي» و«الإعلام الجديد»، في جريدة الشرق القطرية يوم ١٩/ ٥/ ٢٠١٤م.

وراء التداخل بين ميادين عديدة لصناعة الإنسان، للتنبيه على أحد وجوه الإشكالية المذكورة حول صياغة مفهوم الإعلام. لقد كانت الفترة الزمنية لكلّ تطور كبير موزعة على عدة أجيال، فأصبح جيل واحد يشهد بين فترة الشباب والهرم (مثلًا) انتشار الشبكة العنكبوتية وتطبيقاتها وتشابكها مع سواها في تطورات تقنية وإلكترونية كبرى أيضًا من عوالم التلفزة الفضائية وآليات التواصل الحديثة. والنتيجة:

إن ما نعرفه سابقًا من عناصر تعريف اصطلاحي للإعلام، أصبح محض جزئيات صغيرة من طرح موسوعي حافل بمضامين متنوعة متطورة، ولا يزال هذا التوسع والتنوع مستمرًا بحركة دائبة متسارعة، بأطرها الكمية والنوعية والزمنية[١٠].

تبسيط التعريف وسيلة اضطرارية في الدراسات

تترتب على ما سبق أهمية تناول موضوع الإعلام والإعلام الإسلامي دون الاستهانة بحجم القضية وتشعّبها، فنحن قبل الحديث عن التوصيف بالإسلامي نواجه في مسار البحث الاصطلاحي لكلمة إعلام نفسها مهمّة عملاقة، ليس لإيجاد نص المفهوم والتوافق الشامل عليه، فهذا مستحيل، بل لمجرد تيسير الربط بين العناصر المذكورة وسواها في التعامل مع الإعلام ووسائله وتطوراته الذاتية وتطويره في نطاق عالم الاتصالات الحديثة، أي تيسير لغة التفاهم بين الأطراف ذات العلاقة، عند الحديث من زاوية ما عن موضوع يندرج تحت عنوان الإعلام، وتصنيفه، ورسالته، وضوابطه، وما شابه ذلك.

جديد الأمس قديم اليوم:

هذا بحد ذاته مهمة يتطلب النهوض بها تعاونُ مراكز دراسات بتخصصات متكاملة، وجهودٍ متشابكة دائمة متجددة، تحقق بمنهجيتها وإدارتها واستقلاليتها شروط متابعة تطورات كبرى تمس ميادين بشرية مشتركة، وهذا مع ملاحظة أننا أصبحنا نرصد ظهور الأحدث من تلك التطورات أثناء اشتغالنا بدراسة تطور سبق أن اعتبرناه بالأمس القريب جديدًا لنستوعب أبعاده.. وإذ به يصبح قديمًا قبل بلوغنا الغاية من تلك الدراسة.

(١٠) حول حجم إشكالية ما يتطلبه تعريف المفهوم الاصطلاحي وبعض جوانبها، يمكن الرجوع إلى بشير الكبيسي، «إشكالية المصطلحات.. إعلام أم اتصال؟» يوم ١٢/ ٩/ ٢٠١٧م، في مجلة الصحافة الصادرة عن معهد الجزيرة للإعلام. http://institute.aljazeera.net/ar/ajr/article

لم يعد ممكنًا حسم موضوع الإعلام اصطلاحيًا حسمًا دقيقًا ومشتركًا.. إنما لا ينبغي اعتبار ذلك هدفًا بحد ذاته، فهو وسيلة لتحقيق غاية، من بين بنودها في هذا البحث السؤال: إذا كان هذا حالنا مع تعريف الإعلام عمومًا، فما الذي ينبغي علينا التركيز عليه عند تخصيص الحديث عن إعلام إسلامي؟

أليس من أخطائنا عند البحث في ماهية الإعلام وتطويره من منطلق إسلامي، التسرع في ذلك الحسم انطلاقًا من جهد فردي أو مؤسساتي محدود، أسفر عن اجتهاد أو توصية حول التوصيف بكلمة إسلامي دون تقدير حجم المطلوب تحقيقه لبلوغ هذه الغاية؟

التبسيط ضرورة تقدر بقدرها:

في الواقع نحن في نطاق البحوث والدراسات مضطرون قبل صعود أولى الدرجات نحو تحديد الإعلام الإسلامي، إلى الاكتفاء في محاولة تعريف الإعلام نفسه بتبسيطٍ يجعله دون مستويات ما يُعتمد عادة في دراسة محكمة أو بحث قيّم، وغالبًا ما يجري التبسيط من خلال ذكر بعض المشتركات من بعض اجتهادات سابقة، ونحن نعلم - ويجب أن نعلم - أنها عبارات عائمة الصياغة لا ترقى إلى منزلة تعريف اصطلاحي للإعلام.

نقول مثلا: الإعلام هو استخدام وسائل التعبير والتواصل، لنشر المعلومة والرأي[١١].

بميزان تعريف المفاهيم اصطلاحيًا تبقى هذه العبارة وأشباهها مختزلة، ويترتب على ذلك: عندما نستخدمها أو نستخدم ما يشابهها في مطلع كتاباتنا عن الإعلام الإسلامي اضطرارًا، فذلك ناجم عن غياب مفهوم محكم متوافق عليه، فهذا ما يدفع إلى تجنب الخوض في اختلافات لا نهائية، والاكتفاء بدلًا من ذلك بعبارة مختزلة، للانتقال إلى درجة تالية في البحث.

بين التوافق والتقارب:

لن يزول هذا النقص، ومن الأهمية بمكان عدم تجاهله، بل

(١١) سبق الاستشهاد ببعض نصوص التعريف المبسطة، ومن ذلك أيضا: محمد أبو خليف، «تعريف الإعلام» نقلًا وترجمة عن مادة (Media) في معجمي الأعمال التجارية وأكسفورد: «الإعلام مجموعة من قنوات الاتّصال المُستخدَمة في نشر الأخبار أو الإعلانات الترويجيّة أو البيانات.. ويُعرف الإعلام بأنّه الوسيلة الاجتماعيّة الرئيسة للتواصل مع الجماهير. https://mawdoo٣.com/تعريف_الإعلام#cite_note-IGoonns٧rJ-٢ مقابل نصوص تعريف تعتبر شروحًا وليس تعريفات.. ومثالها تحت عنوان «مفهوم مصطلح الإعلام» في موقع «الإعلام الجديد»: https://intesar٠٠٠.wordpress.com/

المحافظة على وعينا بوجوده، كي تقترن محاولة التقارب - بدلًا من التوافق المحكم - بصدد قواسم مشتركة للتعامل مع الإعلام أو الإعلام الإسلامي بالذات، بمحاولة التعويض عن الاختزال المشار إليه، عن طريق إضافات، منها مثلا:

(١) محددات ضابطة لتمييز المنتجات الإعلامية عن سواها، وإن اشتركت معها أحيانًا في وسائل نشر متماثلة، كالملفات الشبكية (الإلكترونية).

(٢) محددات ضابطة لتصنيف الوسائل، انطلاقًا من عناصر ترجيحية - مثل كثافة الاستخدام - ما بين إعلامية وأخرى أدبية أو فكرية أو علمية أو تجارية، وهكذا.

(٣) خطوط عريضة توضح مواطن التماس، أو تداخل (ما يسمى حديثًا: وسائل اندماجية) بين عطاءات إعلامية وغير إعلامية، في حالات معينة، مثل نشر إنتاج أدبي في وسائل إعلامية، أو حضور غرض إعلامي في إنتاج فكري أو حتى دعائي تجاري.

طريق وسط بين الاختزال والاستفاضة:

لا يغيب عن الأذهان أننا إذا فعلنا ذلك دراسة وبحثًا سنجد أنفسنا سريعًا قد انتقلنا من تعريف مقتضب - كما هو مطلوب عادة ليتميز المصطلح بذاته عن سواه - إلى شروح مستفيضة، فنبقى داخل دائرة طرح فكري نظري لا يجدي كثيرًا في واقع يتحرك بتأثير عوامل عديدة أخرى، وهو بعض ما نلمسه مباشرة فيما صدر من محاولات لإيجاد تعريف اصطلاحي للإعلام أو الإعلام الإسلامي.

المخرج هو سلوك طريق وسط بين الاختزال والاستفاضة، يسهم في انتشار معالم كبرى لرؤية مشتركة يمكن التقارب عليها وإن كان دون درجة التوافق، ولكن تساعد مثلًا في برامج التأهيل للممارسات الإعلامية، إدارة وإنتاجًا ونشرًا، وتفيد المتأهلين في التعامل مع واقع الإعلام ومضامينه من حولهم.

معايير مطلوبة لتوصيف الإعلام بالإسلامي

لا يوجد تعريف اصطلاحي مستقر لكلمة إعلام، وبالتالي لما يتفرع عنه، بل نتحول واقعيًا إلى مستوى التوصيف، مثل توصيف قطاع من الإعلام بالإسلامي.

معايير للتوصيف بدلًا من التعريف:

لا ينفي ذلك الحاجة إلى معايير محددة للتوصيف، ونجد في واقع الإعلام معايير مستخدمة فعلًا، منها على سبيل المثال:

- عند اعتماد الوسيلة الإعلامية معيارًا، يُصنف أو يوصف الإعلام بأنه مطبوع أو مصور أو صوتي أو متعدد الوسائل، وتقليدي أو إلكتروني.. وهكذا.

- عند اعتماد جهة الإصدار والنشر معيارًا، نميز مثلًا بين إعلام رسمي باسم دولة أو باسم منظمة دولية، وتجاري باسم شركة أو مؤسسة أو نقابة أو تنظيم اقتصادي، وحزبي.. ورياضي.. وهكذا.

تمييز توصيف الإعلام بالإسلامي:

توجد أمثلة معروفة أخرى من هذه المعايير للتصنيف، إنما القصد من تعداد بعضها هنا هو القياس على ذلك لتأكيد رفض العشوائية في إطلاق توصيف إسلامي على قطاع من الإعلام، المطلوب التقارب حول معايير تؤدي إلى:

(١) تميز ماهية الإعلام الإسلامي عن سواه من الإعلام.

(٢) تميز ماهية الإعلام الإسلامي عن ميادين إسلامية أخرى قريبة منه، كالأنشطة الدعوية والتربوية والإبداعية، وسبقت الإشارة إلى أنها - على النقيض من ذلك - سيطرت على محاولات تعريف الإعلام الإسلامي حتى الآن، ولا يوجد ما يستدعي ذلك شرعًا، أو فكرًا، أو مصلحة عملية، فضلًا عن جانب المنطق والمنهجية.

(٣) استناد تلك المعايير إلى قدر كاف من الموضوعية المقنعة، لضمان انتشاره وظهور هشاشة ذرائع الاعتراضات عليها.

(٤) صياغة تلك المعايير صياغة مبسطة لتيسير استيعابها، وبالتالي الالتزام المرجو به من جانب من يمارس إعلامًا إسلاميًا، والقبول بها وبالتالي اعتمادها عند التفاعل مع الإعلام الإسلامي إيجابًا أو سلبًا.

توصيف نوعي بمعيار مركب:

بدلًا عن العشوائية الحالية وراء انتشار تعبير الإعلام الإسلامي؛ يُفترض منطقيًا أن يكون في معايير هذا التوصيف أساس نوعي مركّب من عناصر منبثقة عن الإسلام نفسه، كما أنزله الله، تؤدي الغرض منها بقدر تأثيرها الفعلي على صعيد القبول بعطاءات إنتاج إعلامي إسلامي، وأهم تلك العناصر:

(١) المعتقدُ: انتماءً مشتركًا.. وهذا ما ينطلق من الثوابت الكبرى وحيًا.

(٢) التصور: اجتهادًا بشريًا.. وهذا ما ينعكس في التعددية النوعية ضمن نطاق المقاصد الكبرى.

(٣) المنهج: صيغةً تطبيقيّة.. وهذا ما ينطوي على التنافس فكرًا وإخراجًا.

بقليل من التأمل نجد أن هذا الافتراض لمعيار التصنيف يسري على أرض الواقع بصيغة مشابهة، حسب كل حالة بحد ذاتها على التوصيف الإعلامي تحت عناوين أخرى تندرج في خانة معتقدات وتصورات ومناهج، فيقال تبعًا لذلك: هذا إعلام ليبرالي أو علماني أو ديمقراطي، إلى آخره.

بين توصيف منهجي وتوصيفات عشوائية:

لا يوجد واقعيًا توافق كاف على معيار نوعي من هذا القبيل لتصنيف الإعلام، بل تستخدم توصيفات نوعية أو انتمائية عشوائيًا، وأحيانًا مع كثير من التناقضات الصادرة عن مفعول صراعات ومواجهات فكرية وسياسية وحضارية وثقافية[١٢].

وتزداد إشكالية التوصيف بكلمة إسلامي بالذات تعقيدًا عند ربطه بعوامل تتعدّى أهداف التوصيف أو تفقده مغزاه، وقد تتناقض مع الدلالة المطلوبة من خلاله. ولئن كان لتلك العوامل قيمة ذاتية ما، فالمهمّ هنا عدم انضباط اعتمادها في توصيف الإعلام بالإسلامي[١٣]، ومن ذلك مثلًا: العامل الجغرافي؛ إذ يُستخدم لوصف كل إعلام يصدر في المنطقة الإسلامية جغرافيًا بالإعلام الإسلامي[١٤]، سيان ما هو اتجاه المنتج نفسه، وقد يكون من إعلام رسمي يمثل سلطات استبدادية تعادي الإسلام أو تعادي الفكر الإسلامي.

للتنبيه: يظهر تناقض مشابه عند الحديث بمنظور جغرافي عن إعلام غربي أو أوروبي على سبيل المثال.

محاولات تأصيل التوصيف الإسلامي:

يوجد من يربط الإعلام الموصوف بالإسلامي بنظرة تأريخية من باب الحرص على ربط كل شيء معاصر بممارسات - ولا نقول هنا: مقاصد أو قواعد - من العهد الأول.

من اجتهادات الباحثين هنا اعتبار الشعر من جنس الإعلام في صدر الإسلام، ويمكن استنباط بعض الأخلاقيات وربما بعض القواعد من دور الشعر في تلك الفترة، ولكن يتداخل ذلك بمحددات عالم الأدب، وقد يتعدّى عليها.

والواقع أن الشعر القديم والحديث يدخل في خانة مادة إعلامية، ولكن لا يصح اعتباره مصدرًا لاستنباط معالم مميّزة لقطاع الإعلام.

ويوجد من سلك طريقًا مشابهًا من مداخل أخرى، كاستحضار الدكتور صلاح عبد الرزاق قصة الهدهد مع النبي سليمان عليه السلام، ليقول: «لعل أوضح إشارة قرآنية لمهمة الإعلام الإسلامي وردت في سياق عملية نقل الأخبار؛ ما ورد عن الهدهد الذي قال للنبي سليمان عليه السلام: ﴿وجئتك من سبأ بنبأ يقين﴾ [سورة النمل: آية ٢٢]»[١٥].

هذه الآية وكذلك آية: ﴿إن جاءكم فاسق بنبأ فتبيّنوا﴾ [سورة الحجرات: آية ٦] وآيات عديدة أخرى تدعو إلى الصدق والكلمة الطيبة والقول السديد، وتحذر من الإفك والبهتان والافتراء.. هذه آيات يمكن الانطلاق منها في صياغة بنود ميثاق قيم وسلوك، يصلح للإعلام وقطاعات أخرى.

ودون الاستغراق في قصة الهدهد يمكن القول: إنها أوسع مدلولًا من تخصيصها بالإعلام، بل قد يكون المدلول أقرب لميدان الاستخبارات.

تغييب مفهوم الإعلام في توصيفه بالإسلامي:

إن ما يُعتبر تناقضًا فيما سبق ناشئ عن تغييب الارتباط بين كلمتي إسلامي كتوصيف وإعلام كموصوف، فهذا الارتباط شرط من شروط صلاحية المعايير المطلوبة لتوصيف إعلام إسلامي، بحيث: يتميز عن إعلام آخر.. كما ينبغي أن يتميز عن عطاءات أخرى إسلامية، ولكنها ليست من الإعلام، فلكل منها شروط موضوعية، ومن شروط تمييز عطاءات إعلامية ما يستند إلى حرفية المهنة ونوعية المضمون وتقنية الإخراج.

---

(١٢) انظر كأمثلة: د. عبد القادر طاش، «الصورة النمطية للإسلام والعرب في مرآة الإعلام الغربي»، شركة الدائرة للإعلام المحدودة، الرياض، ١٩٨٩م. منصور عثمان محمد زين، «الفصل الثالث: الإعلام الإسلامي والفلسفات الأخرى» في كتاب «قضايا وهموم الإعلام الإسلامي»، أحمد مبارك سالم، «الإعلام الإسلامي والمرحلة الراهنة»، ٣/ ٢/ ٢٠١٥م، في موقع طريق الإسلام. وعلى مستوى توظيف الإعلام الدولي (مثاله الصارخ: الأمريكي) في قضايا عدائية، انظر: ناعوم تشومسكي، تعريب: أميمة عبد اللطيف، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ط ١، ٢٠٠٣م.

(١٣) انظر: د. عبد القادر طاش، فقرة «ما هو الإعلام الإسلامي الذي نريد» من مقال بعنوان «ما هو الإعلام الإسلامي» في مجلة «الداعي»، تشرين الثاني/ نوفمبر ٢٠٠٩م، على رابط «دار العلوم» الشبكي: http://www.darululoom-deoband.com/arabic/magazine/

(١٤) محمد كرم سليمان من الباحثين الذين يربطون توصيف إسلامي للإعلام بالنظرة الجغرافية، نقلا عن: حردان هادي الجنابي، «الإعلام الإسلامي الإلكتروني»، ص ١٢، دار العربي للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠١٥م

(١٥) د. صلاح عبد الرزاق، «مقدمة في الإعلام الإسلامي».- http://www.al-iraqnews.com/news/studies/ وانظر أيضا: د. محمد عجاج الخطيب، «أضواء على الإعلام في صدر الإسلام»، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٩٨٥م.

للتنبيه: يمكن أن يظهر تناقض مشابه عند الحديث بمنظور فلسفي غربي عن إعلام تنويري مثلًا أو إعلام حداثي.

التوصيف بالإسلام وليس بجهة إسلامية:

توجد عوامل أخرى تسبب غموض التوصيف، يغني التفصيل السابق عن التفصيل فيها، والمهم بيان أن توصيف الإعلام بالإسلامي لا يستقيم عند ربطه بالعامل الجغرافي دون جدوى، أو المعرفي التاريخي تأصيلًا، كذلك لا يستقيم عند ربطه بتعدد الاتجاهات المعاصرة تحت عنوان اتجاهات إسلامية، فالخلافات بغض النظر عن مشروعيتها أو عدم مشروعيتها تمنع بحد ذاتها من اعتماد ما تراه جهات رسمية كوزارات الأوقاف، وشبه رسمية كمؤسسات مرتبطة بالسلطات، أو تنظيمية اجتهادية من حركات وأحزاب.. بحيث يكون مصدرًا لاستنباط عناصر معيار منضبط لتوصيف الإعلام بالإسلامي.

للتنبيه: شبيه ذلك يمكن رصده أيضًا في حالة توصيف إعلام بالكنسي / المسيحي لتمييزه عن سواه.

ومن المهم التأكيد أن عدم ربط التوصيف بجهة ما لا ينتقص من حق أي جهة في ممارسة الإعلام واكتساب توصيف يستند إليها كجهة إصدار، كإعلام الوزارة الفلانية أو الحزب الفلاني أو الاتحاد أو الجماعة، وما إلى ذلك من هيئات ومؤسسات.

خلاصة:

نعود إلى المعيار النوعي المذكور آنفًا لتوصيف الإعلام بالإسلامي - وقياسًا على ذلك بالشيوعي والعلماني.. إلى آخره - كمركب من المعتقد والتصور والمنهج، ونضيف: إنّ التوصيف المطلوب لا يحقق هدفه دون أن تكون له خصائص قريبة - وليس متطابقة - من خصائص التوافق منهجيًا على مفهوم اصطلاحي.

لن يجد تعبير إعلام إسلامي صيغة توصيف مستقرة ما دام استخدامه لا يستند إلى معايير تميز هذا التوصيف تمييزًا مُرْضيا لمن يقوم على إنتاج مادة إعلامية ونشرها، ومقنعًا إقناعًا موضوعيًّا لمستهلكيها والمطلعين عليها من المتخصصين والعامة، بغض النظر عن الرؤى الذاتية الفردية أو الجماعية.

من واقع توصيف الإعلام بالإسلامي

قد يستسهل بعضنا الأمر بقوله: «لنكن حياديين.. ولنقل بالإعلام دون مثل هذا التوصيف أصلًا..» ولا يكفي ذلك؛ إذ نتعامل مع واقع ينتشر فيه استخدام هذا التعبير، فلا بد من التعامل الهادف معه إيجابًا أو سلبًا، على أن يكون منهجيًا وليس عشوائيًا. والواقع يقول: إن تعبير إعلام إسلامي مستخدم على نطاق واسع، ولكن دون وجود تعريف منهجي بصورة قاطعة مانعة بميزان خصائص التواضع على المصطلحات.

تناقض تمييع الضوابط مع الإرث المعرفي:

الحديث هنا عن كلمة التوصيف بإسلامي، ولا يصح الانزلاق إلى التسييب في التعامل معها كتوصيف، كأن لا نراعي مراعاة كافية عوامل تمييز الألفاظ بعضها عن بعض، بل نتناقض آنذاك مع الإرث المعرفي الذاتي، ومنه مسيرة توليد المصطلحات باجتهاد علماء مسلمين أقدمين. وكان أول ما اعتُمد ذلك في نطاق علوم الحديث، ووضعت مؤلفات عديدة تتناول المصطلحات في شتى الفروع العلمية، فكان ممن ألّف في «المصطلح» كل من ابن حيان والفارابي والخوارزمي والجرجاني، وغيرهم كثيرون وذلك قبل قرون من استقرار علم المصطلح قائمًا بذاته في مسار النهضة الأوروبية الحديثة[١٦].

ولا يصح القول: من المؤسف أن ما صدر من محاولات حديثة لتعريف الإعلام الإسلامي لم يوصل إلى صيغة مستقرة أو ما يوصف في أدبياتنا بالجامع المانع، فهذا هدف غير مفروض وربما غير ممكن أصلًا.. ولكن من المؤسف غلبة انتشار رؤى متباينة بشأن التوصيف لا تكتسب صفة المنهجية.

مثال مفردات التعبير:

انتشر القول بوجود إعلام إسلامي انطلاقًا من إحساس عام عند المنتج غالبًا، أو إحساس من صنع الأمل والتبسيط عند المستهلك، بمعنى القارئ والسامع والمشاهد؛ إذ يقال: هذا إعلام إسلامي عندما يتردد ذكر آيات وأحاديث أو مقولات السلف وعلماء مسلمين، أو حتى عند تخطيط كلمات من هذا القبيل فنيًا ونشرها بوسائط حديثة، وهذا إحساس له قيمته الذاتية ويعتمد على نمط معين في التفكير والتعبير.

ولكن.. لو اجتهد فرد أو جهة ما إعلاميًا، كتابةً أو تصويرًا أو سوى ذلك، فيما يفيد حماية البيئة مثلًا، دون الالتزام

(١٦) بدأت مسيرة توليد المصطلحات باجتهاد علماء مسلمين أقدمين تحت عنوان المواضعة، بمعنى أن يتواضع المتخصصون على مفهوم محدد للكلمة في نطاق اختصاصهم فتصبح لها منزلة المواضعة / الاصطلاح. وانظر لمزيد من التفصيل: د. محمد أبحير، «نشأة علم المصطلح عند العرب والغرب»، مجلة المحجة - فاس، العدد ٤٧٥، آذار/ مارس ٢٠١٧م.

بالنمط المذكور في التفكير والتعبير، وفي الوقت نفسه دون انتهاك أحد مقاصد الإسلام الكبرى - بل قد يخدمها - فهل يندرج ذلك العطاء الإعلامي تحت عنوان التوصيف بالإسلامي أم لا؟

مثال التسميات الإسلامية:

انتشر الحديث عن وجود إعلام إسلامي انطلاقًا من إحساس عام عند المنتجين والمستهلكين أن الإعلام في هذه المجلة أو تلك وعبر هذا البرنامج التلفازي أو ذاك، وكذلك في عالم الشبكة العنكبوتية؛ يحمل وصف إسلامي لأن الوسيلة الإعلامية أعطت نفسها أو تعطي بعض موادها، تسميةً لها معنى إسلاميًّا، وليكن مثلًا الكلمة الطيبة، نور على نور، وما شابه ذلك.

ولكن.. أين المعايير المرجعية الفاصلة بين انعكاس التسمية في المضمون كما ينبغي فعلًا، وبين غياب ذلك نتيجة تناقض المضمون مع الإسلام أصلًا، تسييبًا أو تشدّدًا؟

مثال إعلام الهوية:

بعض الكتاب مسلمون يؤكدون أنهم يعبرون عن رؤيتهم للإسلام فيما ينشرون، ولكنهم مصنّفون عند كثير من الجماهير بأنهم من خصوم الإسلام والمسلمين! ويوجد كتّاب من غير المسلمين، معروفون بأنّهم يتبنّون قضايا عديدة من منظور مصالح إسلامية، حضارية وثقافية غالبًا، ومن منظور منصف عقديًا. وهنا ألا ينبغي في تقويم العطاء الإعلامي لتوصيفه بصورة سليمة، أن نعمل للجمع أو التكامل بين مفعول الانتماء والهوية ومفعول القيمة الذاتية للمضمون؟

هذه أمثلة من قائمة طويلة، مدار الكلام فيها غلبة مفعول المظاهر على المضامين، ولا يعني هذا التهوين من شأن اختيار المظاهر السليمة وفق الحاجة إليها، إنما الحديث هنا عن معايير لا تكفي المظاهر لتحديدها.

عائق «أيديولوجي» خارجي مرفوض:

أمر آخر.. عند التعامل مع توصيف إسلامي تحديدًا توجد عوائق من خارج نطاق من يؤيد ذلك من منطلقه الإسلامي ذاتيًا، أي عوائق صادرة عمّن يرفض ذلك من رؤيته التي ترفض ابتداءً قيمة المنطلق العقدي وما يتفرع عنه.

غالبًا ما يوضع الاعتراض على توصيف الإعلام بالإسلامي في صيغة متطابقة مع الاعتراضات على كل توصيف يشمل تعبير إسلامي في قضايا العلاقات بين البشر، السياسية وغيرها، وهي صيغة اعتراض تستخدم تعبير أيديولوجيا تهمةً غير قابلة للنقاش بمنظور من يطلقها، أي أنه يغلق على نفسه باب الحوار أصلًا.. وهذا بحد ذاته سلوك أيديولوجي مرفوض، وفق ما يقول به مستخدمو كلمة أيديولوجيا نفسها، من أنها تتضمن إقصاء الآخر.

الجدير بالتأمّل أن لفظة أيديولوجيا هذه معرّبة، والترجمة الأقرب للصحة هي كلمة عقائدية، ولعل تجنبها عند المعترضين باللغة العربية هو نتيجة تقدير مسبق لردود فعل رافضة من جانب العامة أو غالبيتهم، فلفظة عقائدية مثيرة للحساسيات في أوساط الغالبية من المتدينين من أصحاب الديانات السماوية.

إن المعترضين بهذا الأسلوب على توصيف إسلامي يقعون هنا في تناقض مع ما يقولون به بشأن تحكيم الغالبية، ووجه التناقض هو في انتقائيتهم التي تربط قبول التحكيم بتوقع موافقة الغالبية على أطروحات صادرة عن رؤاهم الذاتية هم فقط.

ضبط مراجعة الإعلام الإسلامي:

هذا الأمر يتطلب في توصيف الإعلام بالإسلامي مراعاة جانبين متكاملين لا ينفصل أحدهما عن الآخر.

الأول: ينبغي التأكيد هنا أن مراجعة الإعلام الإسلامي - مثل مراجعة الفكر الإسلامي - مرتبطة مباشرة:

- بكونه إسلاميًا بمعيار المقاصد قطعية الدلالة وحيًا.
- وكونه قويمًا وفق القواعد الأصولية الكبرى.
- وكونه صائبًا بالميزان البشري لتلاؤمه مع مصالح بشرية ومتطلباتها واحتياجاتها وما يستجدّ منها.

أما عداء التوصيف بالإسلامي لمجرد العداء، مثل وصفه بالأيديولوجية على سبيل الاتهام، وبالتالي القول إنه انتهى مع انتهاء عصر الأيديولوجيات - وهي مقولة غير منضبطة أصلًا بدراسات رصينة - فذاك من الشطحات التي لا تصمد أمام ما يقول به منطق فلسفي عمومًا أو فكر بشري منصف[١٧].

الثاني: مراعاة الآخر:

من الموضوعية التأكيد أيضًا، أن صلاحية المعيار المطلوب في توصيف عطاء إعلامي بالإسلامي:

- لا ترتبط فقط بالمنتج والطرف المستهدف، ولا سيما عندما ينطلقان من منطلق واحد من حيث المعتقد والرؤية.

(١٧) انظر للكاتب «تحرير المعرفة- رؤية إسلامية لمسيرة المعرفة على أمواج الفلسفة»، كتيب يتوافر في ملف شبكي في الموقع الشخصي «مداد القلم»: http://midadulqalam.info/articles

- بل ترتبط أيضًا بالطرف الثالث، أي من يطلع على تلك العطاءات، فيستفيد أو يتضرر، بالمنظور الحقوقي والقيمي والقانوني والأدبي المعنوي، وتجب مراعاته في البحث عن معيار مناسب للتوصيف، كما يأتي لاحقًا.

كلمات من وحي المقاصد والمصالح

على النقيض من العلوم الطبيعية يقتضي التعامل مع العلوم الإنسانية والاجتماعية - وعلم الإعلام منها - مراعاة تعدد وجهات النظر حتى في صياغة المفاهيم المحكمة للمصطلحات[١٨]، ومن باب أولى في صياغة معايير التوصيف كما في حالة الإعلام الإسلامي.

من قواعد ضبط التوصيف بكلمة إسلامي:

تعدد وجهات النظر يكتسب قيمته عند ضبط التوصيف بقواعد تشير إليها العناوين المبوّبة الآتية:

(١) لا ينفي تعدد وجهات النظر أهمية منهجية الدراسة.

(٢) التمييز في التعامل مع تعبير إعلام إسلامي بين الإعلام المتطور بمضامينه ووسائله، عبر جهود بشرية تصيب وتخطئ، والإسلام القائم على ثوابت من الوحي، واجتهادات فكر بشري يصيب ويخطئ.

(٣) تجنب رؤى تحمل عنوانًا إسلاميًا وتتناقض مع الإسلام، مثل فرض قيود أو إملاءات قسرية على العطاءات الإعلامية ومن ينتجها ويستهلكها، انطلاقًا من منظور بشري منفصل عن ثوابت الإسلام تسييبًا أو تعنّتًا.

(٤) واقع الإعلام المعاصر عمومًا أنه يخضع لقيود قانونية أيضًا، لا يؤخذ به حجة لفرض القيود من منطلق إسلامي دون ضوابط منهجية لعملية التقنين وفق متطلبات الجمع بين ثوابت الوحي واجتهادات البشر.

(٥) لا تكتسب أي جهة صلاحية الانفراد بتحديد معايير توصيف الإعلام الإسلامي، وإن حملت تسمية انتمائية إسلامية، ومن شأن ذلك الانفراد أن يجعل الاختلاف حتميًا، أو مبرمجًا سلفًا كما يقال.

(٦) السؤال الحاسم في التعامل مع ما سبق هو: مع نفي العصمة لأي جهة بشرية.. كيف نجمع بين ماهية التوصيف من حيث ارتباطه بثوابت الوحي، وبين مرجعية بشرية تقوم هي على إعطاء المشروعية لعملية الجمع هذه، فضلًا عن أن التعامل مع الحصيلة التي تصل إليها، أي معيار التوصيف، تعامل بشري أيضًا.

تحقيق المقاصد.. من شروط التوصيف:

إن التلاقي بمنظور المقاصد الإسلامية على توصيف الإعلام بالإسلامي ضروري، وممكن بقدر ما يكون حول الكليات دون الانزلاق إلى متاهات اجتهادات تفترق وتتناقض عند التفاصيل. والتلاقي نسبي، دون مستوى الإجماع على أركان الإيمان أو أركان الإسلام مثلًا، بل هو أقرب إلى التلاقي المعروف عن توافق الغالبية العظمى.

ومن أراد المدخل إلى التلاقي المقاصدي إعلاميًا، فلا يغفل عن إشكالية الإعلام كمصطلح، وبالتالي عما يمكن إدراجه تحت عناوين العرف والمصلحة العامة.

من مفسدات ضوابط التوصيف:

من هنا الحديث عن التقارب حول مضامين المعايير وصياغتها وليس عن التوافق عليها أو فرضها، والعناوين الكبرى لإطار التقارب المرجو هي:

(١) التقارب لا يعني توحيد الرؤى، وإن بلغ درجة قريبة من مستوى الإجماع.

(٢) ليست المعايير المطلوبة مواصفات من قبيل المصداقية والنزاهة والعدالة والحرفية المهنية.. فهذه تشملها صلاحيات قطاعات التعليم والتربية والتشريع والتوجيه العام.

(٣) ليست المعايير قيودًا لضبط مضمون الإعلام وإخراجه.. فالقيود تتقرر في نطاق العلاقة بين الإعلام عمومًا وبين شرعة الحقوق الإنسانية وحريات الفكر والرأي والتعبير وضوابطها.

(٤) ليست المعايير قواعد عمل ملزمة في مجال تطوير وسائل الإعلام وأدواته.. فهذا الميدان تقني يرتبط بالوسائل الإعلامية تخصصيًا وبتحسين قيمة الإعلام المهنية الحرفية.

(٥) ليست المعايير مصدرًا لحدود عدائية بين إعلام إسلامي وسواه، فالعداء والافتراء وما شابه ذلك من صلاحيات القطاعات الحقوقية والقضائية، ولا يُحسم بصددها إلا في نطاق دولة ومجتمع يستقل فيها القضاء النزيه ويسود القانون المنبثق عن العدالة.

(٦) التمييز تلقائيًا بين إعلام إسلامي وسواه هو القيمة الحاسمة في اكتساب المعايير قيمتها التوجيهية نتيجة قوة ذاتية في منطق المضمون وسلامة الصياغة.

(١٨) انظر: عبد الوهاب المسيري، «اللغة والمجاز بين التوحيد ووحدة الوجود»، ص ١٩٦ وما بعدها، حول الاختلاف بين مصطلحات العلوم الطبيعية ومصطلحات العلوم الإنسانية والاجتماعية على خلفية العلاقة بين الدال والمدلول، دار الشروق، ط١، ٢٠٠٢م.

تجنبًا للإطالة يكفي الوقوف عند النقطتين الخامسة والسادسة فقط بشيء من التفصيل:

مراعاة الآخر:

غالبا ما يُسوَّغُ تصنيف الآخر إعلاميًا بالعدو بغلبة الجانب السلبي في تعامل الآخر مع الإسلام والمسلمين وقضاياهم، وما بلغه من تراكم ألوان الجهل والافتراء والعداء.

لا يلغي ذلك المصلحة الذاتية في عدم تغليب العداء للآخر في إعلام إسلامي؛ إذ يصبح آنذاك شبيهًا بما يرفضه وينتقده. والمطلوب بدلًا من ذلك إيجادٌ ذاتيٌّ قويمٌ يراعي أهمية التفاعل الإيجابي على صعيد العلاقات بالآخر، دون التقاعس عن بيان موضوعي لعدائه ومخاطره وما يسببه ذلك من أضرار ذاتية وعامة.

إن محور الإعلام هو التواصل من وراء مختلف الحدود والفواصل، ولهذا يتطلب توصيفه بالإسلامي ما يلبّي القناعات الذاتية من جهة، وكذلك ما يلبّي من جهة أخرى احتياجات التوجيه الإيجابي للقواسم المشتركة مع الآخر من داخل الطيف الإسلامي، أي في العلاقات البينية وهي متشعبة، وكذلك في العلاقات الأوسع نطاقًا، وهي متشعبة أيضًا، وتشمل أطراف العيش المشترك في بلد واحد ثم عمومًا على ظهر كوكب مشترك.. هذا دون إغفال شرط الندية في العلاقات، أي الحرص على تجنب أي أثر لمعادلة الهيمنة والتبعية.

وتزداد أهمية مراعاة الآخر في الإعلام الإسلامي باطراد نتيجة التطورات الجذرية في عالم الاتصالات، مثل زوال مفعول حواجز تعدد اللغات بتقنيات الترجمة، أو زوال مفعول الحدود والفواصل الجغرافية بتقنيات انتشار المعلومة شبكيًا وفضائيًا، حتى النشرة الإعلامية الداخلية في نطاق مؤسسة أو تنظيم أو دائرة رسمية، أصبحت مما يمكن الاطلاع عليه من جانب عدد كبير من البشر عمومًا.

كما ازدادت موجبات مراعاة العطاءات الإعلامية للتعامل مع الآخر، مع ازدياد اتساع دائرة انتشارها نوعيًا، بتعدد فئات المتلقّين / المستهلكين، وهنا يفرض توصيف الإعلام بالإسلامي؛ مراعاة قواعد إسلامية معروفة من قبيل التزام الحكمة وحسن الموعظة وشمول العدل وغيرها، وهذا ما يسري في التعامل مع الناس كافة، بغض النظر عن معتقداتهم وتصوراتهم وأجناسهم وممارساتهم[19].

التمييز التلقائي:

أما القول بمعايير تصلح للتمييز التلقائي فالمقصود به تمييز الإعلام أنه إسلامي من خلال انعكاسه عند المتلقي عبر مواصفات عامة مقنعة متوافقة مع التوجه العام السائد لتقويم المضامين الإعلامية ومعالم الإخراج. هنا ينزل تعبير التوجه العام المعاصر منزلة تعبير العرف في ثروتنا اللغوية العربية الإسلامية. وكل ما يتعلق بالبحث عما يتوافق مع العرف أو التوجه العام.. يعني عادة اتباع طريق أصعب في بحث منهجي، وهو في هذا البحث مما يستمده الباحث من واقع آني قائم ومن منطق بدهي سائد يسري على الإسلامي وسواه من قطاعات الإعلام.

مؤشرات لآلية التقارب على إعلام إسلامي

لا تنشأ آليات العمل عبر الحديث عنها، بل عبر إيجادها، ابتداءً من خطوات الاقتناع بضرورتها فالتفاهم عليها والتخطيط لتنفيذ ما يتم التفاهم عليه، حتى الشروع العملي في ذلك. ولذا يقتصر اختتام الحديث عن ماهية الإعلام الإسلامي، على أفكار في مجموعتين، يرجى أن تجد الطريق للمتابعة والتصحيح والاستكمال.

مجموعة مقترحات لتحسين أداء ما يوجد حاليًا:

مهمة تحسين الأداء قابلة للتنفيذ من جانب من يقتنع بها، اعتمادًا على شبكات الأنشطة الدعوية والمراكز التأهيلية والتدريبية، ومحورها الترويج لرفع مستوى أداء ما يوجد من وسائل إعلامية توصف بالإسلامية:

أولًا: تعزيز الالتزام بمواصفات إعلامية محورية، وإن كان تطبيقها المعاصر ضعيفًا، مثل التمييز بين المادة الخبرية والرأي، ودقة الصياغة، ومصداقية الطرح، والتحقق والتوثيق.. إلى آخره، وهذه قيم إعلامية تتوافق مع القيم الإسلامية.

ثانيًا: تعزيز الالتزام بقيم معروفة في مفردات منظومة القيم الإسلامية، كالصدق، والكلمة السديدة، والجهر بالحق، وتغليب المصلحة العامة.. إلى آخره، وهذه تتوافق مع ما

(١٩) النصوص الشرعية من الآيات والأحاديث، وبعض أقوال الصحابة كأمثلة على فهمهم وتطبيقهم للنصوص، توجد كثيرًا من الأسس التشاركية في التعامل مع الآخر من جنس الإنسان، مثل (ولقد كرّمنا بني آدم) أو (ولا يجرمنّكم شنآن قوم على ألا تعدلوا، اعدلوا هو أقرب للتقوى) أو (وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل) أو «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا».. وغيرها.

يذكر من قيم في المواثيق الإعلامية عمومًا.

ثالثًا: إضافة توجيهات وإرشادات إسلامية المضمون في العطاءات الإعلامية، مما يُستخرج من قواعد أصولية تشريعية، مثل: ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

رابعا: دعوة مماثلة على صعيد ما يُستخرج من المقاصد الإسلامية الكبرى، مثل: لا ضرر ولا ضرار.

مجموعة أفكار مبدئية لإنشاء آلية تنفيذية:

في ختام تعريفه بكتاب «الإعلام الإسلامي» للدكتور عبد الرزاق الدليمي، أستاذ الصحافة والإعلام وعميد كلية الإعلام في بغداد سابقًا وأستاذ الدعاية والإعلام في جامعة البتراء في الأردن حاليًا.. يقول وليد الزبيدي تعقيبًا على ما يبيّنه الكتاب بصدد رفع مستوى الإعلام الإسلامي على أرض الواقع: «إن مهمة الإعلام الإسلامي يجب أن تخرج من دائرة التنظير إلى حيز التنفيذ على أرض الواقع الإعلامي في العالم الإسلامي، وإذا اقتصرت مهمة الباحث والأكاديمي على التحذير من خطر مجال مهم في حياة الأمة، وهو الإعلام الذي يعيد صياغة ثقافة وقيم وأخلاقيات مجتمعات بأسرها - تسعى جهات ودول لتخريبها، ضمن حرب معلنة أحيانًا وملموسة أحيانًا أخرى - فإن من مهمة القائمين على الأمر الأخذ بما يقوله المفكرون والأكاديميون، لأن تحذيراتهم لم تأت من فراغ ولا بطر، وإنما من لوعة وألم وخوف على الأمة لكثرة أعدائها واتساع رقعة تأثير أدواتها الإعلامية»[٢٠].

والمطلوب على صعيد إيجاد آلية تنفيذية لهدف تقارب الرؤى حول مفهوم الإعلام الإسلامي:

أولًا:

اتخاذ خطوات تمهيدية لاعتماد عدد كاف من المتخصصين المعتبرين في العلوم الإنسانية ولا سيما علم الإعلام، نظريًا وممارسته تطبيقيًا، لصياغة محددات منهجية تخصصية قابلة للاعتماد عليها عند التمييز بين إعلام وإعلام تبعًا لما تقتضيه تعابير التوصيف: معتقد، رؤية، تصور، منهج، وما يشابهها. هذا مع ملاحظة أن تقبل المحددات واعتمادها يتحقق بقدر ما تكون الصياغة موضوعية وعلمية مقنعة، ويكون واضعوها من المتخصصين، معروفين وموثوقين علميًا، وتكون الجهات الأولى التي تتبناها وتعمل لتعميمها من الجهات المعتبرة المعروفة أيضًا.

ثانيًا:

الترويج لنتائج الخطوة الأولى، بالعمل على تعميم الانطلاق من المحددات المذكورة لتوصيف الإعلام عمومًا، أي تأكيد القاعدة العامة أن توصيف إعلام بالشيوعي مرتبط بمعايير مستمدة من المرآة الذاتية للشيوعية، وتوصيف إعلام بالرأسمالي على غرار ذلك، وهكذا أيضًا مع توصيف إعلام ديمقراطي أو ديكتاتوري، مع بذل جهود موازية لتعميم الدعوة إلى الالتزام بتجنب العشوائية في نشر التوصيفات، وعدم استخدامها بأسلوب تبادل الاتهامات.

ثالثًا:

المحددات المطروحة من معايير العلوم الإنسانية قابلة -إذا وضعت صياغات منهجية لها- أن تكون مستندًا لعلماء متخصصين بمقاصد الشريعة وقواعدها الأصولية، لاستنباط مواصفات معيارية مشتركة قدر الإمكان ووضع صياغات منضبطة ترشح لتكون مرجعًا في توصيف مادة إعلامية أو وسيلة إعلامية أو إنجازات إعلامية بأنها إعلام إسلامي.

خاتمة في سطور

النتيجة المرجوة اعتماد آلية منهجية في وضع المحددات والمعايير، وحرص المسؤولين عن عطاءات إعلامية إسلامية أن يعتمدوا هذا التوصيف وفق معيار إعلامي منهجيًا، وإسلامي تقويميًا، وهو ما يسري على ارتباط نسبة أي أمر آخر من الأمور إلى الإسلام كما أنزله الله، فذاك في نهاية المطاف هو معيار الارتباط بتحقيق مقاصد الإسلام، في كل مكان وزمان، بآليات متبدلة متطورة ضمن إطار ثوابت من الوحي.

والخلاصة:

إن هدف الوصول إلى تقارب الرؤى حول مواصفات مميزة لإعلام إسلامي، هدف مشروط بمحددات أولية تنبثق عمّا تعنيه كلمة الإعلام عمومًا، مع مراعاة تطور مضمونها وتطور وسائل الإعلام.. ثم الرجوع بتلك المحددات إلى مقاصد الشريعة انطلاقًا من الإسلام كما أنزله الله.. وجميع ذلك مع اعتبار كلمة «إعلام إسلامي» توصيفًا فحسب وليس مصطلحًا محكمًا.

والله من وراء القصد.

(٢٠) وليد الزبيدي، «الإعلام الإسلامي» تعريف بكتاب، شبكة الجزيرة، ١٩/ ٣/ ٢٠١٣م.
http://www.aljazeera.net/knowledgegate/books

خصائص الخطاب السياسي في الإسلام وعلاقته بالخطاب الدعويّ

د. عبد السلام البيطار
دكتوراه في التفسير وعلوم القرآن

لا شك أن الأمة اليوم تعيش في زمان عصيب يختلف كثيرًا عن الأزمنة السابقة، وقد جدت فيه دواهي وحوادث لم تكن تخطر على قلب بشر، وبعض هذه الحوادث كان في مجال السياسة بنوعيها الداخلي والخارجي؛ إذ غلبت على السياسية العالمية اليوم مجموعة من الأخلاقيات الشريرة التي لم تعهدها البشرية من قبل بهذه الفظاظة والقبح، لقد غدت سلوكيات مثل الظلم والخديعة وتدمير المجتمعات أخلاقيًا واقتصاديًا أو محو شعوب وأمم بأكملها من أساسيات القوة السياسية اليوم، كما غدت السياسة مسلكًا أكثر دقة من ذي قبل، حتى إن غفلة بسيطة تنشب حروبًا أو تودي بمصائر دول وأمم.

ما موقف الإسلام من كل ذلك؟ وما واجبات السياسي المسلم اليوم وهو يعيش وسط هذه المستنقعات غير الأخلاقية التي تأخذ بالبشرية إلى مصير أسود محتوم؟

والحقيقة أننا في خضم هذه التحديات التي تعصف بأمتنا الإسلامية من كل حدب وصوب، نحتاج إلى خطاب سياسي إسلامي يتناغم مع المعطيات في واقعنا؛ يحرر مواطن النزاع والخلاف، ويطلق مبدأ الحوار الأخلاقي.

إن من خصوصيات ديننا الإسلامي صلاحيته لكل زمان ومكان، لما فيه من سعة في الخطاب ومرونة منضبطة في قواعد الاجتهاد، وإن السعة والشمولية في الخطاب الإسلامي هما الأساس الذي يجعل الدين الإسلامي قابلًا للعيش والحكم في الحياة الإنسانية حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

إن ما يميز النظام السياسي في الإسلام عن باقي الأنظمة السياسية البشرية؛ عدم انفكاكه أبدًا عن مقاصده الأخلاقية أو الدعوية، كما أنه لا يمكن أبدًا أن يتعارض مع مقتضيات العقل السليم أو الحاجات البشرية الصحيحة، وهذا ما سنطالعه الآن في تتبُّعنا للنصوص القرآنية المتعلقة بهذا الباب؛ إذ نجد دعوة الإسلام إلى الأخلاق والفضيلة وتوحيد الله تمشي جنبًا إلى جنب مع خطابه السياسي بل لا تنفك عنها أبدًا.

لقد ورد في القرآن الكريم أنواع مختلفة من الخطابات، تتنوع بتنوع الميادين التي يعيشها البشر؛ إذ تجد له خطابًا يتعلق بالعقيدة والعبادة، وآخر بالأخلاق، وثالثًا بالاقتصاد وغيرها من ميادين الحياة المادية، وكان من هذه المحاور التي عالجها القرآن الكريم الخطاب السياسي الذي تضمنت آياته ما يتعلق بنظام الحكم والخلافة والدولة والرعية والروابط بينها، وفيه حث وتوجيه ودعوة إلى الحوار اللين المرن الهادئ مع ترسيخ للقيم والمبادئ، وهي خصائص تميز بها الخطاب السياسيُّ في القرآن الكريم، مما جعله منهجًا صالحًا وأساسًا واضحًا لبناء نظام سياسي متكامل، يجمع في طياته أسباب النجاح إن تم العمل بمقتضى الفهم الصحيح له، والاستنباط السليم وحسن القياس ومراعاة الواقع ومتطلباته.

إن الخطاب السياسي عبارة عن حقل للتعبير عن الآراء،

واقتراح الأفكار والمواقف حول القضايا السياسية، كشكل الحكم وأقسام السلطة وأنواعها، ويُعتبر خطابًا إقناعيًّا يهدف إلى حمل المُخاطَب على القبول والتسليم بصدقية الدعوى، عن طريق توظيف الحُجج والبراهين، وإن الخطاب السياسي في القرآن الكريم متمحور حول هذه الأمور ومتعلقاتها؛ إذ يتحدث عن بناء الدولة ونظام الحكم وعمارة الأرض بأساليب متعددة من الكلام، منها خطاب الله المباشر، ومنها خطاب الأنبياء وحوار الناس فيما بينهم، ولهذا الحديث السياسي أنواع مختلفة تعرض في آيات الذكر الحكيم، منها حديث سياسي ذو طابع منطقي يخاطب العقل والفكر، وآخر سياسي بأهداف تربوية وإنسانية، أو سياسي يقرر مقاصد دعوية جاء الإسلام لتبليغها، وأنواع أخرى يجدها الإنسان المتأمل في كتاب الله.

ومما سبق فإن كل خطاب قرآني وإن اختلف شكله وتنوع، يحمل من تلك الخصائص القدر الذي يتناسب مع الحالة والواقع الذي سيق فيه أو لأجله، وهنا يظهر إعجاز القرآن الكريم وربانيته، وهذا ما لا نجده في أي دستور دولة أو نظام حكم أو حزب أو جماعة أو مؤسسة، قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾ [سورة النساء: آية١٠٥].

شمولية الخطاب السياسي في القرآن الكريم:

إن الشمول من صفات آيات القرآن الكريم، وهي أدق من العموم، والعموم صفة ملازمة للقرآن الكريم كذلك، فهو مخاطب لعموم أصناف البشر في كل زمان ومكان، وكونه شاملًا، أي يتناول جوانب القضايا الإنسانية الكبرى بشكل مفصل، كاف لبناء رؤيته المستقلة دون الدخول في التفاصيل الهامشية، ومثال على ذلك من توجيهات القرآن الكريم في الجانب السياسي قول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [سورة النساء: آية٥٨] فهذا الخطاب ذو مضمون سياسي موجه للحكام والقضاة وأهل الرأي، ومن يعمل في ميدان السياسة بكافة أشكالها وطرقها، ففيه دعوة للحكم بالعدل بين الرعية، وهو شامل عام لا يقتصر على مرحلة بعينها، صالح لكل الأزمنة، من عمل به تحقق له الحكم والسيادة، وأولى المطالبين به حملة هذا الدين، فهذا دستورنا ومنهاج حياتنا، وإن تخلى عنه المسلم فلم يعدل ولم يتق ربه في تعامله مع الآخر؛ تساوى مع خصمه الكافر حتى تكون الغلبة للأقوى.

يقول الشيخ النورسي رحمه الله: (فالقرآن الحكيم يخاطب كل طبقة من طبقات البشر في كل عصر، كأنه متوجه مباشرة إلى تلك الطبقة خاصة، وهو يدعو جميع بني آدم بجميع طبقاتهم ويدرسهم الإيمان ومعرفة الله والأحكام الإسلامية بما يوافق كل نوع وكل طائفة... فالدرس واحد وليس مختلفًا، وعليه فيلزم وجود الطبقات في عين الدرس، فيأخذ كل منهم حصة درسه عن طبقة من طبقات القرآن حسب الدرجات)[1].

وهذا الشمول والاستيعاب، يجعل على عاتقنا مسؤولية كبيرة لا يمكن التهرب منها أو الانفكاك عنها، فلا عذر لنا في أي خلل أو أذى يصيبنا، أو ضعف يلحق بنا، أو عدو يستهدفنا وينال منا. إن دستورنا القرآن يحتوي على برامج عمل متكاملة، ويوضح طرق التنفيذ وآلياته، بنتائج مضمونة ومرتبطة بوصفة ربانية صادقة، فإن آمنا وطبقنا ونفذنا وعملنا بها؛ مكّن الله لنا فحكمنا العالم ودانت لنا العرب والعجم من شتى الأمم، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [سورة محمد: آية٧].

عمق الخطاب السياسي في القرآن الكريم:

إن ما يميز الدستور القرآني عن غيره من الدساتير البشرية العمق، ويحتاج السياسي إلى الغوص في معانيه وألفاظه، ليستخرج منه ما يحتاجه ويناسب واقعه وحاله، ومهما كان ذلك الميدان الذي يدور في فلكه، فسيجد له تفسيرًا وشرحًا وتأويلًا ومخرجًا.

إن القرآن عميق ومتين وثابت لا يتغير ولا يتبدل، ومع هذا فإنه مرن لين سلس، والإنسان كلما تفكر وتعمق في مدلولات آيات القرآن الكريم أخرج من الكنوز والدرر الكثير مما يناسب حاله وبيئته، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((إِنَّ هَذَا الدِّينَ مَتِينٌ، فَأَوْغِلُوا فِيهِ بِرِفْقٍ))[2] وهذا من إعجازه ومزاياه وصلاحه لكل زمان ومكان، فما كان من خطاب سياسي موجَّهٍ لحاكم أو مجتمع في زمان معين، يصلح أن يقاس عليه في زمان آخر وواقع مختلف، وإن تقدم العلم.

فأسس الخطاب ثابتة واضحة، والتعمق في فهم الخطاب السياسي ومدلولاته وآثاره يجيب عن كثير من التساؤلات، ويعالج كثيرًا من المشكلات، مثال ذلك خطاب الله لنبيه موسى وأخيه هارون عليهما السلام في قوله تعالى: ﴿اذْهَبْ

(١) بديع الزمان سعيد النورسي، مجموعة المقالات الكبرى، ترجمة محمد زاهد الملا زكردي، مطبعة رسائل النور، ط١، ٢٠١٠م، ص٤٤٥

(٢) رواه أحمد في مسنده عن أنس رقم (١٣٠٥٢) والبيهقي في باب القصد في العبادة والجهد رقم (٤٩٣١)

أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي * اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ [سورة طه: آية٤٢-٤٤] فهذا التوجيه ببيان أهمية العمل الجماعي، والتسلح بالحجج والبراهين، مع قوة في الطرح وصبر وذكاء في طريقة التعامل مع الحاكم الظالم، كلها سياسة يعلمنا إياها القرآن الكريم، ومن تعمق في فهم هذه الآيات وربطها بالواقعة التي تنزلت فيها أو جاءت في سياقها؛ وجدها صالحة بكل معانيها للتعامل مع فراعنة هذا الزمن، فما ذكره القرآن الكريم في وصفهم ينطبق على أشباههم اليوم ممن يحذون حذوهم، ومن يُعمل النظر يجد وكأن الآيات الكريمة نزلت لزماننا، وقد جاء في ذكر قوم فرعون في ذلك الزمان: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ [سورة الزخرف: آية٥٤] فكان هذا في وصفهم وما لحق بهم من الحمق والضعف، وهو توصيف ينطبق بحذافيره على حال بعض شعوبنا مع فراعنة هذا الزمان.

واقعية الخطاب السياسي في القرآن ومخاطبته العقل:

إن من خصائص الخطاب السياسي في القرآن الكريم محاكاته للواقع وخطابه للعقل وتناغمه مع معطيات كل مرحلة على حدة، فكما هو معلوم إن ميدان العمل السياسي بكل أشكاله وأنواعه، من نظام حكم وتأسيس دولة وتشكيل حزب أو تيار، ونظام قضائي أو تشريعي أو تنفيذي، وما إلى ذلك يحتاج إلى عقل راجح وحكمة وذكاء ودهاء، فكان أن جاء الخطاب القرآني السياسي مخاطبًا للعقل ومحاكيًا للواقع.

فمعطيات الواقع لا بد لها من عقل يوازن بين الصالح والأصلح، والفاسد والأشد فسادًا، ومن لا يُضَمِّن الواقع قراراته السياسية لا عقل له ولا سعة أفق وسيورد رعيته المهالك، فبحسب الواقع تصدر الأحكام من تشكيل الدولة إلى بيان شكل العلاقة بين الدول، وهي تعتمد كذلك على دراسة واقع الدول الأخرى، لمعرفة الطريقة المثلى في التعامل معها بما يخدم المصلحة العامة، فكل هذا بحاجة إلى عقل يميز ويقارن ويقيس.

وقد يلاحظ أن في العمل السياسي من المرونة والليونة ما لا نراه في أي مجال آخر، وفيه مجال للمناورة ورخصة وسعة، وقد ورد في القرآن الكريم كثير من الآيات التي تبين ذلك الترابط بين الواقع والعقل، وأثر ذلك في الأحكام والقرارات السياسية، ومن أمثلة ذلك في القرآن الكريم ما نقله الله من حوار ملكة سبأ مع أفراد حاشيتها ليكون ذلك عبرة ودرسًا للمؤمنين.. لقد وقع كتاب سليمان عليه السلام في يدها، ورأت فيه تهديدًا شديد اللهجة، فلم تتخذ القرار بمفردها وإنما سألت ملأها عن رأيهم في ذلك، وقد حكى القرآن جوابهم فقال تعالى: ﴿قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ [سورة النمل: آية٣٣] يقول الشيخ الشعراوي رحمه الله: (لقد وضعوا الأمر في رقبتها وهي امرأة، ففكرت: سأجرب وأختبره وأنظر أهو طالب مُلك أم صاحب دين فأرسلت هدية له، وقد حكى القرآن ما قاله سيدنا سليمان عندما تلقى الهدية، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ [سورة النمل: آية٣٦] فعرفت بلقيس أن المُلْك ليس هدفه، وبعد ذلك عرفت أنه صاحب رسالة، فقالت: أذهب إليه وأسلم. انظر أداء العبارة القرآنية عندما تصور إيمان ملكة قالت: ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [سورة النمل: آية٤٤]).

إننا نلاحظ كيف أن القوم ذكروا الملكة بواقعهم وما لديهم من بأس وقوة، ولكنهم انتظروا القرار السياسي المستند إلى حكمة العقل لا إلى غرور القوة، فالعقل يوازن ويقدر ويرجح بين الجيد والسيئ، وبين الجيد والأجود أو السيئ والأسوأ. وقد كان من حكمة بلقيس وعقلها أنها ردت على رسالة سليمان عليه السلام بإرسال هدية قيمة له تختبر من خلالها حقيقة أمره وتتعرف على مرامه وهدفه، وعندما عرفت تعاليه عن الماديات وتسامي هدفه سعت نحوه مؤمنة بالله عز وجل.

إن في هذا الدرس القرآني أصنافًا شتى من عبر السياسة ودقائقها، فلا بد للحاكم أن يعرف واقع الطرف الآخر وأهدافه، حتى يحسن اختيار طريقة التعامل لعل عقله يهديه إلى الصواب وتجنيب الأوطان الدمار وويلات الحرب، وعند ذلك ما يكون على الرعية إلا السمع والطاعة لولي الأمر الذي بذل جهده في حماية شعبه ونصحه وتجنيبه دركات الفشل والضياع.

في مقابل هذه الحكمة السياسية التي دعا إليها القرآن الكريم يستطيع المسلم أن يقارن بين واقعه السياسي المحزن وبين مصير الأمم العاقلة التي تقودها قيادات راشدة، ليعرف من أين أتى وإلى أين سيصير أمره. إن الخطاب السياسي في القرآن الكريم شامل وعميق ولين وواقعي وعقلاني، فأين نحن من ذلك، إن ما أصاب أمتنا اليوم في ميادين السياسة هو نتيجة حتمية لبعدنا عن تحكيم المنطق والعقل الذي أمرنا به القرآن الكريم.

القيم الأخلاقية في خطاب القرآن السياسي:

هنا لابد أن نعلم أن من أهم الخصائص التي اختص بها

الخطاب السياسي في القرآن الكريم دعوته إلى القيم قولًا وعملًا وسلوكًا في كل المجالات السياسية، فقيمة العدل والشورى والحرية والمساواة والتواضع والصبر والإحسان وغيرها من الأخلاقيات الفاضلة جعلها الله جل جلاله مرتكزات أساسية لبناء سياسي متين، وهذا ما لا نجده في حسابات الكفار والملحدين، لا في أعمالهم ولا في سلوكياتهم، فالمطبخ السياسي عند الأنظمة الغربية والعلمانية يهدف إلى السيطرة على ما في يد الأمم الضعيفة واستعبادها ولو كان ذلك على حساب القيم الإنسانية، فالظلم والكذب والدجل والتزوير عناوين للقدرة، ونقض العهود وخيانة المواثيق جزء من الذكاء السياسي؛ طالما أنها توصل إلى الأهداف الشريرة التي تسعى نحوها.

إن الانحطاط الأخلاقي الذي تتميز به معظم مراكز السياسة العالمية اليوم، لا يقف في وجهه إلا النظام السياسي الإسلامي المبني على القيم الأخلاقية الفاضلة، وهذا سر اتفاق قوى الشر في العالم على منع قيام النظام الإسلامي السياسي العادل، من خلال الحرب المباشرة عليه، أو محاولة تشويهه بواسطة بعض التنظيمات المتطرفة المرتبطة به بشكل أو بآخر.

إن القرآن الكريم قد ركز في نصوصه على مقاصد السياسة الحكيمة العادلة، بينما تجاهل التفاصيل المؤقتة، فهو يضع المعالم ويترك لأتباعه حرية اختيار الطريق السليمة التي يرونها الأصلح للوصول إلى القيم السامية التي أرشدهم إليها، (ففي نظام الحكم مثلًا، لم يفصل القرآن الكريم نظامًا لشكل الحكومة ولا لتنظيم سلطتها، ولا لاختيار أولي الحل والعقد فيها، وإنما اكتفى بالنص على الدعائم الثابتة التي ينبغي أن تعتمد عليها نظم كل حكومة عادلة، ولا تختلف فيها أمة عن أمة، فقرر العدل في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ [سورة النساء: آية٥٨] والشورى في قوله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: آية١٥٩] والمساواة في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [سورة الحجرات: آية١٠]، أما ما عدا هذه الأسس من النظم التفصيلية فقد سكت عنها ليتسع لأولي الأمر أن يضعوا نظمهم ويشكلوا حكومتهم ويكوّنوا مجالسهم، بما يلائم حالهم ويتفق ومصالحهم غير متجاوزين حدود العدل والشورى والمساواة)[٣].

يقول سيد قطب في قيمة الشورى: (إنه طابع ذاتي للحياة الإسلامية، وسمة مميزة للجماعة المختارة لقيادة البشرية، وهي من ألزم صفات القيادة، أما الشكل الذي تتم به الشورى فليس مصبوبًا في قالب حديدي، فهو متروك للصورة الملائمة لكل بيئة وزمان)[٤].

وقيمة المساواة مثلًا هي من أعظم القيم التي حث عليها القرآن الكريم، في كل خطاباته الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، فلا يجوز أن يفرق الحاكم بين أبناء شعبه على أساس العرق أو الشكل أو اللون، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [سورة الحجرات: آية١٣] وفي زماننا هذا نجد التفرقة الطائفية والعنصرية والقومية من أهم إفرازات السياسة العالمية التي تهدف من وراء ذلك إلى تشتيت المسلمين وإضعافهم، ومنعهم من حماية بعضهم أو حماية الأقوام الضعيفة التي لاذت بهم عبر تاريخها الطويل.

الترابط بين الخطابين السياسي والدعوي في القرآن الكريم:

الخطاب الدعوي في القرآن الكريم ما كان مضمون الخطاب فيه متعلقًا بالعبادات بأشكالها، والمعاملات بأنواعها، وترسيخ العقيدة الصحيحة، والحث على تزكية النفس وبيان طرق التعامل بين المسلمين أو بينهم وبين غيرهم، قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [سورة النحل:١٢٥] بل إن الخطاب الدعوي أكثر من ذلك وأعم وأشمل، فيضم في أعماقه الخطابات السياسية والاجتماعية والاقتصادية؛ إذ كلها جزء من دعوته للنهوض بالحياة الإنسانية نحو الخير والفلاح الدنيوي والأخروي، وإن الخطاب الدعوي يتحرك عبر ثلاث قنوات، أو بوابات كبرى: أولها التاريخ؛ أي الزمن، وثانيها العالم والطبيعة والكون: أي المكان، وثالثها اليوم الآخر: أي المصير.

ولقد تنادى في زماننا جمع من العلماء والشيوخ، وأطلقوا دعوات لفصل السياسة عن الدعوة، وأصبحت حديث طلاب العلم والعامة من الناس، أملًا في أن يكتب للمشروع النهضوي الإسلامي النجاح بهذا الفصل، وهو خلطٌ مآله الفشل ومصيره الزوال! والسؤال لماذا نحكم على هذا الفصل بالفشل؟

لو فرضنا جدلًا أننا قمنا بفصل العمل السياسي عن الدعوي، فإننا سنواجه الفشل والخسران على جبهتين، الأولى الجبهة السياسية والثانية الجبهة الدعوية.

(٣) عبد الوهاب خلاف، الإسلام والسياسة العادلة، شبكة الألوكة.

(٤) سيد قطب، في ظلال القرآن، ط١٧، ١٤١٢هـ-١٩٩٢م، دار الشروق.

أولًا- الفشل السياسي:

إن فصل الدعوة الإسلامية عن ميدانها السياسي يعني الفشل الحتمي للمشروع السياسي الإسلامي؛ إذ تصبح سياسته بلا جدوى حقيقية، من خلال انتقاله من السعي إلى المثل العليا إلى اللهاث خلف المصالح المؤقتة والمكاسب الآنية الوهمية التي لا تعدو السراب في نظر أصحاب القيم الإنسانية السامية، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾ [سورة النور: آية٣٩].

إن دعوة الفصل هذه ناتجة عن التسرع والتخبط والاضطراب، والرغبة في تحقيق النجاح السريع، والأصل في ذلك التأني، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((سَدِّدُوا وَقَارِبُوا وَاغْدُوا وَرُوحُوا وَشَيْءٌ مِنَ الدُّلْجَةِ، وَالْقَصْدَ الْقَصْدَ تَبْلُغُوا)) (٥).

ثانيًا- الفشل الدعوي:

كما أن فصل السياسة عن الدعوة يفشل المشروع الإسلامي السياسي العادل؛ فإنه في الوقت نفسه يؤدي إلى فشل الميدان الدعوي؛ إذ تتحول الدعوة من خلال هذا الفصل إلى قضية نظرية تعاني الجفاف والمنطق العملي، وإن الفصل بين هذين الميدانين كفصل الروح عن الجسد، وعليه فلا بد من بقاء العلاقة بينهما كما جاءت في القرآن الكريم، فالسياسة العادلة تحمي الدعوة والدعوة السليمة تضبط المجتمعات بضوابط الإسلام السامية، وتؤهلها للعيش الصحيح وفق قانون العدالة والمساواة الذي جاء به الإسلام.

وعندما نشبه العمل السياسي والدعوي بالروح والجسد، فإننا بحاجة لبيان ما لكل واحد منهما من أدوات خاصة وطرق تغذية منفصلة، فللجسد غذاؤه وللروح غذاؤها، ولكنهما في الوقت نفسه مرتبطان ببعضهما ارتباطًا تامًّا يفضي إلى اعتماد كل منهما في حياته على بقاء الآخر وحياته.

وإن هذا الارتباط والتكامل بين الميدانين السياسي والدعوي لا يعني أبدًا الخلط بينهما؛ فلكل واحد منهما معالمه الخاصة التي تقوم برعايتها مراكز وإدارات مختلفة تمامًا في طريقة عملها عن الأخرى.

إن الغرب بتنوعه الديني والعرقي، لطالما ربط بين الكنيسة والسياسة وبين معتقداته وسياسته وهو يسعى إلى السيطرة على العباد والبلاد بهذه الطريقة، ولكننا غافلون. إن أعداءنا يوازنون بين سياستهم وعقيدتهم، بينما يبحث العلمانيون العرب عن حضارتهم ونهضتهم من خلال رمي تعاليم الدين خلف ظهورهم والانطلاق إلى الحياة والسياسة بعقول فارغة إلا من المصالح والمكاسب الآنية التي لا تعدو كثيرًا فكر القبيلة الذي كان سائدًا في العصور الجاهلية.

لا يرى المفتونون بالغرب أن منهجه السياسي مبني على الظلم والاستهتار بالوجود البشري وقيمه الإنسانية الفاضلة، وسلوك كل أنواع الكذب والدجل ونقض العهود والمواثيق للوصول إلى أهدافهم الشريرة، امتدادًا لحالهم في الكذب على الأنبياء وتحريف الكتب السماوية وتزويرها.

في مقابل ذلك يتجاهل العلمانيون العرب أن المنهج السياسي الإسلامي منهج مؤسس على القيم الفاضلة المستندة إلى أخلاق النبي الخاتم وتوجيهات القرآن الكريم الداعية إلى الصدق والإخلاص والعدالة والالتزام بالعهود والمواثيق مع الحرية الكاملة للعقل البشري في سلوك الطرق المؤدية إليها.

فإذا كان الفصل الذي يدعو إليه البعض، هو الفصل بين الحق والباطل وبين الكذب والصدق فبها ونعمت، وإن كان الفصل بين السياسة القرآنية النبوية، والأخلاقية الدعوية، فهو مرفوض مردود.

إن العلاقة التي تربط بين الخطابين السياسي والدعوي في القرآن الكريم هي علاقة تشاركيةٌ ترابطيةٌ تكامليةٌ، إذ مصدر الخطابين من الله تعالى، والمخاطَب هو الإنسان، وإن الفصل الحق الذي ينبغي أن نسعى إليه اليوم هو فصل الاختصاص بين مؤسسات الدعوة والسياسة، لا فصل الانسلاخ والتفلت، فإن لكل ميدان مؤسساته ورجاله.

وفي نهاية هذا المطاف على المسلم ألا ينسى أن الخطاب الدعوي في القرآن الكريم لا يخلو من السياسة كما لا يخلو السياسي من الدعوة والتوجيه، قال الله تعالى مخاطبًا نبيه موسى عليه السلام: ﴿اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي * اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ [سورة طه: آية٤٢-٤٤] ففي مضمون الآية، توجيه دعوي ودعوة وحوار وفيه سياسة وتنبيه على أفضل أساليب التعامل مع الحاكم الظالم.

وأختم بما ذكره الفيلسوف الإسلامي مالك بن نبي رحمه الله في هذا المضمار إذ قال: (عندما يحال بين الفكر والعمل السياسي، يبقى الأول غير مثمر والثاني أعمى)(٦).

(٥) رواه البخاري في باب القصد والمداومة على العمل، رقم (٦٤٦٣).

(٦) مالك بن نبي، الصراع الفكري في البلاد المستعمرة، إشراف: ندوة مالك بن نبي، دار الفكر الجزائر، دار الفكر سورية، ط٣، ١٩٨٨م، ص٢٩

قراءة في ظاهرة الإلحاد
وكتاب «قصة الإيمان»

الباحث محمد حازم الطباخ
ماجستير أصول الفقه

إن أحد أهم محاور الخطاب الإسلامي اليوم الحرب على الإلحاد والملحدين وفلسفة الطعن بالدين والتشكيك فيه والاستهزاء بثوابته، وإن هذا الخطاب قد نجح إلى حد ما في الحفاظ على الدين والأمة، ولكنه في بعض الأحيان تجده يخلو من المنطقية في الطرح والمناقشة وذلك لجهل بعض الدعاة بحقيقة الطرف الآخر الذي يدعو لنسف أسس الديانات والإيمان بالله، إن معرفة الطرف المقابل شيء أساسي لبناء الخطاب الإسلامي وفق قواعد حوار منطقي مقنع يجيب على شكوك الطرف الآخر ويستخدمها لإرشاده وهدايته.

لدى مراقبتنا لخطاب الدعاة المسلمين العاملين على مواجهة هجمات التيار المادي الإلحادي نجدهم ينقسمون إلى قسمين رئيسين: الأول منهما وقف مصادما لكل ما جاء عن الماديين والملحدين ومحذرا منه ومن خطره على المجتمع استدلالا بآثاره المدمرة على الأمم، والثاني منهما قام بدراسة الخطاب الإلحادي واستيعابه وفهمه، ثم بعد ذلك استخدم قواعده ومنطلقاته في محاورة الآخر ورده إلى الصواب، ومن أبرز من حاول استيعاب منهج الماديين والفلاسفة واستفاد منه في محاورتهم الشيخ نديم الجسر في كتابه «قصة الإيمان».
إن هذا المقال جاء ليشرح عن الإلحاد بما يبين حقيقته للمسلم ثم يسلط الضوء على أسلوب الشيخ نديم الجسر في محاورة تيار الشك والإلحاد، وهو أسلوب شَهد له كبار العلماء بالتميز والإقناع حتى غدا كتابه ركنًا من أركان الفكر الإسلامي في القرن العشرين.

يعد الإلحاد إحدى الظواهر الجديدة القديمة التي تؤرق بال كثيرٍ من الباحثين والمهتمين بشؤون الدين والفلسفة، وهي ظاهرة باتت تشكل هاجسًا لدى كثير من الدعاة والمفكرين، ذلك أن هذه القضية هي المدخل إلى كثير من الظواهر الخبيثة التي تنخر في كيان المجتمع، فظواهر الانحراف الخلقي والفساد المجتمعي والقلق والانتحار غالبًا ما تنشأ عن هذه الظاهرة، ولذلك فهي تحتاج إلى مزيد من تسليط الضوء والكتابة والبحث، ومزيد من العناية والاهتمام من قبل الباحثين والمختصين في مختلف مجالات الفكر الإنساني.

وقد ظهر في عصرنا الحديث أناس لبسوا لَبوس العلم وبدؤوا بنشر الأفكار التي ترسخ مبدأ الإلحاد وتدعو إليه، بحجة أن قوانين العلم لا تدل على وجود الله، وأن العلم الحديث يتعارض مع مبادئ الدين الحنيف وتعاليمه، وللأسف كان منهم ممن طلب العلم الشرعي وتستر به فترة من الزمن، وبدأ بنشر سمومه وأفكاره المنحرفة تحت هذا الستار، وغزوا عقول الشباب المتنور بهذه الترهات والتفاهات التي يسمونها (علمية)، وهي بعيدة عن العلم بعد المشرق عن المغرب.

وإذا درسنا الإلحاد من ناحية تاريخية فهو قديم قدم البشرية، ولكنه لم يكن بهذه الصورة المعهودة اليوم، بل كان عبارة عن إنكار وجحود لبعض المسلَّمات كالبعث، ووُجدت نماذج من الانحلال الخلقي في بعض الديانات كالمزدكية، ولكنه في أيامنا التي نعيشها ظهر التبجح بإنكار وجود الله بطريقة غير مسبوقة وغير معهودة من قبل، والسبب في ذلك قيام مؤسسات وأنظمة عالمية كبرى بالعمل على نشر الإلحاد بغية أهداف سياسية أو اقتصادية أو دينية.

أنواع الإلحاد:

يحاول الملحدون دائما أن يُظهروا أنفسهم بمظهر العلم والمنطقية، وأنهم وصلوا إلى الإلحاد نتيجة استدلال

علمي منطقي، ولدى مراقبة أنواع الملحدين نجدهم أنواعًا وأصنافًا تختلف عن بعضها البعض بحسب الدافع لهم إلى الإلحاد، كما أن إلحادهم درجات متفاوتة، فمنهم من ينكر الإله الخالق تمامًا، ومنهم من ينكر الأديان فقط، ومنهم من يبقى في حيرة بين إنكار الخالق وإثباته، بينما تجد آخرين اتخذوا من الإلحاد دينا ومنهج حياة يدعون إليه بكل ما أوتوا من قوة وحجة وبيان.

وكل أنواع الإلحاد المعروفة لدى الباحثين ترجع إلى نوعين على العموم؛ الإلحاد العاطفي والإلحاد العلمي.

الإلحاد العاطفي:

إن الإلحاد العاطفي: هو إنكار الإله الناتج عن صدمات نفسية نتيجة لبعض الأزمات والأوضاع الصعبة التي عاناها الشخص، وقد يكون نتيجة شعور الملحد بأن الله غير عادل أو لا يتدخل لإنقاذ الضعفاء، كما حدث في الحرب السورية والعراقية والأفغانية وأمثالها من الحروب التي انتصرت فيها قوى الشر والكفر والطغيان على المؤمنين، وقد قامت قوى الشر في هذه الحروب بارتكاب مجازر فظيعة ضد الأطفال والمدنيين أدت إلى صدمة لدى بعض الشباب الذي يحمل تصورًا مغلوطًا عن الإيمان والدين وقوانين الكون والحياة، وهذا الصنف من الملحدين يحمل حقدًا كبيرًا على الدين وممثليه.

ومن أشكال الإلحاد العاطفي الإلحاد المادي، ومن أسبابه شعور الملحد باستحقاقه لقدر أكبر من الرزق في الحياة وأن الإله ظلمه إذ أغنى فلانا ولم يغنه، كما أن من أسبابه محاولة النفس التخلص من الشعور بوجود الإله في ظل جموحها نحو الشهوات والفواحش أو الجرائم، إذ تشعر النفس بالضيق من فكرة الحساب والقيامة والإله، ومع الأيام تتكون لدى الملحد قناعة بأن الله والأديان ليس لهم وجود في الواقع.

كما أن لأخطاء رجال الدين الفاسدين دورًا كبيرًا في انتشار هذا النوع من الإلحاد، كما حدث بفعل الكنيسة في القرون الماضية في أوربا، وكما يحدث اليوم في بلاد المسلمين بسبب شيوخ السلاطين والشيوخ الماديين، أو بسبب التنظيمات المتطرفة المشبوهة التي تجعل بعض الضعفاء يتخلى عن الدين ويراه سببًا لكل مصيبة متجاهلًا الأسباب الحقيقية لمشاكلنا السياسية والاجتماعية والأخلاقية.

هذا النوع من الإلحاد قد يلجأ صاحبه إلى إظهاره بمظهر الإلحاد العلمي والمنطقي ويستهزئ بالمؤمنين كنوع من الجدل والإقناع والتسويغ للنفس في إنكارِ وجودِ خالقها.

وهذا النوع من الإلحاد غالبا ما يختفي بزوال أسبابه الاجتماعية أو وجود الشاب في بيئة اجتماعية منضبطة أخلاقيًا ودينيًا.

يقول الله تعالى في وصف هذا الصنف من الناس: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ * وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * قُلِ اللهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ﴾ [سورة الجاثية: آية ٢٣-٢٧].

الإلحاد العلمي:

إن الإلحاد العلمي: هو الإلحاد الناتج عن مسيرة بحثية قام بها الملحد حتى وصل إلى نتيجة إنكار الإله، سواء كان الدافع له قبل ذلك شكًا عقليًا محضًا أو أسبابًا عاطفية، ولكن الملحد في هذه الحالة يستدل لما يعتقده بأدلة يظنها علمية منطقية غير قابلة للنقض، وكثير من هؤلاء الملحدين هم من عباقرة العلوم الذين وصلوا بانغماسهم في المادة إلى إنكار كل ما لا تراه عيونهم أو تلمسه أيديهم أو تدركه عقولهم.

إن انطماس البصيرة واعتداد الملحد بعقله إلى درجة تأليهه له سبب أساس في هذا النوع من الإلحاد، وقد ذكر الله صنفًا من الناس الذين يعادون الله ورسله ودينه بسبب الكبر ووصف حالهم أبلغ وصف، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (٥٦) لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٥٧) وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [سورة غافر: آية ٥٦-٥٨].

لقد ظهر الإلحاد العلمي في العصور الحديثة في أوربا، إذ كان ردة فعل على طغيان الكنيسة واتحادها مع الحكومات في استعباد الناس وقهرهم ومنعهم من التحرر والانفتاح، وأما الإلحاد بين المسلمين فهو ناشئ - في الغالب - عن تقليد أعمى للغرب بعد النهضة العلمية التي وصل إليها

بعد إنهاء سلطة القساوسة والباباوات على المجتمع والعقل الغربي وحصرهم في الكنائس.

إن الأسباب التي أدت إلى ظهور الإلحاد العلمي صادرة في الغالب عن الكنيسة ومشاكل المجتمع الغربي، ولهذا لا يمكن الحديث عن حلول للإلحاد إذا لم ندرس أسبابه.. ومن المخيف اليوم محاولة الغرب ومن معه من حكومات عميلة ورجال دين فاسدين وتنظيمات متطرفة دينية وعلمانية صناعة ظروف في العالم الإسلامي تتشابه تمامًا مع ظروف المجتمع الغربي إبان ظهور الإلحاد فيه.

الأسباب في ظهور الإلحاد العلمي:

١. **دور الكنيسة الأوروبية في تحريف الدين:** حيث قام الباباوات والقساوسة عبر مئات السنين على تحريف دين النصرانية المنزل من عند الله وتزويره، وقد كان لهذا التدخل البشري أثر كبير في الإفساد من ناحيتين: ناحية الاعتقاد وناحية الحكم بما أنزل الله في الإنجيل.

٢. **موقف الكنيسة من العلم:** عاشت أوروبا في العصور الوسطى في ظلام الجهل والخرافة، ثم جاءت الحروب الصليبية فاحتك الصليبيون بالمسلمين وتأثروا بثقافتهم وحضارتهم، وبدأت أوروبا تنهض وتخرج من عصورها المظلمة، ولكن الكنيسة وقفت ضد الحركة العلمية التي بدأت تنتشر في أوروبا خشية ضعف سلطانها على العقول أمام سلطان العلم والمنطق.

٣. **طغيان الكنيسة ورجال الدين:** وذلك من خلال تعذيبهم وقتلهم لمن خالفهم الرأي ومشاركتهم الحكام الطغاة في التسلط على دماء الناس وأموالهم، وكان من تجبر الكهان على الناس أن فرضوا عليهم أفكارًا معينة عن شكل الأرض وعمر الإنسان على سطحها، وأجبروهم على دفع الأموال للكنيسة، وأكثر من ذلك إذ جعلوا أنفسهم الواسطة الوحيدة بين العبد وربه وفرضوا على الناس الذل بين أيديهم ليُغفر لهم.

٤. **الأديرة:** حيث تحولت الكثير من الأديرة إلى مراكز لجمع المال، والفساد الأخلاقي والفضائح الجنسية.

٥. **مهازل الباباوات:** ومن أشهرها مسألة صكوك الغفران حين زعم البابا أنه يضمن المغفرة للناس عند الله ويملك السلطة لبيع أراضٍ في الجنة مقابل مبالغ مالية معلومة تقدر بحجم الأرض المطلوبة.

٦. **دور اليهود في إفساد الحياة الأوروبية:** استغل اليهود انحرافات الكنيسة ورأوا الفرصة سانحة لينقضوا على النصرانية - عدوَّهم القديم - فاستخدموا ثرواتهم الضخمة لبناء تنظيمات سرية تعمل على بث الأفكار الهدامة وإفساد الأخلاق ونشر الرذائل والإلحاد باسم التقدم والحضارة تارة وباسم الحرية الشخصية تارة أخرى. وقد استغل اليهود الحربين العالميتين الأولى والثانية لتفعيل مؤسسات الانحلال والإلحاد بشكل واسع بحيث شملت مجمل القارة الأوربية والأمريكية وبعض الدول الآسيوية.

٧. **تخلف المسلمين:** لقد بقي الإلحاد عبارة عن حالات فردية أو نزوات ضعيفة في المجتمعات الإنسانية لعصور طويلة في ظل قوة المسلمين وقيادتهم العالم في فترات متتالية، حيث كان العلم والدين يمشيان معًا في خدمة البشرية، مما قطع الطريق على أبالسة الجن والإنس في نشر الإلحاد، ولكن ما أن تراجعت قوة المسلمين وبدأت أوربا في تسلم القيادة السياسية والعلمية في العالم حتى تحول الإلحاد في ظل الظروف الاجتماعية والسياسية المعروفة في بلدانهم إلى نموذج حياة، وفي ظل غياب القوة السياسية والعسكرية للمسلمين في القرن العشرين استطاع أبالسة البشر تحويل الإلحاد وما يرافقه من انحلال أخلاقي وفساد اجتماعي إلى منهج حياة يحكم دولًا وشعوبًا كاملة.

الجهود في مواجهة الإلحاد:

عندما شاع الإلحاد في العصور الحديثة بداية من أوروبا برز في مواجهته كثيرٌ من القساوسة ورجال الدين المسيحيين؛ إذ لم تكتفِ موجة العلمنة والإلحاد بمحاربة الفساد الكنسي، وإنما كان هدفها هدم الكنيسة بحد ذاتها واجتثاث الإيمان بالله ورسله من أساسه بحجة الفساد الذي استشرى في كبرى الكنائس والأديرة النصرانية، ورغم عدم إنكار جهود رجال الدين النصارى في مواجهة الإلحاد فقد كانت نتائجها محدودة بسبب الفساد الحقيقي الموجود في أصل الديانة النصرانية المعروفة اليوم نتيجة لتحريف النصوص والتلاعب بها عبر مئات السنين.

وعندما وصلت موجة الإلحاد إلى العالم الإسلامي إثر سقوط الخلافة العثمانية وبداية عصر الاستعمار وما خلفه من حكومات علمانية أو لا دينية؛ قام العلماء المسلمون بمواجهته بكل ما أوتوا من قوة وظهرت كتب ومصنفات كثيرة في هذا الباب وقد أدى ذلك إلى تراجع الملاحدة واختفائهم من المجتمعات الإسلامية تدريجيًا.

إن صحة الدين الإسلامي ودعوته للعلم، وحكمته في التوفيق بين الإيمان والحياة وتماسك المجتمعات الإسلامية أدى لهزيمة الإلحاد، وكان من أشهر الكتب التي غدت مرجعًا في كشف حقيقة الإلحاد العلمي ومواجهته كتاب (قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن) للشيخ نديم الجسر[1] رحمه الله.

بعد هزيمة الإلحاد في نهاية القرن العشرين عاد للظهور من جديد إثر ثورات الربيع العربي وما أعقبها من عودة الطغاة إلى الحكم وما نتج عن ذلك من مشاكل اجتماعية واقتصادية وسياسية، وهو إلحاد عاطفي على العموم، يختلف عن موجة الإلحاد العلمي التي طالعتنا في أواسط القرن العشرين.

الإلحاد العاطفي يحتاج إلى استقرار سياسي واجتماعي واقتصادي لتزول آثاره، ولكن الخطر الذي بدأ يواجهنا هو محاولة الإعلام استخدام بعض المفكرين العلمانيين للحديث عن الدين والتشكيك به لتحويل الإلحاد العاطفي إلى إلحاد علمي أصيل في المجتمع، مستغلين بذلك الصدمة التي تعيشها الشعوب الإسلامية عمومًا والعربية منها خصوصًا.

وهنا تظهر أهمية كتاب قصة الإيمان في مواجهة الإلحاد العلمي كأحد أهم المراجع في هذا الباب.

كتاب قصة الإيمان:

هو كتاب من تأليف الشيخ نديم الجسر، وقد أصدره في السنة التالية لاختياره مفتيًا لمدينة طرابلس نحو عام ١٩٦١م، وقد جاء الكتاب في فترة انتشار الفكر الاشتراكي والإلحادي في المشرق، وكان له أثر كبير في توجيه الجيل المسلم في تلك الفترة بجانب مجموعة من الكتب الأخرى التي كونت منظومة الفكر الإسلامي في القرن العشرين.

لم يكتف الشيخ نديم في كتابه بعرض قضية الإلحاد بطريقة علمية والرد عليها بأساليبها؛ بل أضاف إلى ذلك الأسلوب الأدبي الذي تمتع به الكتاب، وطريقته القصصية الشيقة والسهلة في تقديم الأفكار الفلسفية والعقدية وتبسيطها مهما بلغت من التعقيد أو الدقة.

قصة الطالب:

يروي الكتاب قصة الطالب «حيران بن الأضعف» مع شيخه «أبي النور الموزون» لقد عانى «حيران» في مقتبل شبابه من خطرات وأفكار تسربت إلى كيانه، وساقته الظروف إلى الالتحاق بجامعة (بيشاور) وهي جامعة عريقة في باكستان، ولكن دراسته الجامعية لم تشفه مما ينتهبه من شكوك وأفكار، ولم يجد أجوبة للأسئلة التي تتوارد على خاطره ليل نهار، فلجأ إلى والده يعرض عليه ذلك، وأنه يعاني من استهزاء الأساتذة والمشايخ بأسئلته وإشكالاته، فأخبره والده بأنه مر بنفس تلك المعاناة وأن الله سخَّر له شيخًا جليلًا عالما سار به إلى شاطئ الأمان، وأن هذا الشيخ قد كبرت سنه وارتحل إلى بلده «سمرقند» ليعيش بقية حياته.

بسفر حيران بن الأضعف إلى سمرقند ولقائه بالشيخ «الموزون» تبدأ القصة وتبدأ معها الرحلة نحو النور واليقين.

تساؤلات العقل:

لقد كانت أول محطة في رحلة هذا الشاب الباحث عن الحقيقة بعض التساؤلات التي كتبها في ورقة صغيرة قبل أن يلتقي بذلك الشيخ الوقور، وهذه الأسئلة تبدأ بـ (ما ...؟ ومَن ...؟ ومِمَّ ...؟ وكيف...؟ وأين...؟ ومتى...؟).

وقد كانت هذه الأسئلة فاتحة الجلسات الطويلة، التي دارت بين هذا الشاب الحيران وذاك الشيخ الوقور الموزون، وقد بدأت تلك الجلسات بالحديث عن بداية ظهور الفلسفة الإنسانية وخاصة اليونانية منها.

بحر الفلسفة:

كانت نظرة معظم علماء المسلمين تفيد بوجوب القطيعة مع الفلسفة باعتبارها نقيض الإيمان، ولكن الشيخ نديم الجسر رحمه الله يصل إلى نتيجة مغايرة، ذكرها على لسان الشيخ «الموزون» كنصيحة لتلميذه «حيران» حينما قال له: (إن الفلسفة بحر على خلاف البحور، يجد راكبه الخطر والزيغ في سواحله وشطآنه، والأمان والإيمان في لُجَجِه وأعماقه)[2].

(١) الشيخ نديم الجسر عالم وسياسي لبناني ولد في طرابلس لبنان عام ١٨٩٧م درس في حمص وخدم في الجيش العثماني عام ١٩١٦ وتولى مناصب مختلفة في سلك القضاء في لبنان، دخل البرلمان اللبناني عام ١٩٥٧ برفقة الزعيم السني رشيد كرامي، انتخب مفتيًا لمدينة طرابلس عام ١٩٦٠، توفي عام ١٩٨٠، من كتبه: قصة الإيمان، الإسلام في العالم المعاصر، تراثنا بين التقدمية والرجعية، غريب القرآن ومتشابهاته. «موقع ذاكرة طرابلس وتراثها» على الشبكة العنكبوتية.

(٢) كتاب قصة الإيمان، ص ١٨

الفلاسفة والإيمان:

بحسب الكتاب؛ فإن الفلاسفة انقسموا في قضية البحث عن الإله الخالق إلى ثلاثة أنواع، فمنهم من اهتدى إليه وآمن به، ومنهم من عجز عقله عن تصوره فأنكر وجوده، ومنهم من حار عقله فتردد بين إثبات الخالق وإنكار وجوده.

وقد تحدث الشيخ الموزون فيما أملاه على تلميذه حيران عن الفلاسفة الغربيين كباكون، وديكارت، وباسكال، ومالبرانش، وسبينوزا، ولوك، وليبنز، وهيوم، وكانط، وبرغسون، الذين تلاقَوْا مع فلاسفة المسلمين على الإيمان بالعقل والإيمان بوجود الله ووحدانيته وعلى البراهين الدالة عليه؛ تلاقيًا يكاد يكون حرفيًّا، وقد عنون لهذه الفصول التي تتحدث عن هؤلاء الفلاسفة والتقائهم مع الفلاسفة المسلمين بـ «تلاقي العباقرة».

دارون والشيخ حسين الجسر:

وقد عقد المؤلف رحمه الله فصلًا كاملًا عن والده الشيخ حسين الجسر[٣]، صاحب (الرسالة الحميدية) وهي من أهم كتب العقيدة التي ألفت في القرن الماضي للرد على الملاحدة وخاصة المستندين في إلحادهم إلى نظرية التطور والنشوء الصادرة عن «دارون»، وكان ذلك من خلال الحوار بين الشيخ الموزون وتلميذه حيران بن الأضعف، حينما تطرق الحديث إلى دارْوِن صاحب نظرية النشوء والارتقاء، وكيف رد الشيخ حسين الجسر رحمه الله على الماديين في ذلك الكتاب العظيم.

ومما جرى ذكره في هذا الفصل أن «دارون» لم ينكر وجود الخالق، كان يؤمن به، وكان يؤمن بخلقه لأصل الأنواع.

يسأل حيران في ضمن حواره مع شيخه الموزون: إذن يريد دارون أن يقول: إن جميع الأحياء نشأت من أصل واحد تكون بخلق الطبيعة وبالتولد الذاتي لا بخلق الله؟

فيرد الشيخ الموزون: هذا من جملة ما أشيع عن دارون جهلًا أو بهتانًا. والحقيقة التي لا ريب فيها أن دارون مؤمن بوجود الله، أما أصل الأنواع فإنه يبدو مترددًا في تحديده لأنه مع ميله إلى رد الأنواع الحية كلها إلى أصل واحد يصرح بأنها ترجع إلى أربعة أصول أو خمسة، مخلوقة خلقًا من زمان طويل، كل زوج منها أصل، ولا يتردد دارون أبدًا في الاعتراف بأن الله هو الخالق لأصل الأنواع سواء أكانت أصولًا عديدة أو أصلًا واحدًا، لأن عقله لم يتسع لتصديق رأي القائلين بأن أصل الأنواع تولد تولدًا ذاتيًّا بنفسه وبفعل الطبيعة.

وبحسب الشيخ الموزون فإن الذين نشروا الإلحاد اعتمادًا على نظرية دارون هم من جاؤوا بعده من الملاحدة؛ إذ لم يرضوا قوله بوجود الخالق وأنه من خلق أصل الأنواع، ثم ادعوا أن أصل الحياة بدأ من كرية بسيطة ذات خلية واحدة، وادعى بعضهم أن الحياة نشأت عن كتل زلالية حية صغيرة، ومن أشهر القائلين بذلك (أرنست هيكل).

وبحسب الشيخ الموزون فإن أول من قال بنظرية التطور العام في الحياة البيولوجية وغيرها هو الفيلسوف «سبنسر»، ولكن لم تقم الحملة عليه كما قامت على «دارون» لأنه لم يأت بجديد في نظرية خلق الأنواع غير الذي ذكره دارون، كما أن الحملة ضد دارون كانت قد استنفدت قوَّتها يوم نشر سبنسر فلسفة التطور، فكان من الطبيعي ألا تثير آراؤه ضجَّة جديدة[٤].

الفلسفة الحقيقية لا تتعارض مع الإيمان:

لقد خلص الشيخ الموزون وهو يحاور تلميذه إلى نتيجة عرضها التلميذ على شيخه وأعجب بها أيما إعجاب، ومؤداها: أن نتاج الفلسفة الصحيح الذي انتهى إليه أكابر الفلاسفة وتلاقوا عليه، لا يتنافى أبدًا مع الدين الحق، في إثبات وجود الله، بل يؤيد هذا الإثبات بالنظر العقلي الخالص، الذي تتلاقى فيه عقول الأكابر من رجال الدين، مع عقول الأكابر من الفلاسفة، على أدلة واحدة.. وأن الدين الحق لا يتصادم ولا يتنافى مع حقائق العلم، التي قام على صحتها البرهان العقلي القاطع، لأن الدين الحق يجعل للعقل الكلمة الفاصلة العليا، في معرفة الحق.

كيف أثبت القرآن وجود الله:

حاول الفلاسفة قديمًا أن يثبتوا وجود الله أو ينفوا ذلك بواسطة بعض الأدلة والأقيسة العقلية، وقد سلك بعض علماء المسلمين هذا المسلك نفسه في إثبات وجود الخالق للرد على المشككين بوجوده من زنادقة أو ملاحدة الفلاسفة، أما منهج القرآن في ذلك فقد كان أبسط مما هو عليه الأمر لدى الفلاسفة ومن سلك مسلكهم، ألا وهو الاستدلال بالخلق على إثبات الخالق، وقد عقد المؤلف رحمه الله في كتابه قصة الإيمان فصلًا عن الدلائل والآيات التي ساقها القرآن للاستدلال على

(٣) كتاب قصة الإيمان، ص ١٨٠ - ٢٢٢

(٤) المصدر نفسه، ص ١٩٢ و١٩٣

وجود الله سبحانه، وأتبع ذلك بفصول عن آيات الله في الكون والآفاق، وآياته العظيمة في السماء وفي الأرض، وما فيها من الصنع العجيب والإتقان المحكم البديع.

وينبغي للمسلم اليوم إذا ما أراد أن يعالج هذه الظاهرة أن يسلك منهج القرآن في الاستدلال بآيات الله في كونه؛ إذ هو نوع من الاستدلال الفطري الذي يخاطب الفطرة والقلب في آن واحد. «إن إشاعة التفكر في الكون بين الناس له أثر عظيم في علاج الشك والإلحاد، وهو علاج قرآني من نوع فريد، يغنينا عن قضاء الوقت في الجدل «البحث عن الإيمان في داخل الإنسان بدل قضاء الوقت في استيراده من الآخرين».

إثبات وجود الله بين القرآن والفلاسفة:

لا بد لنا ونحن نحاور حملة الفكر المادي أن نميز بين الإلحاد والشك، فإن بينهما بونا في المعالجة وأسلوب الخطاب، كما لا بد لنا أن نقارن بين الأدلة العقلية التي ذكرها القرآن على وجود الله والأدلة التي ذكرها الفلاسفة والحكماء - من المسلمين وغير المسلمين - واستدلوا بها على وجود الله ووحدانيّته وصفات كماله.

لدى جمعنا بين ما استدل به الفلاسفة العباقرة وما جاء به القرآن من أدلة عقلية لإثبات الألوهية وصفاتها الأساسية نكاد نشعر بالعجب من شدة التوافق والتقارب في طرق الاستدلال والنتائج، وما ذلك إلا نتيجة للخطاب القرآني المنطقي الذي توافقه العقول الصافية والفطر السوية.

النهاية:

في نهاية القصة يصاب الشيخ بوعكة صحية ويشفى منها ويصاب على إثرها تلميذه حيران بحمى قاسية ويأخذه شيخه إلى المستشفى فيمكث مدة يأتيه الخبر في نهايتها بوفاة الشيخ «أبي النور الموزون» بعد أن ترك له ملفًا من المكتوبات التي كتبها بيده قبل وفاته.

وفي هذه الوصية ذكر الشيخ الموزون ما مر عليه من شك وكيف وصل إلى اليقين، وكان منها:

(يا حيران بن الأضعف! لقد عراني في عهد الشباب من كرب الشك والحيرة مثل الذي عراك، وأغراني بالفلسفة مثل الذي أغراك.

وأولعني بالجدل والسفسطة مثل العلم الأبتر والنظر الأخزر الذي أولعك.

وأوجعني من بعض رجال الدين مثل الجمود الذي أوجعك.

وقطعني عن البحث والدرس مثل الذي قطعك..)

ثم يذكر بعد ذلك هدايته على يد الشيخ حسين الجسر صاحب كتاب «الرسالة الحميدية» الذي نصحه بالتوسع في قراءة كتب الفلسفة والطبيعة جنبًا إلى جنب مع القرآن الكريم، وجمع ما قاله الفلاسفة عن الألوهية ومقارنتها بما ورد من أدلة إثباتها في القرآن الكريم، ففعل حتى وصل إلى اليقين بأن العقل والقرآن لا يتعارضان في قضية الألوهية بل يتوافقان تمام التوافق.

خلاصة الكتاب:

إن فكرة الكتاب تتلخص في أن العلم الصحيح والفلسفة العميقة لا يتعارضان مع الإيمان، بل يثبتان ما أثبته القرآن من الإيمان بالله ووحدانيته وكمال صفاته.

كما أن الكتاب يعطي نصيحة مهمة - لا تقل أهمية عن الفكرة العلمية فيه - مفادها؛ على الدعاة المسلمين أن يفهموا الآخر أو الحادث الوارد عليهم فهمًا صحيحًا حتى يستطيعوا التعامل معه بشكل صحيح، وإلا فإن الرفض الجامد ومنع الشباب من الاطلاع عليه بحجة خطره عليهم لن يشبع عقولهم ولن يدفعهم إلا إلى مزيد من البعد عنا والوقوع فيما نحذر.. إنه لن يعصم جيلنا من الشك وحبائل الشيطان إلا الإجابات المقنعة المعتمدة على أساسات متينة من علوم العصر مع توجيهات القرآن الإيمانية.

خاتمة:

إن الشباب المسلم لم يشك ويلحد إلا نتيجة الفراغ الذي يشعر به في وجدانه، وما ذلك إلا بسبب القصور في بعض جوانب الخطاب الديني المعاصر عن ملامسة أفئدتهم وعقولهم، أو عدم استماعهم له بشكل كاف بسبب المشوشات التي ملأت حياتنا اليوم.

إن كثيرًا من المدارس الإسلامية لا تزال تكتفي بتدريس الكتب العلمية القديمة دون الاهتمام بما جدَّ لهذه العلوم والكتب من تطورٍ وما جدَّ عليها من حوادث.

إن واجب المدارس والجماعات الإسلامية اليوم أن تهتم بتحديث مناهجها وَفق كل جديد لتكون متوافقة مع تغيرات العصر وأفكاره، وما يطرأ فيه من قيم علمية وفكرية وفلسفية جديدة، وإعداد طلبة العلم إعدادًا جيدًا بما يؤهلهم لدخول معترك الحرب الفكرية بأحدث الأساليب العلمية الموجودة في عصرنا الراهن، وعرض دين الحق بما يتناسب مع أساليب تفكير الناس في زماننا، لعله يكون على أيديهم نجاة الجيل المسلم والإنساني مما يعانيه من انهيار أخلاقي وقيمي وإيماني.

ضوابط المصلحة الدعوية

الباحث عبدالرحمن بن عبدالله رجو
ماجستير في الفقه الإسلامي مدير مركز هيئة الشام الدعوي في ريف حلب

الحمد لله رب العالمين، بيَّن لنا شرف العمل للدين، وحثَّنا على السير في ركاب عباده الصالحين، فلا أحسن ولا أعظم من الدعوة إلى الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [سورة فصلت: آية٣٣] والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.. وبعد:

فإن الدعوة إلى الله تعالى هي وظيفة الرسل عليهم الصلاة والسلام، بعثهم الله تعالى للقيام بها، وبذل المهج في طريقها؛ قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * وَدَاعِيًا إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾ [سورة الأحزاب: آية٤٥-٤٦]، وقال تعالى: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُسْتَقِيمٍ﴾ [سورة الحج: آية٦٧].

ولأهمية الدعوة إلى الله تعالى، ولعظم آثارها في الدنيا والآخرة، عَمَدَ أهلُها ورجالُها إلى أساليب متنوعة وإلى وسائل مختلفة، يستعينون بها لتحقيق أفضل النتائج وأحسن الثمار، والناس في ذلك بين مضيِّق وموسِّع، ومصيب ومجافٍ، ولهذا، فالحاجة إلى ترشيد العمل الدعوي قائمة، ومن ذلك الاحتياج إلى ضوابط تضبط المصالح الدعوية، كي لا تخرج الاجتهادات الدعوية عن الخط القويم، الذي يحظى بقبول قواعد الشرع الحنيف ومقاصده العظيمة.

أولًا: المقصود بالدعوة:

عرَّفها أهل العلم بتعريفات عديدة متقاربة، ومن التعريفات المعاصرة:

- عرفها الشيخ محمد خضر حسين - رحمه الله - بأنها: «حثُّ الناس على الخير والهدى، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ليفوزوا بسعادة العاجل والآجل»[(١)].

- وعرفها الدكتور عبد الكريم زيدان فقال: «والمقصود بالدعوة إلى الله الدعوة إلى دينه، وهو الإسلام ﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾ الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم من ربه سبحانه وتعالى»[(٢)].

- وجاء تعريفها في كتاب نضرة النعيم: «هي دعوة النّاس إلى الإسلام بالقول والعمل»[(٣)].

وهذه التعاريف يكمل بعضها بعضًا، فقد جمعت الرسالةَ التي توصلها هذه الدعوة، وهي دين الإسلام، وعمليةَ نشر الإسلام وطرقَ تبليغه، وإقامة الحجج، وبيَّنت حال القائم بها.

ثانيًا: المقصود بالمصلحة:

المصلحة عرفها الإمام أبو حامد الغزالي رحمه الله بأنها في الأصل: «عبارة عن جلب منفعة أو دفع مضرة»[(٤)]، ومن المتفق عليه بين جمهور علماء المسلمين: «أن الله سبحانه ما شرع حكمًا إلا لمصلحة عباده، وأن هذه المصلحة إما جلب نفع لهم، وإما دفع ضرر عنهم، فالباعث على تشريع أي حكم شرعي هو جلب منفعة للناس أو دفع ضرر عنهم»[(٥)].

والدعوة إلى الله تعالى بأحكامها ووسائلها راجعة إلى أحكام الإسلام، ولهذا: فإن إعمال المصلحة في الدعوة أمر معتبر وسبيل شرعي، شأنُ الدعوة في ذلك كشأن الأحكام الشرعية الأخرى، فإذا شهد الشرع باعتبار مصلحة دعوية ما فهي معتبرة، وإذا شهد لها بالرفض والإلغاء فهي ملغاة غير مقبولة.

ثالثًا: ضوابط اعتبار المصلحة الدعوية:

حذَّر العلماء عند العمل بالمصلحة من

(١) [الدعوة إلى الإصلاح: ١٧]
(٢) [أصول الدعوة: ٥]
(٣) [نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم: ٥-١٩٤٥]
(٤) [المستصفى: ١/ ١٧٤]
(٥) [أصول الفقه، لعبد الوهاب خلاف: ١/ ٦٤]

دخول الهوى وحظوظ النفس في قضية اعتبارها أو إلغائها، ودعوا إلى اليقظة والحذر في ذلك، فقد يختلط تقديرُها على الوجه الصحيح على طالب العلم؛ قال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله: «ولكن التحقيق أن العمل بالمصلحة المرسلة أمر يجب فيه التحفظ وغاية الحذر، حتى يتحقق صحة المصلحة وعدم معارضتها لمصلحة أرجح منها، أو مفسدة أرجح منها، أو مساوية لها»[٦].

فالحاجة كبيرة إلى ضوابط شرعية، تضبط هذه المصالح، وتضيء لطالب العلم طريقه، وتجعله على بصيرة في تقديرها واعتبارها في مسيرته الدعوية إلى الله تعالى. ومن هذه الضوابط:

١- **الضابط الأول**: أن تكون محققةً وحافظةً لمقصدٍ من مقاصد الشريعة، وهي: حفظ الدين والنفس والنسل والعقل والمال، قال الإمام الغزالي: «لكنا نعني بالمصلحة: المحافظة على مقصود الشرع، ومقصود الشرع من الخلق خمسة، وهو أن يحفظ عليهم دينَهم ونفسَهم وعقلَهم ونسلَهم ومالَهم، فكل ما يتضمن حفظ هذه الأصول فهو مصلحة، وكل ما يفوت هذه الأصول فهو مفسدة، ودفعها مصلحة»[٧].

ومن أمثلة ذلك: إقامة احتفالات حفظ القرآن الكريم، إذ في هذه الاحتفالات إدخال السرور على قلوب الطلاب، وفيها مظهر من مظاهر تعظيم كتاب الله تعالى، ففي هذه الاحتفالات مصلحةٌ تحقِّقُ مقصدًا من مقاصد الشريعة، وهو الاهتمام بالدين والعناية به، ولا شك أن القرآن الكريم هو أصل أصول الإسلام.

٢- **الضابط الثاني**: ألا تكون مصادمةً لأصل من أصول الشَّرع، كأن تكون مخالفةً لنص أو إجماع أو قياس جليٍّ، ويرى بعض أهل العلم أن محض افتراض ذلك لا ينبغي: «فإن فرض مخالفة المصلحة للكتاب والسنة والإجماع مجرد فرض لا واقع له»[٨].

ومن أمثلة ذلك: قطع يد السارق، فقد ذهب بعض المفكرين إلى أن الحكم بقطع يد السارق كان في وقته وظروفه يحقق المصلحة ويلائمها، وأما اليوم فلم يعد كذلك، وأن مصلحة الدعوة تقتضي القول بحبسه، والعمل على إصلاحه؛ حتى لا يؤدي ذلك إلى النفرة من الدين.

إن هذه المصلحة ملغاةٌ غير معتبرة؛ لأنها مخالفة لنصٍّ صريح في كتاب الله، قال تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللهِ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [سورة المائدة: آية٣٨-٣٩]، فالمصلحة كل المصلحة تكون بالقيام بما أمر الله تعالى، وذلك حينما يستوفي هذا الحكم شروطه ولوازمه، وأما تطبيق الحدود دون مراعاة شروطها ولوازمها فهو ظلمٌ للناس وللشريعة ذاتها.

والحقيقة أن الإنسان لو تفكَّر وتأمَّل في هذه العقوبات بتجرد وعقلانية، وهو متحررٌ من ضغط التأثر بالعالم الغربي؛ لتبيَّنَ المصالحَ العظمى من الاهتمام بهذه الزواجر الإلهية.

٣- **الضابط الثالث**: أن تكون المصلحة يقينية أو غلب على الظن اعتبارها، قال المرداوي: «مهما وجدنا مصلحةً غلب على الظن أنها مطلوبة للشرع، فنعتبرها؛ لأن الظن مناط العمل»[٩]، أي: يغلب على الظن وجود هذه المصلحة، وليست مصلحة موهومة.

ومن أمثلتها: إقامة المراكز الصيفية للناشئة، فقد عُلم من التجربة حصول نفع كبير منها، وكفُّ شر كثير بالقيام بها، فهي تفسح المجال للشباب للهو المباح، واستغلال الوقت في الخير، وبذلك يضعف تعرُّضهم لمواطن الانحراف ومجالس الفساد والشرور.

٤- **الضابط الرابع**: أن تكون المصلحة عامة لا خاصة، ويعني ذلك أنها توضع لمصلحة عموم الناس، وليس لمصلحة جهة معينة أو شخص معين، كما جاءت الإشارة إلى ذلك في كتاب الوجيز في أصول الفقه لعبد الكريم زيدان[١٠].

ومثال ذلك: أن تكون جماعة في سفينة، وقد وقعوا في خطر، فلو رمَوا واحدًا منهم في الماء لنجا البقية، وإلا فهم جميعًا في خطر، فهذه مصلحة ليست كلية عامة، ولذلك فلا رخصة لهم بذلك[١١].

٥- **الضابط الخامس**: ألا تكون هذه المصلحة في العبادات؛ لأن أمر العبادات أمر توقيفي، يلزم فيه الاتباع، ولأنَّ معاني العبادات لا تُدرك على وجه التَّفصيل، كما لا تُدرك وجوهُ المصالح فيها إلا بدلالة الشَّرع.

> قد يترك الداعية أحيانًا الإنكار على الناس في بعض المخالفات؛ خشيةَ أن يؤدي إنكاره إلى وقوعهم في منكرات أكبر منها

قال الإمام الشاطبي: «فالمصالح المرسلة -عند القائل بها- لا تدخل في التعبُّدات ألبتة، وإنما هي راجعة إلى حفظ أصل

(٦) [المصالح المرسلة، للشنقيطي: ١/ ٢١]

(٧) [المستصفى: ١/ ١٧٤]

(٨) [المصلحة عند الحنابلة: ١/ ١٨]

(٩) [التحبير شرح التحرير: ٧/ ٣٣٩٤]

(١٠) [الوجيز في أصول الفقه لعبد الكريم زيدان: ٢٤٢]

(١١) [انظر: شرح تنقيح الفصول، للقرافي: ٣/ ١٨٨، والمصالح المرسلة، للشنقيطي: ١/ ١٦]

الملة، وحياطة أهلها في تصرفاتهم العادية، ولذلك تجد مالكًا رحمه الله، وهو المسترسل في القول بالمصالح المرسلة مشددًا في العبادات ألا تقع إلا على ما كانت عليه في الأولين؛ فلذلك نهى عن أشياء وكره أشياء»[١٢].

رابعًا: ضوابط تحديد المصلحة عند التعارض:

واقع الداعية يجعله أحيانًا أمام خيارات متعددة، وقد يعجز عن الجمع بين هذه الخيارات، مما يدفعه إلى تقديم واحد على آخر، ولكن هذا التقديم أو الاختيار ليس متروكًا للرغبات والأهواء، وإنما لا بد فيه من الاجتهاد وبذل الوسع؛ لتكون المصلحة موافقة لمقصد الشارع، **ولقد وضع العلماء ضوابط يهتدي بها الداعية في تحديد المصلحة واختيارها عند حصول التعارض بينها:**

١- **الأول**: تقديم المصلحة الراجحة على المصلحة المرجوحة، وذلك حينما يعجز المكلَّف عن الإتيان بهاتين المصلحتين؛ قال الله تعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [سورة التوبة: آية١٩].

قال العز بن عبد السلام رحمه الله: «إذا تعارضت المصلحتان، وتعذَّر جمعُهما، فإن عُلِمَ رجحانُ إحداهما قُدِّمت»[١٣].

وقال ابن القيم رحمه الله: «وقاعدةُ الشرع والقدر تحصيلُ أعلى المصلحتين وإن مات أدناهما، ودفعُ أعلى المفسدتين وإن وقع أدناهما وهكذا»[١٤].

ومن أمثلة هذا:

السَّهر بعد العشاء، فإنَّ فيه كراهة؛ لكونه ذريعة إلى تفويت قيام الليل، ولكن إن عارضته مصلحة راجحة، كالسَّهر في طلب العلم وتحصيله، والسعي في مصالح المسلمين فإن الكراهة تزول[١٥].

٢- **الثاني**: دفعُ المفسدة الأكبر مقدَّم على دفع الأقل، وفي سورة الكهف توضيح لهذا الضابط؛ قال الله تعالى: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ [سورة الكهف: آية٧٩] فقد دفعَ العبدُ الصالح المفسدةَ الأكبر، وهي غضب السلطان وأخذه للسفينة، بمفسدة أخف، وهي خرق السفينة.

فقد يترك الداعية أحيانًا الإنكار على الناس في بعض المخالفات؛ خشيةَ أن يؤدي إنكاره إلى وقوعهم في منكرات أكبر منها، فيترك الإنكار في المخالفات التي هي أقل شرًّا وإثمًا؛ لعله بذلك يبعدهم عن الوقوع في الأعظم والأخطر.

٣- **الثالث**: أن يراعي الجانب الأقوى في المنفعة أو المفسدة، فإن كانت المنفعة أكبر جلبَها، وإن كانت المفسدةُ هي الغالبة درأها، وهكذا.

ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾ [سورة البقرة: ٢١٩] فلما كانت المفاسد أعظم وأغلب حُرِّم الخمر والميسر.

ومن ذلك امتناع النبي صلى الله عليه وسلم عن قتل المنافقين الذين أتعبوا الدعوة الإسلامية في المدينة بمكرهم وكيدهم وتأليب الكفار على المسلمين، والمصلحة في قتلهم ظاهرة، ولكن مفسدة قتلهم أعظم؛ فانتشار ذلك بين العرب يكون ذريعة إلى النُّفرة من دخول الدِّين.

قال الشاطبي: «فالمصالح والمفاسد الراجعة إلى الدنيا إنما تفهم على مقتضى ما غلب، فإذا كان الغالب جهة المصلحة، فهي المصلحة المفهومة عرفًا، وإذا غلبت الجهة الأخرى، فهي المفسدة المفهومة عرفًا»[١٦].

٤- **الرابع**: تقديم درء المفسدة على جلب المصلحة، وذلك إذا تساوت المصالح فيها مع المفاسد، والقاعدة المشهورة في ذلك تقول: «درء المفاسد مقدَّم على جلب المصالح».

والأمثلة في ذلك كثيرة، منها: إكراه شخص على إطلاق النار على الغير، كما كانت العصابة النصيرية تفعل مع العناصر الذين لا يريدون إيذاء المتظاهرين، فتأمرهم بإطلاق النار ومن يرفض يُقتل، فليس لهذا المكرَه أن يُنقِذَ نفسَه بقتل غيره؛ فقد تساوت المصلحة هنا مع المفسدة، فكان الاختيار هو درء قتل الغير، وإن قُتل هذا الشخص.

وفي الختام:

الحاجة كبيرة إلى معرفة ضوابط المصلحة في الحركة الدَّعوية، وإلى فقه الموازنة بين المصالح والمفاسد فيها؛ وذلك لأن هذا الفقه العظيم يؤهل الداعية لتحقيق مصالح عظيمة في دعوته، ودفع مفاسد كبيرة عن مجتمعه وأمته.

الإخلال بهذا الفقه يفوِّت على الأمة مصالح كبرى، كما يجلب لها مفاسد لا تُحمد عقباها.

تحديد المصالح واعتبارها، ليس لكل متصدِّر للعلم والدعوة، إنما هو من اختصاص أهل الفقه والعلم والنظر، والمعروف منهم بالتقوى والخير والصلاح، فجديرٌ بنا أن نرجع إلى هؤلاء العلماء الربانيين؛ لتصحَّ دعوتُنا وتسلم طريقتُنا.

اللهم ارزقنا العلم النافع، والعمل الصالح، واهدنا سبل السَّلام، والحمد لله رب العالمين.

(١٢)[الموافقات: ٣/ ٢٨٥]

(١٣)[قواعد الأحكام: ١/ ٥١]

(١٤)[إعلام الموقعين: ٣/ ٢٧٩]

(١٥)[انظر: إعلام الموقعين: ٣/ ١٤٨]

(١٦)[الموافقات: ٢/ ٤٥]

قراءة في أهم أسباب ظهور الخطاب الديني المتطرف

الباحث الإسلامي: حسن الدغيم

مقدمة

تندفع للسطح تساؤلات عميقة حول الأسباب التي دعت أو أسهمت في ظهور الخطاب الديني المتطرف، ونقصد به هنا الخطاب الذي يطلق عليه إعلاميًّا «السلفي الجهادي» على الرغم من أن كثيرًا من الباحثين لا يوافقون على هذه التسمية لأن المدرسة السلفية العلمية هي متضرر رئيس من هذا الفكر المنحرف.

في النصف الثاني من القرن الماضي ظهر في البلدان الإسلامية تياران متطرفان، الأول في بعض الدول والمجتمعات ذات الغالبية السنية، والثاني في صفوف الشيعة.

التطرف في المجتمعات السنية:

على العموم لم يعهد في تاريخ أهل السنة الميل أو النزوع إلى التطرف أو التكفير، وإن كانت قد ظهرت هذه النزعة عند أفراد قلة من العلماء السنة في العصور القديمة فإن ردود العلماء الراسخين عليهم بالإضافة إلى قواعد أهل السنة ومفهوم العدالة والإحسان السائدين في المجتمع المسلم السني كان كفيلًا بمحاصرة هذه النزعة وإماتتها حيث خرجت.. وأما في العصر الحديث فقد ظهرت في المجتمعات المسلمة السنية بعض الحالات الغريبة المتمثلة بخروج عدة جماعات منحرفة تنسب نفسها إليهم وتحاول جر شبابهم إلى فكرها المنحرف، وكانت بداية ظهور بذرة التطرف لدى هذه الجماعات المنتسبة زورا وبهتانا إلى أهل السنة في منتصف القرن الماضي نتيجة لتطرف الأنظمة العلمانية التي حاربت الدين بكل قوتها وزجت رجال الفكر والدعوة في السجون ونكَّلت بهم، مما دفع بعضهم لحمل أفكار متطرفة تبلورت فيما بعد لتكون جماعات منظمة، وكان من أوائل هذه التنظيمات التكفيرية التي حاولت تحريف منهج أهل السنة ولصق بدعة التطرف والتكفير به جماعة التكفير والهجرة في مصر، وجماعة تنظيم الجهاد في مصر أيضا ومن أبرز من ظهر فيها أيمن الظواهري، ومن خلال اختلاط عناصر الجماعة الإسلامية المصرية بدعاة الجهاد القادمين من السعودية في أفغانستان تكوَّن ما يسمى اليوم بجماعات «السلفية الجهادية» والتي انتقل عناصرها بعد ذلك لإنشاب حروب في كل من الجزائر وتونس وليبيا ومصر[1]، ثم الانتشار في باقي دول العالم وفق تنظيمات سرية خاصة بهم، وقد تمثلت هذه الحركة منذ ثلاثة عقود وحتى الآن بالقاعدة وبناتها، وكان آخرها وأكثرها تشوهًا وقبحًا التنظيم الإجرامي المسمى بداعش.

المتطرفون عند الشيعة:

هناك تكفير وكره وحقد في أصل عقيدة الشيعة المبنية على

(١) وهنا لا بد من الإشارة إلى أن جزءا من هذه الحروب صنعته الأنظمة بالتعاون مع عملائها داخل هذه الجماعات، بمعنى أنَّ هذه الحروب وخاصة التي حصلت في الجزائر لا يتحملها الجهاديون بشكل كامل بل الكثير منها قام به المخابرات وضباط الجيش لتشويه سمعة الإسلاميين بشكل عام، وساعدهم في ذلك غباء الجماعات الجهادية وقابليتها للاستخدام.

شتم الصحابة الكرام وتكفيرهم من جهة، وثارات الإمام الحسين رضي الله عنه من جهة أخرى، من خلال تحميل دمه لأهل السنة بعد أن غدروا هم به وكانوا سببًا فيما حدث له رضي الله عنه، ولكن في العصور الحديثة خفّت هذه النزعة إلى أن قدم الخميني وجماعته إلى هرم السلطة في إيران، حيث أعادوا فكرة التكفير والتطرف إلى واجهة الحياة الشيعية مرة أخرى بعد أن بدأت بالأفول، وتحول التكفير على يدهم من حالات تنظيرية في الكتب إلى تنظيم يسيطر على دولة كبرى مثل إيران، ويسعى جاهدًا لبث روح التطرف في كل التجمعات الشيعية في العالم المعتدل والمنحرف منها على السواء.

وهنا لا بد أن نقرر أن الجماعات التكفيرية التي ظهرت في صفوف أهل السنة لم تستطع أن تتحول إلى حالة عامة نظرا للجهود التي بذلها علماء السنة في الدفاع عن الدين القويم الذي أنزله الله على نبيه، بينما تحول التطرف عند الشيعة إلى حالة عامة، وأصبح من النادر أن تجد فيهم صوتًا معتدلًا يستطيع الكلام بله التأثير في الواقع الشيعي المتأزم اليوم.

وإذ كان مردُّ التطرف عند الشيعة راجعًا إلى أصل العقيدة بفعل التحريف الذي دخلها عبر العصور - وقد كان للخميني دوره في إعادة ظهورها إلى السطح - فإن الأسباب التي أدت إلى ظهور الخطاب المتطرف لدى بعض تيارات السلفية الجهادية تختلف تمامًا عن الواقع الشيعي. وهذا المقال خاص بتسليط الضوء على الأسباب التي أدت إلى ظهور بعض العناصر المتطرفة في صفوف أهل السنة بغية الوعي بها وإيجاد الحلول المناسبة لها.

إن تنظيمات السلفية الجهادية وإن كانت تعود لعقود سالفة فيمكن القول إنها بدأت بالانتشار المروِّع بعد غزو العراق حيث قامت بالقضاء على الجهاد السني في بلاد الرافدين وأنقذت أمريكا من ورطتها ومكنت إيران من رقاب المسلمين فيها، ثم تجدد ظهورها في ثورات الربيع العربيّ، صابغة إيّاهُ بلونها الإيديولوجي الحادّ، وطارحة كمًّا كبيرًا من الجدل حول أصولها الفكريّة، ومواردها الاعتقاديّة، وبخاصّة أنّها اختلفت مع مكوّنات إسلاميّة سنية عريضة، وواجهتها بالتكفير والاتّهام، حتّى صار هذا الجدل ممتدًّا إلى عامّة المسلمين حول الخوارج والبغاة والخلافة والإمامة والسُّنَّة والشيعة والولاء والبراء، وتحولت هذه التنظيمات الشاذة لقوى عسكريّة وأمنيّة، تفرض وجودها على الأرض، محاولة إلزام الآخرين بنظرتها الدينيّة الضيّقة، حتى تشخصت في إمارات وبيعات كان من أشهرها إعلان الخلافة على يد (إبراهيم بن عواد السامرائيّ) وما بات يعرف بداعش.

وأسهمت هذه التنظيمات المغالية بتحطيم المحطّم، وتقسيم المقسّم، وتسليم هذا الشرق الجريح، لحكوماتٍ استبداديّة عميلة للمخابرات العالميّة.

أسباب ظهور الخطاب المتطرف

ولعلنا نلخص هنا أهم الأسباب التي أدت لظهور الخطاب الديني المتطرف في بعض المجتمعات السنية، مما مكن داعش من التغرير بشبابها واستخدامهم في مشروعها لتدمير أهل السنة في كلٍّ من الشام والعراق.

إن الأسباب المؤدية إلى التطرف تنقسم إلى قسمين:

أولا: أسباب موضوعية (سياسية)

ثانيا: أسباب ذاتية (منهجية)

أولًا: الأسباب الموضوعية

١ - الاستبداد السياسيّ السلطويّ:

من أهم أسباب ظهور النزعة إلى التطرف لدى بعض الشباب الاستبداد السياسي السلطوي وقمع حركات التحرّر وبخاصّة الإسلاميّة، وسحقها بلا شفقة ولا رحمة، وانسداد أفق التغيير السلميّ، كما حدث في العراق وسوريا ومصر وكثير من بلدان الربيع العربي قبل الثورات وأثناءها، فهذا الواقع الاستبدادي يعتبر المغذي الرئيس لخطاب التطرف، وخاصة أن الحكومات المستبدة بالغالب تحسب على القوى العلمانية والحداثية، وكانت تمارس الانتهاكات بحق المتدينين والإسلاميين على وجه الخصوص، مما أشعر الكثير من الشباب المقموع والمضيق عليه بأنه مستهدف بدينه وعقيدته بل ومعاشه؛ إذ حرم من التوظيف الذي يحظى به العلمانيون في كثير من الأحيان، فكان ذلك يدفعه إلى الحقد والتطرف كردة فعل على الظلم المفروض عليه. إن التطرف العلماني السياسي سبب مهم في تغذية التطرف الديني، ولا نُبعد إن قلنا إن كلا من التنظيمات المتطرفة العلمانية والدينية يعتمد وجود أحدهما واستمراره على وجود الآخر.

٢ - مصادرة الإرادة الشعبيّة:

إن مصادرة الإرادة الشعبية والوقوف بوجه تطلّعات المجتمعات نحو الحريّة والكرامة وغياب الأمل بحلول سياسية أو سلمية؛ يدفع الناس إلى البحث عن حقوقها بالسلاح، وقد كان في الجزائر في نهايات القرن الماضي أوضح مثال على ذلك، وقد حدث قريبٌ من ذلك في مصر بعد الربيع العربي وانقلاب عبد الفتاح السيسي والجيش المصري على الحكومة الشرعية المنتخبة في مصر بزعامة الرئيس محمد مرسي.

٣- رمي المتدينين في غياهب السجون وتعذيبهم:

إن تطرف الأنظمة الحاكمة في طريقة تعاملها مع المتدينين ورميهم في السجون لمجرد كلمة أو فعل بسيط، أو التجني عليهم من غير سبب إلا انتقادهم لأخطاء الأنظمة يؤدي إلى حدوث شرخ في المجتمعات الإسلامية، ويزيد هذا الشرخ بزيادة أنواع الأذى التي يلقاها هؤلاء المظلومون في السجون، إذ لا تكتفي هذه الأنظمة بحبسهم، بل تتفنن في تعذيبهم وتعريضهم للإذلال والامتهان النفسي والأخلاقي والضغط الجسديّ والمعنويّ، مما يقتل الإنسانية في نفوس المعتقلين ويحول البعض منهم إلى آلة انتقام تمارس في حق مخالفيها مثل ما مورس عليها في السجون، وقد كان لسجون الطغاة دور كبير في تغذية التطرف الديني لدى كثيرين.

٤ - سيطرة الأنظمة الطائفيّة:

لقد سيطرت حكومات وتنظيمات طائفية على عدّة بلدان إسلاميّة، إذ مارست أنواعًا من السياسات العنصريّة والاقصائيّة، كما في إيران والعراق وسوريا وحتى لبنان.

فبعد سقوط الحكومة العراقية بقيادة الرئيس صدّام حسين عام ٢٠٠٣م؛ بدأت موجة جديدة من التطرّف الطائفيّ والعرقيّ تنتشر برعاية الأحزاب الشيعية الموالية لإيران كحزب (الدعوة) بقيادة (نوري المالكي)، و(فيلق بدر) بقيادة (عبد العزيز الحكيم)، و(جيش المهدي) بقيادة مقتدى الصدر، الذين ارتكبوا من الجرائم الطائفيّة ما لا يختلف كثيرا عما فعله جيش هولاكو ببغداد من تدمير لها وقتل وتشريد لأهلها، بل زادوا عمّا فعل هولاكو مرّات ومرّات من حرق الأطفال أحياء وتمزيق الأجساد وبقر البطون واستخدام المثاقب الكهربائيّة في تعذيب المواطنين، بلا ذنب ولا جريرة، مستدعين الذاكرة الكربلائيّة الشيعيّة، ودعوات الأخذ بالثأر من أهل السنّة، كأنّهم هم من قتل أهل البيت قبل مئات السنين.. وترافق ذلك مع إقصاء أهل السنّة، بحجّة اجتثاث البعث، ممّا ولّد نقمة اجتماعيّة كبيرة عند أهل السنّة على الشيعة، ومن الطبيعي أن يشكّل هذا ردّة فعل عنيفة عند الطرف الآخر، مع دخول أجهزة الاستخبارات العالميّة بكل ثقلها، لدفع الشعب العراقي للانقسام والاقتتال، ولاسيّما المخابرات الإيرانيّة، وجيش الاحتلال الأمريكيّ، وأدى كل ذلك لظهور جماعات سلفية جهادية متشدّدة مثل تنظيم الدولة (داعش)، كنسخة متطورة عن تنظيم القاعدة في أفغانستان.

٥- ارتهان الحكومات للقوى الغربية المستعمرة:

مما أسهم بشكل كبير في ظهور التطرف؛ ما يراه المجتمع المسلم من ارتهان حكوماته للغرب والعمل في خدمتهم، فقد أسهم ذلك في ظهور عدة شخصيات وتنظيمات جهادية شهيرة.

إن ارتهان الحاكم المسلم لأعداء الأمة يدخله في شبهة الكفر وخاصة إذا انضم إلى ذلك عمل هذا الحاكم على تعطيل شرع الله، بل ومحاربة المظاهر الإسلامية بعمومها. إن هذا الأمر سيدفع نسبة ليست قليلة من الشباب المسلم إلى إعلان كفر المجتمعات الساكتة عنهم ثم الانحدار نحو هوة التطرف والإرهاب تحت مسمى الجهاد، وإننا إذ نخطئ هذا التطرف ونواجهه نذكر دائما بأن هذه الأنظمة هي المسببة لذلك.

٦- ظروف القهر الاجتماعي والحرمان الاقتصادي:

من الأسباب اللاحقة للأسباب السياسية الأوضاع الاقتصادية المزرية لشعوبنا المتمثلة بحالة الفقر والحرمان التي تعيشها المجتمعات السنية في ظل الأنظمة الحاكمة، والدول العربية على العموم فيها أمثلة واضحة على ذلك، وهذا الفقر والانحطاط الاقتصادي إما أن يكون نتيجة لإطلاق أيادي كبار موظفي الحكومات لتعيث فسادًا في أرزاق الناس ومقدراتهم؛ بغية تجميع الدكتاتور الحاكم شلة من المنتفعين حوله من رجال السياسة والإعلام والمال، أو يكون خطة مدروسة هدفها إشغال الشعب بلقمة الخبز عسى ذلك يشغله عن الشعور بحقوقه المسلوبة في العيش الحر والكريم، وهذا ما يفسر تصرفات بعض الأنظمة الغنية التي تنفق المليارات على مشاريع فاشلة وتضيق على شعوبها في لقمة عيشه.

ثانيًا: الأسباب الذاتية المنهجية

إن الأسباب الذاتية للتطرف تختلف من زمان إلى آخر، ومن بيئة إلى أخرى، وبما أننا نتكلم عن واقع التطرف المعاصر فإن أهم أسبابه الذاتية تتلخص في الآتي:

١ - السيلان المعرفي:

إن السيلان المعرفي غير المنضبط له أثر كبير في سرعة انتشار الأفكار الخاطئة عن الدين والإنسان والحياة. ولهذا السيلان أوجه عدة تتنقل ما بين تطوّر الطباعة وسهولة النشر إلى الأنظمة المعلوماتيّة، وسهولة التداول المعرفيّ وخاصّة عبر مواقع التواصل الاجتماعيّ ودورها في تسهيل وصول الأفكار المتطرّفة إلى كلّ فرد على وجه الأرض، وهذا بدوره أدّى إلى انفلات التعليم الشرعيّ والتأثير الدينيّ الصادر عن المرجعيّات الشرعيّة المحافظة، حيث حجَّم الواقع الإعلامي والمعلوماتي دورهم؛ في مقابل فتح ساحة الدعوة لكلّ من هبّ ودبّ بدون أيّ موانع أو رقابة.

٢- التشويش على المشروع الإسلامي السياسي المعتدل:

من الأسباب الرئيسة في سرعة انجذاب الشباب المسلم نحو الخطاب المتطرف، فقدان الأمل في خلاص قريب نظرًا لغياب المشروع السياسي الإسلامي المعتدل بحسب هؤلاء الشباب. والواقع أن المشروع الإسلامي السياسي المعتدل حكم الأمة قرونا طويلة ولم يغب في يوم من الأيام في عصرنا الراهن ولكن التخادم الحاصل بين القوى العلمانية والمتطرفة في التشويش على المشروع الإسلامي يفقد بعض الشباب القدرة على رؤيته أو التفاهم معه أو فهمه، وقد استخدم المتطرفون والعلمانيون الإعلام والأنظمة السياسية كوسيلة ناجحة للتشويش على المشروع الإسلامي ومنع الناس من فهمه والتواصل الطبيعي معه.

٣- عدم ترشيد الخطاب الديني:

لقد غدت الوعود والمغريات دنيوية أو أخروية ركنًا أساسًا في الخطاب الديني اليوم لدى البعض، كالوعود السخية بإمكانية عودة الخلافة الإسلامية وفتح البلاد الغربية والتمكين لأمر الإسلام بمجرد مبايعة جماعة إسلامية أو بمجرد تحرير قطعة من الأرض وحيازة بعض السلاح، وصولًا إلى الوعد بدخول الجنة والحصول على الحريات بمجرد تفجير الإنسان نفسه في سبيل قتل فلان أو الانتقام من علان.

كما نجد نوعين آخرين من الخطاب الديني لهما دور كبير في سوق الشباب إلى التطرف، وهما الخطاب الحماسي الذي يخاطب عاطفة الشباب ويثير كوامن الغضب في نفوسهم على الداخل والخارج دون وجود أي واقع ترشيدي لهذه الطاقات الغاضبة، وأما الخطاب الآخر فهو الذي يقوم به علماء السلطة حيث يستفزون الشباب المسلم من خلال تسخيرهم الدين لخدمة الطغاة بكل فجاجة أمام سمع الأمة وبصرها.

كل تلك الخطابات المستفزة والتصورات الخاطئة عن الحياة والدين، في ظل التشويش على الخطاب الديني العاقل المبني على الإيمان ومنعه من الوصول إلى الجيل والتواصل معه بوضع طبيعي؛ أدى لانحراف كثير من الشباب المسلم في العَقدين الأخيرين.

٤- دعوات الجهاد العشوائية:

حيث تصدر هذه الدعوات العشوائية في الغالب عن دعاة متطرفين أو دعاة جهلة بالواقع الاجتماعي للأمة، وخطر هذه الدعوات في كونها تتم دون وجود إمكانيات تنظيمية وإدارية قادرة على استيعاب الشباب المجاهد في تشكيلات مأمونة من الانحراف والغلو، وهذا ما أدى لاندفاع عدد كبير من الشباب المسلم للقتال في سوريا فغُرر بهم وانخرطوا في مشاريع داعش والقاعدة وانقلبوا وبالًا على أهلهم.

لعل هذه الأسباب الأربعة التي ذكرتها تعتبر أهم المغذيات الذاتية لظهور الخطاب المتطرف وسرعة انتشاره بحسب الاستقراء ومراقبة الواقع، وإذا انضم إليها ما سبق ذكره من أشهر الأسباب الموضوعية نستطيع تكوين تصور شبه متكامل عن شرايين التطرف ومغذياته في مجتمعاتنا المسلمة.

الخاتمة:

كثيرةٌ هي أسباب ظهور الخطاب المتطرف، بعضها عميق، وبعضها مباشر، وبعضها ذاتي، وبعضها موضوعي، وقد اقتصرت هنا على تسليط الضوء على أقرب المؤثرات المحيطة بنا مما قد تمتد يدنا إلى تغييره يوما.. وهناك أسباب خارجة عن قدراتنا وتكمن في الأثر الدولي في هذا الباب، ولعل من أهمها التسلل الاستخباراتي الغربي والإسرائيلي والإيراني إلى داخل بعض التجمعات الإسلامية السنية وزراعة العملاء فيها - منذ سقوط الخلافة العثمانية - وتأمين الدعم الإعلامي اللازم لها لإشعال نيران التطرف في أماكن تواجدها، يضاف إلى ذلك عمل بعض أنظمة الحكم في الدول الإسلامية على نشر التطرف والتكفير لاستخدامه في مواجهة دول إسلامية أخرى منافسة أو معادية لها.

ونجد لهذه الحواضن البيئية للتطرف دعمًا ماليًا ولوجستيًا في معظم الدول الأوربية والأمريكية وكثير من دول آسيا وإفريقيا، حيث يسيطر حملة هذه الأفكار التكفيرية أو المتطرفة على مساجد ومراكز إسلامية كثيرة في هذا العالم، وتعمل معًا على نشر تصورات متشددة وخاطئة عن الدين والشريعة، تجعل المتدين عن جهل مستعدًا لتلبية أول نداء للقتال أو التطرف في أي بقعة من هذه الدنيا دون معرفة بالعدو أو الأرض والواقع الذي سيذهب إليه.

ونهاية؛ يمكننا القول: إن علاج قضية الخطاب الديني المتطرف تكمن في علاج الأسباب التي أدت إليه، أو على الأقل محاولة تطويق آثارها التي تصل إليها أيدينا وتطيقها قدراتنا المحدودة، وذلك من خلال ترشيد الخطاب الديني والأخذ على يد دعاة الغلو والجهل أو الانحلال، وتنظيم العمل الإسلامي وترشيد الطاقات.

كما أن فتح باب الاختيار السياسي، وإقامة القضاء النزيه وتحقيق العدالة السياسية والاجتماعية وتحسين الأوضاع الاقتصادية؛ كل هذا كفيل بكبح جماح التطرف المصنوع والمسيس، ليحل محله مشروع إسلامي ناضج تجتمع فيه إرادة المسلمين على كلمة حق ورشاد..

والحمد لله رب العالمين.

الخطاب الديني للناشئة

الكاتبة: عابدة مؤيد العظم

إن ميدان تربية الناشئة والمراهقين في عصرنا أصبح أحد أعقد القضايا التربوية، وإذا كنا نتحدث في جانب التربية الدينية والأخلاقية، فإننا ندخل منطقة الألم المليئة بالمتناقضات المبنية على قابلية المراهق للشيء وضده بدرجات متقاربة، ففي ظل انفتاح الناشئة على الإعلام بكل ما فيه، أصبح من الصعوبة بمكان أن يتحكم الوالدان بتربية أبنائهم أخلاقيًا أو دينيًا أو حتى مهنيًا واجتماعيًا.. ولعل من أبرز الإشكاليات التي تهدد استقرار المجتمع الإسلامي المتدين مسألتي التطرف والتفلت.

وأود هنا أن أجيب عن سؤال يكثر دورانه في مجتمعاتنا المسلمة اليوم؛ وهو: يهتم الآباء والأمهات المسلمون بأولادهم منذ الرضاعة ويحرصون على تنشئتهم تنشئة صالحة، فيعلمونهم الأخلاق الحسنة والصلاة والصيام ويحفّظونهم القرآن، وعندما يشبون عن الطوق ينحرفون عن الطريق ويبتعدون عن دينهم، حتى ترى الفتاة تخلع حجابها، والشاب يترك عبادته وحدود دينه، وقد ينحرف قسم منهم نحو العلمنة أو الإلحاد.. أين العلة وكيف نعالجها؟

إن انحراف بعض الأبناء وتَشَكُّكهم فيما تربوا عليه من استقامة وأخلاق أصبح ظاهرة مقلقة، ومشكلة حقيقية، ربما لا يكاد يخلو منها بيت اليوم، فأصبحت بحاجة إلى دراسة متعمقة، وحاجة ماسة إلى التكاتف والتعاون للخروج منها.

إن البحث في أسباب هذه المشكلة جزء كبير من الحل، وإذا كانت العملية التربوية تتكون من المربي المتمثِّل في الوالدين أو المعلم، ومتلقٍّ ممثَّلًا في الأولاد والتلاميذ، فإن الركن الثالث لها هو منهج التعامل والتخاطب بين الركنين الأوليين.

لدى بحثنا في واقع التربية اليوم فإننا على العموم لا نجد إشكالية أصيلة في ذات المربي أو الناشئ، ونتيجة لذلك فإن المشكلة الأساسية تكمن في «أسلوب الخطاب»، وفي طريقة التوجيه. كلنا يعرف أن «الزمن تغير»، وكلنا يكرر مقولة؛ ربوا أولادكم لزمن غير زمنكم، ثم لا نراعي ذلك في التربية، فإذا تعددت الفتاوى نأخذ بالأشد، بحجة أنها الأقوى والأحوط، وإذا رغب الأولاد بالمشتبهات حرَّمناها عليهم بدل أن نقبلها بشروط ونراقبهم... مما أشعرهم بالحصار، فتاقوا إلى الانطلاق.

وقد يقول قائل: وهل نغير الدين لأجلهم؟! والجواب: طبعا لا؛ ولكن الدين فيه سعة، وفيه أقوال راجحة ومرجوحة، وأقوال تتصف بالشدة وأخرى باليسر.. فنأخذ بالمرجوح والأيسر - إن اقتضت المصلحة ذلك - بغية حمايتهم مما هو أخطر.

ولنا في تدرج الشرع الحكيم في تحريم الخمر على فترات عبرة وعظة، وقد حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم زواج المتعة وأحله ثم حرمه حتى اعتاد الناس على حرمته.

ولعل أكبر مشكلة أدت إلى انفلات الناشئة اهتمامنا بالظاهر، وعدم الانتباه لما يحدث بالباطن؛ فاهتمامنا بالصلاة والصيام وحفظ القرآن؛ يغلب بمراحل اهتمامنا بقوة الإيمان وربط القرآن بالحياة، وتمثل توجيهاته، وإدراك إعجازه، وتدبر آياته، واتباع تعاليمه، إننا نهتم فقط بما نراه، ولا نحاول قراءة دواخل أطفالنا، ولا نبذل وقتًا كافيًا في محاورتهم والنقاش معهم أو الإجابة عن تساؤلاتهم: فإذا صلى الصبي والتزم بالذهاب إلى المسجد ظننا فكره بخير وعافية، وإذا تحجبت الفتاة سلمنا بأنها مقتنعة بما تلبس وراضية عنه.. وهكذا نمضي بالتربية: نوجه أولادنا لأعمال كثيرة مرئية، بأوامر مستمرة وقاسية، فإذا انصاعوا وطبَّقوا ما نكرره اطمأنت قلوبنا إلى كونهم ملتزمين فلا يخشى عليهم، والواقع غير ذلك؛ إنهم يشعرون في داخلهم بالقلق والتوق إلى الانعتاق لأنهم مجبرون، فإذا سمعوا همسة تأثروا، وإذا سمعوا نقاشًا تشككوا، وهكذا.

على أن السبب في أي ظاهرة لا يكون واحدًا، وتتعدد الأسباب عادة، فيكون هناك سبب رئيس، وأسباب فرعية وثانوية، وسبب مباشر وقريب وآخر غير مباشر أو بعيد.

ومن الأسباب تغير الزمان وطروء بعض المشكلات الاجتماعية التي جاءتنا من الغرب، فلا ضير أن نعالجها كما عالجوها - فيما لا يخالف مسلمات الدين - ولكن بعض الآباء يتوسع في استيراد تلك الحلول الغربية لدرجة أن حياتنا كلها أصبحت غربية، في لباسنا وطعامنا وطقوس زواجنا.

وعلى الجهة المقابلة ترى بعض الآباء المتدينين على العكس من ذلك تمامًا، يرفضون كل ما جاء من الغرب صوابًا كان أو خطأ، فإن رأى ابنه يقتبس شيئًا إيجابيًّا مما جاءنا من الغرب تحفز له ووقف له بالمرصاد، ولو رآه يقلد في أمر ليس فيه مخالفة شرعية، ولكنه غير مألوف، منعه بحجة أنه تقليد للكفار، فيحس الأولاد بالتناقض بين حياتهم المتشددة في البيت وبين واقع الحياة خارجه، ويبدأ الناشئ بالشعور وكأن الدين عائق أمام الحياة، أو لا يصلح لكل زمان ومكان، وتتكون لديه القابلية للخروج من المبادئ الإسلامية أو التفلت من قيود الدين عند أول إغراء أو شبهة.

ومن مسببات ابتعاد الشباب عن الالتزام الديني قصور الخطاب الديني عمومًا، فإنه ما زال يتمحور في كثير من الأحيان حول قضايا هامشية أو قضايا خلافية قديمة أو أساسية مسلمة؛ بينما الشباب يعيشون كل يوم مشكلات عميقة وجديدة.

وكثر في مجتمعاتنا الدعاة التقليديون الذين يتمسكون برأي فقهي أو مذهب واحد ويعرضونه وكأنه الحكم الوحيد في المسألة، فيتعذر على بعض الشباب الالتزام به ويضطرون للمخالفة، ثم يتجرؤون بعد ذلك على الثوابت والأمور المتفق على حكمها.

وعلينا أن نعترف أننا نحن المربين قد قصرنا في إعطاء أولادنا الفكر الإسلامي متكاملًا مع الأخلاق - وإن كان تقصيرنا بدرجات متفاوتة - ومن المقصرين معنا في هذا الجانب القائمون على حلقات تحفيظ القرآن، حيث تكون الأولوية عندهم للحفظ، بدل أن تكون للتدبر على طريقة الصحابة، فكان ينبغي ألا يجاوز الحافظون الآية حتى يعرفوا مقاصد الشرع منها بما يتناسب مع أعمارهم وأفكارهم ويطبقوها في حياتهم، وعلى الشيخ والمقرئ أن يكون مؤدبًا لتلامذته ومعينًا لهم على الاستقامة فينتبه لتعاملاتهم وأخلاقهم ويحاول الإصلاح ما استطاع.

وبرأي البعض فإن السبب الوحيد في هذا الانحراف هو الإساءة في طريقة التربية، وليس ذلك بصواب، فإن كل تربية لا تخلو من الأخطاء مهما حرصنا، فالبشرية تعجز عن المثالية، ولكن علينا ألا نظلم أنفسنا، فإننا لا ندري التأثير السلبي من أين يأتي، فقد يأتي من مواطن كنا نظنها خيرًا.

وأذكر مثلًا على ذاك صبيًا كنت أعرفه نشأ في بيئة دينية معتدلة رائعة، وفي عيشة هنية راضية، وبين والدين متفاهمين، وكانت أمه حريصة عليه أشد الحرص، ترعاه رعاية فكرية شرعية قويمة، وكانت تحلم أن يكون فقيهًا أو مفتيًا، وذات يوم سمع نقاشًا في بيته، بين عمه وهو خطيب وإمام مسجد، وأبيه وهو دكتور في كلية الشريعة، حول الآيات التي تركز على أن القلوب هي التي لا تعقل ولا تفقه.. فتساءل: كيف يكون التفكير بالقلب؛ بينما الفلاسفة والأطباء والعلم يقررون غير ذلك؟

كان ناشئًا صغيرًا، ولكنه تابع واهتمّ، وحين لم يجد إجابة تشفيه تحير، ومن هنا بدأت شكوكه - أي من أسرته الملتزمة التي تحرص عليه أشد الحرص - ولقد تغلغل النقاش في عقله وقلبه ولم ينسه، وبدأ يبحث عن الحقيقة بنفسه، وكبر وهو يتساءل، ودله ضلوعه باللغة الأجنبية على المواقع العلمانية واللادينية، فتسلط عليها وصار يبحث وحده، ثم وصل ببحثه الخاطئ إلى أن الرسالات بشرية، فخرج من الدين - مع إيمانه بوجود الله وأنه خالق الأكوان، وخالق الناس - وقد بذل الأهل جهودًا شتى في هدايته ونصحه، ولكن الشاب كان قد سلم نفسه لشكوكه ووساوسه، وإنك لا تهدي من أحببت.

الحل:

يجب أن نحاور أولادنا وننتبه، فأبناؤنا في بيوت كثيرة يصلّون لأجلنا، خوفًا منا أو طلبًا لرضانا، إن كثيرًا من أولادنا لم يقدروا الله حق قدره، ولم يتغلغل الإيمان في قلوبهم، ولم يعرفوا كيف يُصَلُّوا حبًّا في الله وطاعة لرسوله، ذلك الحب الذي يدفعهم للطاعة والامتثال والرغبة بالقرب من الله ورسوله.

ولنا في منهج النبي صلى الله عليه وسلم في الدعوة المكية قدوة حسنة، حيث قضى ثلاثة عشر عامًا بمكة وهو يدعو الناس إلى الإيمان، كان يعدد نعم الله عليهم ليقدروها، وكان يرقق قلوبهم ويدعوهم ليتفكروا حتى ثبت الإيمان في قلوبهم وتغلغل في كيانهم، وصاروا هم يسألونه عن أحكام الله خشية الوقوع في الحرام، حتى بدأ ينهاهم عن المسألة، خشية أن يحرم عليهم الأمر بسبب كثرة سؤالهم.. فأي إنجاز وأسلوب أعظم من هذا؟

إن الواجب علينا اليوم أن نولِي الإيمان والأخلاق الأولوية في تنشئة طفلنا المسلم، ولا تكون الصلاة والزكاة والصيام هي الهدف بحد ذاتها، إن الإيمان والاقتناع والحب سابق على الطاعة والعبادة، فإذا أحب الطفل أطاع، إن المحب لمن يحب مطيع.

فتاوى وقضايا فقهية معاصرة

صادرة عن مجلس الإفتاء السوري

فتوى حول قوانين التهجير والتغيير السكاني

السؤال: أصدر النظام عدة قوانين لما زعم أنه إعادة تنظيم إعمار المناطق المهدّمة بسبب الحرب بعد تهجير أهلها منها، وكان آخرها ما عرف باسم القانون رقم ١٠، فما الموقف الشرعي من هذه القوانين؟ وما أحكام التعامل مع هذه العقارات؟

الجواب: الحمد لله رب العالمين، ولا عدوان إلا على الظالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله وصحبه ومَن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فمنذ أكثر من نصف قرن والنظام يصدر القوانين والمراسيم التي تثبّت أركان حكمه وترسخ تصرفاته على الأرض، كان آخرها المرسوم رقم ١٠ لعام ٢٠١٨م، والذي يجيز إحداث منطقة تنظيمية أو أكثر ضمن المخطط التنظيمي العام للوحدات الإدارية، وبعد الرجوع إلى المختصين القانونيين مِن قضاة ومحامين وسياسيين تأكّد لدى المجلس أنّ هذه القوانين هدفها إكمال ما بدأته الآلة العسكرية، مِن إحداث التغيير السكاني في المناطق السّنية، وشرعنة جرائم التهجير القسري وتثبيت آثارها، وفتح المجال لتملّك هذه المناطق مِن المتحالفين ضدّ الشعب السوري عبر تدعيم مواقعهم حول المناطق السنية بأحزمة طائفية وشيعية مجلوبة من إيران والعراق وغيرها تُكمل ما بدأه أعداء الشعب مِن الضباط والشبيحة في استيلائهم على آلاف العقارات والأوقاف خلال العقود الماضية بمختلف الأساليب، وإن هذه القوانين تتيح الفرصة لكلِّ مدّعٍ ليسلب أموال المهجّرين واللاجئين بأدوات تسمى «قانونية»، كما أنها رسالة إلى المهجّرين بأنّ أملاكهم العقارية ستؤول إلى المالكين الجدد الذين ساندوا النظام، وستقدم مكافأة لهم على ما قدموه للنظام في معركته ضدّ الشعب.

وبناء عليه فإنّ مجلس الافتاء يقرر ما يأتي:

أولًا: اتفقت الشرائع السماوية والقوانين الأرضية والعهود والمواثيق الدولية على اعتبار الملكية الفردية واحترامها، وعدم جواز المساس بها، أو الاعتداء عليها، فأملاكُ المعصومين مِن المسلمين وغيرهم وعقاراتهم التي يقيمون بها، أو التي هُجّروا منها ثابتة لهم شرعًا، لا يجوز نزعها منهم ولا مصادرتها، وبهذا جاءت جميع الشرائع والقوانين، ولا يلزمهم إثبات ملكيتهم لها بوثائق أو أوراق معينة يمكن أن تكون قد فُقدت في ظروف استثنائية خلال المعارك أو التهجير، ما دامت ثابتةً لهم بالسكن، أو شهادة الشهود، أو غير ذلك مِن الطرق المتعارف عليها، وهذه الأحكام ثابتةٌ مهما طال الزمن وتغيرت الأحوال، لا تسقط بمرور الوقت ولا تقادم الأزمان، ولا تغير القوانين والأنظمة والحكومات، وما يحدث مِن ضياع أو فَقدٍ لبعض المستندات بسبب الحرب لا يترتّب عليه زوالُ الملكيّة، ولا يُجوِّز نزعَ العقارات والأملاك ولا مصادرتها فضلًا عن سنّ قوانين تجرد مالكها منها، وكذلك لا يجوز وضع اشتراطات تعجيزية للملّاك والمهجّرين لتثبيت ملكيتهم لعقاراتهم، مع عدم اعتبار الظروف الطارئة التي تُراعى في جميع القوانين والأعراف.

فإصدار هذه القوانين وما في معناها يعتبر جريمة وانتهاكًا لحقوق الإنسان في التملّك والحفاظ على أملاكه التي اتفقت عليها الشرائع والقوانين، ولـمّا طرد المسلمون جيوش التتار مِن بلاد الشام في عصر السلطان الظاهر بيبرس زعم وكيلُ بيت المال أنّ كثيرًا مِن بساتين الشام مِن أملاك الدولة، فأمر الملك بالحُوطة عليها -أي بحجزها- حتى يُثبت مَن يضع يدَه عليها أنّ هذه الأملاك له، فلجأ الناسُ إلى الإمام النووي، فكتب إلى السلطان كتابًا جاء فيه: (وقد لحق المسلمين بسبب هذه الحوطة على أملاكهم أنواعٌ مِن الضرر لا يمكن التعبير عنها، وطُلب منهم إثباتٌ لا يلزمهم، فهذه الحوطة لا تحلّ عند أحد مِن علماء المسلمين، بل مَن في يده شيء فهو ملكُه، لا يحلّ الاعتراض عليه، ولا يُكلَّفُ إثباته) ذكره الحافظ السخاوي في ترجمة الإمام النووي المسماة «المنهل العذب الروي».

ثانيًا: ما يؤخذ مِن عقارات المعصومين وأملاكهم، وما يُنزع منهم بأمثال هذه القوانين هي أملاكٌ مغصوبة، وأموالٌ منهوبة، والغصبُ مِن أعظم أنواع أكل المال بالباطل، وأشدّها جرمًا، وقد قرر الفقهاءُ أنّ المالَ المغصوب واجبُ الردِّ إلى صاحبه مهما طال الوقت، وأنّ كلّ ما يُجريه المغتصب على العقار المغصوب مِن تغييرات

وإضافات؛ لا يُسقط حقَّ مالكه فيه، وعليه، فجميع أحكام الغصب التي ذكرها الفقهاء جاريةٌ على هذه العقارات المنتزعة بهذه القوانين.

ثالثًا: لا يجوز لأحدٍ مِن المسلمين أن يسكن أو يشتري أو يبيع هذه العقارات، أو يساعد في تملُّكها، أو الترويج لذلك بأي طريقة كانت؛ لأنّ ذلك مِن التعاون على الإثم والعدوان، والله تعالى يقول: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [سورة المائدة: آية ٢]، كما أنّ فيه إعانةً للمجرمين على طمس معالم الحق، وعلى قهر الناس وظلمهم، وتجريدهم مِن حقوقهم، بل قرّر الفقهاءُ أنّ المسلم يأثم بأداء العبادة وسائر التصرفات في هذه الأراضي المغصوبة؛ لعِظَم حقوق العباد، وجُرم أكلِ أموالهم بالباطل.

رابعًا: يجب على الجميع الوقوف صفًّا واحدًا ضدّ هذا القانون الظالم، كلٌّ حسب استطاعته:

١- فعلى الجهات القانونية والسياسية القيام بما يلزم قانونيًّا لفضح هذه القوانين، وتوثيق آثارها ونتائجها على الأرض، ومخاطبة مَن يلزم لاعتبار هذه المراسيم وغيرها باطلة.

٢- على الإعلاميين والناشطين نشر الوعي بآثار هذه المراسيم والقوانين، وتاريخ النظام المجرم فيها مِن عقود.

٣- مَن استطاع مِن سكان تلك المناطق أو مِن غيرهم مِن الناشطين أن يوثّق الأملاك، ويقوم بحفظ السجلات العقارية بأيّ طريقة ممكنة فليفعل ذلك، بل هو مِن الواجبات التي يتوقف على إهمالها ضياع الحقوق.

٤- على طلبة العلم والمشايخ الذين يقيمون في المناطق التي تطبّق فيها هذه القوانين ألا يعملوا بموجبها، بل عليهم منعها قدر الاستطاعة وبحسب ما تسمح لهم ظروفهم والموقع الذي هم فيه.

٥- كما نحذّر المنتمين للعلم والفكر والإعلام وغيرهم مِن تأييد مثل هذه الخطوات والقوانين المتضمّنة للظلم والبغي على الناس، ومِن دعم كلّ ما يخل بحقوق الناس، ويجردهم منها؛ فإنهم مسؤولون عن ذلك ومحاسبون عليه يوم لا ينفعهم مال ولا جاه ولا سلطان، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((مَن أعان ظالمًا بباطل ليدحض بباطله حقًّا فقد برئ مِن ذمّةِ الله عز وجل وذمَّةِ رسولِه)) أخرجه الطبراني والحاكم وصححه.

وأخيرًا: نتوجّه إلى إخواننا المهجّرين مِن أراضيهم وبيوتهم، والذين صودرت أملاكهم وأموالهم مذكّرين لهم أنّ ما أصابهم إنما هو مِن عموم أنواع البلاء التي تصيب المسلم ويُبتلى بها، كما قال سبحانه: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [سورة البقرة: آية ١٥٥ - ١٥٧].

ولنا في رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام رضي الله عنهم أسوة حسنة؛ فقد عُذِّبوا وأوذوا في سبيل الله، وأُخرجوا مِن ديارهم وأموالهم بغير حقّ، فصبروا على ذلك واحتسبوه عند الله تعالى، فعوَّضهم الله خيرًا مما فاتهم مِن خيري الدنيا والآخرة، وكانت عاقبة أمرهم نصرًا وفتحًا: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ * لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ * مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ [سورة آل عمران: آية ١٩٥ - ١٩٧].

إنّ التمسك بما خرجنا لأجله مِن المطالبة بالحقوق ورفع الظلم، والإصرار عليه، والعمل لأجله بكلّ وسيلة مشروعة، والتبشير به بين الناس هو الواجب الذي لا ينبغي الحيدة عنه، وهو أفضل ردٍّ شعبي على هذه القرارات الظالمة، حتى يحكم الله بين الشعب وبين مَن يمنعه حقوقه، ويسعى في نزعها بكلّ سبيل، والحمد لله رب العالمين.

حكم شراء المسروقات

السؤال: مشايخنا الكرام: تتعرض البلدات والمدن التي يحتلها النظام أو يسيطر عليها بسبب المصالحات لحملة سرقة وتعفيش لممتلكات السكان والممتلكات العامة، وعادة ما يعرضونها للبيع بأسعار رخيصة في أسواق مخصصة بعد ذلك، فهل يجوز الشراء منها لتعويض ما فقدناه في الحرب أو السرقات؟ وكذلك سمعنا أنه وقعت سرقات في عدة مناطق في الشمال السوري، فما حكم الشراء منها؟ علمًا أن أصحابها غير معروفين لتُردَّ إليهم؟

الجواب: الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسوله الأمين، وعلى آله وصحبه والتابعين، وبعد:

فالبضائع المسروقة أو المغصوبة مال محرم لا يجوز شراؤه ولا بيعه ولا تملّكه، إلا لمن عرف بضاعته بعينها، أو أراد شراءها لإرجاعها لأصحابها، وتفصيل ذلك كما يأتي:

أولًا: السرقة واغتصاب أموال الآخرين من كبائر الذنوب التي توعد الشرع فاعلها، وغلّظ عقوبته، قال تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [سورة المائدة: آية ٣٨]، وإذا انضمّ إلى السرقةِ ترويعُ الآمنين واقتحامُ بيوتهم كان ذلك مِن الحرابة التي تستحق أقسى العقوبات.

ويجب على مَن وقع في شيء مِن هذه المعاصي والموبقات مِن أفراد الجيش الحر وغيره أن يسارع إلى التوبة منها؛ فإنها تحبط الجهاد وتغضب الربَّ تعالى، وتوجب العقوبة، قال رسول الله صلى الله عليه سلم: ((مَن ضيَّقَ مَنزلًا أو قطع طريقًا فلا جهادَ له)) رواه أبو داود، إضافة إلى التشبه بالشبيحة المجرمين، وخيانة الأمانة الموكلة لهم بحفظ أرواح الناس وأموالهم.

ثانيًا: المال المسروق أو المغصوب محرم، لا يجوز بيعه ولا شراؤه؛ لأنه ما زال في ملك صاحبه، ومِن شروط صحة البيع أن تكون السلعة مملوكة للبائع، والمسروقاتُ ليست ملكًا لمن سرقها ولا لمن انتقلت إليه، كما أنّ مالكها لم يأذن للسارق ببيعها أو التصرف فيها، ثم إنّ شراءها مِن هؤلاء اللصوص تعاونٌ على الإثم والعدوان، وتشجيع للمجرمين على التمادي في سرقة الأموال واغتصاب الأملاك، وقد قال تعالى: ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [سورة المائدة: آية ٢].

ويستثنى من ذلك:

١- مَن وجد ما يملكه مِن بضاعة ومتاع سُرق منه بعينه، ولم يجد طريقةً لاسترجاعه إلا بشرائه فيجوز له ذلك.

٢- مَن أراد شراء هذه البضاعة لتخليصها مِن السرّاق، وإرجاعها لأصحابها، فيجوز له ذلك، ويكون مأجورًا على حفظ مال أخيه المسلم وردّ ما سُرق منه.

ثالثًا: المال المجهول الذي لا يُعرف مصدره لا مانع مِن شرائه إلا في حالتين:

١- إن غلب على الظن بقرائن قوية أنه من المسروقات، فلا يجوز بيعه ولا شراؤه.

٢- المال المجهول الحال في بلدٍ عمّت فيه السرقات والفوضى، فيُغلَّب جانب المنع، تحرزًا مِن التعامل بالمسروقات المغتصبات الشائعة التي يصعب التمييز بينها وبين غيرها، ويُقتصر على التعامل فيما يُعلم مصدره ومالكُه.

رابعًا: مَن وقع في شراء شيءٍ مِن هذه البضائع المسروقة وجب عليه أن يتوب إلى الله مما فعل، ولا يعود إلى مثل ذلك.

ومن التوبة أن يعيد هذه المسروقات أو المغصوبات إلى أصحابها، أو يسلمها للجهات المسؤولة عن تلك المناطق ليقوموا بإرجاعها لأصحابها.

وعلى تلك الجهات أن تسترد الأموال المسروقة لإيصالها لأصحابها بكلّ طريقة ممكنة، فإن لم يُعرف أصحابُها مع استنفاد الجهد في البحث والسؤال عنهم جاز صرفها في وجوه الخير على المحتاجين والفقراء، مع تقييد ما يتعلّق بها من صفات وصور وتوثيقه، فإن ظهر صاحبها بعد ذلك تتكفل تلك الجهات بردِّ مثل تلك البضائع أو قيمتها.

وكذلك مَن اشترى مالًا يظنه حلالًا ثم ظهر أنه مسروق: فيعود المال لصاحبه، ويعود المشتري بالثمن على مَن باعه، أما ما خسره الشخص مِن أمواله بسبب الحرب أو السرقة فهو مِن المصائب التي تستوجب الصبر، والاحتساب عند الله تعالى، ولا يجوز له أن يعوض ذلك بأخذ مال غيره، أو الشراء مِن المسروقات وما لا يُباح مِن الأموال.

حكم الأموال التي تصرف للميت بعد موته

السؤال: تدفع بعض المنظمات أو الفصائل تعويضات لأسر الشهداء والمتوفين من منح أو ديات، فكيف نقسم هذه الأموال؟ هل تقسم كالميراث أم لها تقسيم آخر؟ جزاكم الله تعالى خيرًا.

الجواب: الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسول الله وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فأما دية القتل فتوزع حسب قسمة الميراث الشرعية، قال الإمام الشافعي: (ولا اختلاف بين أحد في أن يرث الدِّية - في العمد والخطأ - مَنْ ورث ما سواها من مال الميت؛ لأنها تَمْلِكُ عن الميت).

وأما ما يُمنح لأسرة الميت من راتب أو مبلغ مقطوع، من فصيله الذي يعمل معه، أو أي جهة مانحة أخرى دولةً كانت أو منظمة؛ فهذا المال إن بَينت الجهة المانحة طريقة صرفه فالقول قولها، وإن لم تبين فيصرف على من كان تلزمه نفقته حال الحياة من زوجة وأبناء ووالدين وغيرهم بما جرى عليه العرف، فهي هبةٌ لهم لمساعدتهم وإعانتهم في أمور حياتهم، وعلى هذا فيقدّم في الصرف أصحاب الحاجة منهم كل بحسبه ولا يقسم المال قسمة الميراث، والله تعالى أعلم.

المجلس الإسلامي السوري

SURİYELİ İSLAM KONSEYİ | SYRIAN ISLAMIC COUNCIL

مع بداية الثورة السورية المباركة تشكلت في الداخل السوري الهيئات والروابط الشرعية لتسد الفراغ الحاصل من غياب مؤسسات الدولة وانحسارها في المناطق المحررة، على صعيد آخر شهد عام ٢٠١١ مبادرات لإيجاد كيان جامع موحِّد من قبل العلماء والروابط التي أجبرها النظام على الاغتراب.. وعلى خطى التوحيد اجتمع نحو ٤٠ رابطة وهيئة شرعية في منتصف نيسان ٢٠١٤، ليعلنوا تأسيس «المجلس الإسلامي السوري»، الذي ضم العلماء والهيئات الشرعية والروابط العلمية السورية، ليكون قرارًا مشتركًا يعبر عن إرادة موحدة لرموز المدارس الفكرية الإسلامية المعتدلة في سوريا .

الهوية

هيئة مرجعية شرعية وسطية سورية، تسعى إلى جمع كلمة العلماء والدعاة وممثلي الكيانات الشرعية، وتوجيه الشعب السوري، وإيجاد الحلول الشرعية لمشكلاته وقضاياه، والحفاظ على هويته ومسار ثورته.

الرسالة

ترسيخ المشروع الإسلامي وتفعيل دور المؤسسة الدينية في المجتمع السوري.

الرؤية

تمكين المرجعية الإسلامية للشعب السوري من الاضطلاع بدورها الريادي في المجتمع.

المجلس الإسلامي السوري

SURIYELİ İSLAM KONSEYİ | SYRIAN ISLAMIC COUNCIL

info@sy-sic.com

www.sy-sic.com syrian_ic

syrianislamiccouncil